عماد حمزة

مبرومة

رواية



إهداء ٢٠١٦
دار الفارابى
لبنان

مبرومة

عماد حمزة

مبرومة

رواية

دار الفارابي

الكتاب: مبرومة

المؤلف: عماد حمزة

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/ ٣١٨١ - الرمز البريدي: ١١٠٧٢١٣٠

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى كانون الثاني ٢٠١٥

ISBN: 978-614-432-308-3

إهداء

من حق هذه الرواية أن تُهدى إلى الذين رحلوا وظلّت كلماتُهم كما مواقفهم في الذاكرة، وقد آن لها أن تعرِّشَ على الورق.

إلى أبويَّ علي حامد حمزة وزينب الحاج حسين حرب

وأخويَّ د. شوقي وهناء علي حمزة.

عماد

تقديم ضروري

قبل شهور، وفي شقّة صغيرة من منطقة الجناح على كتف بيروت، زرتُ صديقاً قديماً أقام حديثاً هناك، فأطلعني على أوراق وجدها مزروكة في شقوق الحيطان، مما أغراني بالتقصّي لمعرفة كاتبها، وقد نجحتُ في تتبع لائحة المستأجرين إلى أن انتهيت بعد جهود مضنية إلى السيدة سهجنان الكرّام التي استأجرت في وقت من الأوقات هذه الشقة. ولقد كانت السيدة سهجنان كريمة معي إلى حد أنها أتاحت لي الاطلاع على أوراقٍ أخرى بخطّ جدّها الحاج عبد الرسول محمد الكرّام، كما أنها تفضّلت عليّ، لساعات طويلة، بتفاصيل ما كان لهذه الرواية أن تتم من دونها.

عماد

عندما أمستْ أخيراً وحدها في المنزل البالي الذي أسمته «بيتها» بقرف، كانت في غاية الإحباط والأسى، فلم يعد يذكرُها أحدٌ إلا مَنْ تُلقي عليه التحية من روّاد المقاهي التي تنتقلُ بينها كفراشةٍ متعبة حول ربيع الكراسي والطاولات، وقهقهات الجالسين والجالسات.

ومن الصعب القول أنها كانت تعيسة: فهي نفسها لم تكن تدرك ذلك، والتعاسة إدراكٌ، التعاسة وعيٌ، وهي كانت تفتقر إلى كليهما افتقارها إلى صديقٍ واحدٍ يلمُّ بها، كلما خنقتها الوحدة التي طالما احتالت عليها بالبقاء الطويل بين الناس في المقاهي، ومراكزِ التسوُّق، والقيادةِ المتهوِّرة في الطرقات، حيث تتبادل الشتائم القذرة مع السائقين و لا سيما المراهقين منهم. أمّا بيتُها فقد كان بمثابة دورة مياه وسرير نوم، فإذا توافرا في أيّ مكانٍ من الدنيا، تجاهلته. ولعلها كانت تنسى وجوده أسابيع طويلة، طالما وجدتْ غرفةً تحطُّ فيها رحالها سواء عند صديقةٍ متزوجة تستطعم معها دفءَ زوجيةٍ نافقة، أو عند صديقةٍ عانسٍ مرمرتها العلاقات العاثرة، أو عند أختٍ تستعيدُ مع أطفالِها طفولةً باتتْ وراء كلِّ منال.

لا أحد يعلمُ اسمها الحقيقي غيرُ أبويها واخوتها وإخواتها وربِّ عملها الذي اطّلع على سيرتها الذاتية وإخراج قيدها، وكذلك صاحب المنزل الذي استأجرت منه ذلك المنزل الوضيع في قاع المدينة، وقد بادر إلى تسليمها مفتاح المنزل، مذ قرأ اسمها فأحبّها وتعاطف معها، إذْ وافق اسمُها اسم أمِّه. ولطالما كرهت المدرسة والمعلمين وخصوصاً حين كان أحدهم ينغِّم اسمها ازدراءً وسخريةً، ولا سيما في أثناء التّسميع، وهي ما كانت تجتهد إلا في الترّهات والمقالب بين الحصص، وفي أثناء الاستراحات.

كان اسمها سهجنان في أوراقها الرسمية، والكل يعرفها جنان.

وبالرغم من أنّ اسمها الحقيقي، قد أعانها على استئجار منزلٍ، وببدلٍ أقل من بقية المستأجرين، وذلك لأنّ اسم أمِّ الرجل السبعيني، مالك المبنى، قد وافق اسمها، وكانا قد اتفقا على بدلِ الإيجار، «ستماية دولار أميركي بالتمام والكمال ممهورةً بختمِ المصرف، فالتزوير على أبو دينو بالبلد.. لا أقبض بالعملة الوطنية، ولو بالزايد» قال أبو رعد، صاحب الملك وهو يملأ سند الإيجار. ثم أشرقَ وجهه فجأةً، ودمعت عيناه. «سهجنان؟ سهجنان؟ رحمةُ الله عليك يا أمي! إنّه اسم أمي».

- رحمة الله عليها يا حاج!

- أبو رعد، عيطيلي أبو رعد فقط. الواحد يا بنتي بروح عالحج قدوم بيرجع منشار...

- هههه!
- يا بنتي، لو الحِجّة براءة لكل مَن زار الكعبة، لما سمّوا الواوي حج واوي.. بتعرفي يا سهجنان ليش سمّوا الواوي حج واوي؟
- لأ يا حج! عفواً عفواً، عمي أبو رعد! خبرني.
- لأنو بميمس حول القن، ساعة بيعمل حالو بيسة، ساعة بيعمل حالو قرقود يابس، ساعة نايم، ساعة عم يبكي، ساعة بيعمل حالو عم يكزدر بالمنطقة، وبصير يدّشى متل الكأنو شبعان.. يعني بيتمسكن تـا يتمكن.
- والله!
- ولك اي يا بنتي، أنا حاجج مرتين عن بيي وامي، الله يرحمن، قد ما الشيخ عوّفني سماي، رايح جاي لعندي، ويقرّ عا راسي: «أنت يا بو رعد أحوالك منيحة، والله عاطيك، لازم تحج عن بيّك وأمّك، تسهّلوا وما حجّوا، بيلحقك إثم. وإذا مش فاضي تعطّل أشغالك وتروح، في مين يحجلّك عنهن. تمان تسع تلاف دولار بالكتير عالراس، عفواً، عن الحِجّة الوحدة. وإذا ضغطنا شوي، بيمشي الحال بتمان تلاف عالراس الواحد، عفواً عن الشخص الواحد، شو قلت؟»
- قلتلو: يا شيخ، خليني فكّر!.. شو عملت؟
- شو عملت يا حاج، عفواً، عمي أبو رعد؟

- ولا شي. شفت حملة حجاج وتنين وثلاثة وعشرة.. الله أكبر عليهن! الله أكبر عليهن! بيسألوني بدك الحِجة بأكل واللا بلا أكل؟ بدّك أوضة لحالك واللا مع ثلاث أربع أشخاص معك بالأوضة؟ بدك الأوضة مكيفة ولا عادي؟ انتبه السنة شوب كتير! والأضحية؟ شو عن الأضحية، عندك جمل، عندك بقرة، عندك خروف.. وكلو بسعرو! والحلاقة، فهي سُنّة، بدك حلاّق أصلي، واللا بيحلقلك، أو بيقصرلك مساعد المعرّف (عن أبو قريبو)؟ بدك.. بدك.. بدك بدك..
- قلتلن: بدي حج وبس، وبدي نام بالخيمة، عالطريق قالولي: لأ! حبيبي، السعودية دولة مش مثل هون، ممنوع الخيم إلا للباكستانية والهنود.. تفوه! انت متلن يا حاج؟ حاشا قدرك! بدك متلن، اتكل على الله وروح ع بكستان!
- قلتلن: طيب! قديش بتكلفني الحجة الوسط، قالولي: ولا شي يا زلمي أربع تلاف دولار للعادي، وسط يعني، ما في شي مميز، أوضة مع أربع خمس أشخاص، وبيحلقلك مساعد المعرّف، وطبعاً الأوضة مش مكيفة، شو بدك بالتكييف غالي، والأضحية معزاية، على فوقة التكت تحت العادي.
- أووف! شو يعني التكت عادي؟
- والله ما بعرف! يمكن بطبّونية الطيارة! هههه.

- وبعدان؟ شو عملت يا حاج؟ عفواً يا عمي بو رعد!
- عندي صديق من أيام الزغر، لا تزغري، شكيتلو همي، قال لي قوم معي! قمت! أخذني لعند ابن اختو. ابن اختو معرّف درجة أولى. حسب ما عرفت منو، وصلنا لعندو سلام وكلام، والزلمي عمل من قيمتنا قد ما تقولي، المهم قلّوا خالو: «يا سعيد، أبو رعد خيي وأمي وبيي. بالحرب فتحلي شقة بالبناية عندو، أربع سنين قاعد عندو، والأحوال ضيقة، فرنك ما أخد تا الله فرجها، ودبرنا حالنا، أمك! امك سكنت معنا، وبيك وانت واخواتك، كلكن. والله! والله بتسخّط عليك إذا بتزعلو لأبو رعد.
- اعوذ بالله يا خالي! عمي بو رعد! ما تقللي انو انت اللي بنايتو عالجناح؟
- بنايتو قول بناياتو، الله يزيدو!
- يا عمي، الملك لله، خجلتوني والله! ما عملنا شي يا جماعة.
- عملت كتير يا بو رعد، أمي بتضل تحكي عنك بالخير. وأنا بأمرك. قال سعيد».
- مش قليلة! هيك لكن! وكيف دبّرك سعيد يا حاج، عفواً عمي بو رعد؟
- شرحنالو القضية، فضحك حتى ضحّكنا وطق طقلنا خواصرنا.

وقال لي: «عمي بو رعد، حجة بيك وأمك عليّ. بدنا نسدّ الدين! بكلِّف تنين من المساعدين بالحملة يحجولك عن المرحومين».

- لا والله! لا والنبي! وقمت وقفت بدي أضهر، تكمشو فيّ. من هون لهون، قال: «طيب، اسمع مني عمي بو رعد، أنا حملتي، والحمد لله فيها مية معرف، معهن ميتين مساعد، وهول مدفعلن أجارن، عمّال على بطّال، ما بيكلفوني شي، اعطيني اسم المرحوم والمرحومة منشان عقد النية، وبحجولن، ويا دار ما دخلك شرّ!»

- الله يرضى عليك يا سعيد، لا ترجعني للموضوع. يخليلي ياك بدي أدفع تا ريح بالي وضميري، بعدان حسب ما فهمت الحجة مكلفة، عمنحكي عشر تلاف دولار عالحاج الواحد. شوف كيف فيك تشلبن الموضوع، واللا رح امشي! وحياتك يا سهجنان، فقع أخونا سعيد ضحكة وصلت للسما، وقال لي: «في ناس بتحب البظبظة، وأنا أول واحد اخترع المقامات بحملات الحج، عندي أحد عشر رخصة بأحد عشر اسم، لكل مقام حملة، ابن خيك سعيد استأجر الشيراتون بالحرام من سنتين، وبلشت أجِّر دوبل وتربل. بس بيني وبينك، كلو تفنيص، الحجة ما بتكلف شي مقابيل اللي مناخدو. احسب

معي: ثلاثمية وخمسين دولار تكت روحة رجعة، بدل سكن بالحرم ستين دولار، إنكنت بجنب المقام واللا بعيد عنو، محسوبك رابط مع السعوديين، بشيلولي المساكن القريبة، وأنا ما بقصّر معهن، شو بدن باخدلن معي، وعالمطار هونيك ميسرة، بيضربولي سلام، بكونوا ناطريني مناطرة، والله شنطة ما بينفتحلي عالمطار هونيك، قول هون محسومة!»

- ما شاء الله! الله يوفق ويبارك.
- صدقيني هيك يا سهجنان، الله يرحمك يا امي! خليني كمّل!
- كمّل يا حاج، عفواً عمي أبو رعد!
- بلا طول سيرة، قال لي سعيد: «الأكل كلو بسعر بعضو ونوع واحد: كبسة، منسف، منسف، كبسة، وشوية فواكه، ولبن ومي، كلن كلن مية وعشرة دولار، أحياناً بنزلّن منسف سمك وقريدس إذا كان سوق السمك فايض عالآخر حسب الموسم. شو بعد في؟ أي، عندك الأضحية عمي بو رعد، الخروف باب أوّل أبو لية مش أبو دنب بتقدر بمية وعشرين دولار، ودبح ع أصولو. عندك تياب الإحرام والبرنيطة للرجال، والمنديل للمرأة وشنطة الإيد، وربطة الرأس، والبطاقة اللي بتتعلق بالرقبة وعليها اسم الحاج، وكلن عليهن اسم الحملة هول مني، والله يا بو رعد ما بيكلفوني شي، الله يبارك بالصين، محسوبك أول واحد، فوّت

الصين عالحج، رحت ع مصر تجيب قطنيات وتياب إحرام، ما بينشرا شي، أرخص ثوب إحرام بمصر ثلاثمية جنيه، هول كلن مع الشنط من الصين، وقياسات المناشف كلها بخمس وعشرين دولار.

أما النقليات بالحج كلها ع بعضها ما بتوقف عليّ بسبعين دولار ع الحاج الواحد، ما تنسى عندك روحة من مكة للمدينة. وابن خيك سعيد اخترع كارت التلفون، كل حاج إلو كارت تلفون سعودي واحد عحساب الحملة، من دهنو قليلو، بيوقف الكارت عليَّ بتسعة دولار، بعدان اللي بدو كارت إضافي منبيعو بسعر السوق. حسبتن يا حاج؟»

- لا والله! «بسيطة بحسبهن عنك سبعمية وتسع وثلاثين دولار بلا رسم الفيزا عالسعودية، مية وخمسين دولار، الله لا يشبعن، وانت بتطلّع باسبورك أبو مية وثلاثين دولار، على بعضن كلن، وعالقلم والورقة الف وتستعشر دولار، ما عدا السهو والخطأ. جيب باسبورك تاحطلك فيزا سعودية للحج وتمنمية دولار، لأنو الأكل هونيك وتياب الإحرام هول عليَّ».
- ابداً ما بقبل! ردّ سعيد وع وجو زعل وبعيونو دمعة: «ولو ولو يا عمي بو رعد! بتفشّلني؟ والله انعرفت أمّي بتهبّرني، والله الأكل هونيك بحر، وبطعمي ضيعة، وما مكلفني شي».

- ما بتفرق معي، أنا بدي أدفع من كيسي عن حجة امي وبيي الله يرحمن، يكتر خيرك يا بو صافي اللي عرّفتني عا ابن اختك سعيد، على اللهّ السنة بحج عن امي وسنة الجايي عن بيي، «له له له، ليش سنة الجايي، السنة مع بعضن، قال لي سعيد، انتِ بتحج عن بيك، وأنا بكلّف حدا من المعاونين يحجلك عن امك، تنين بواحد، وفرد مرّة!»
- لا، لا. أمي بالأول لأنو النبي وصّى فيها اكتر من البي، وسنة الجايي بيي، وأنا بدي حج بنفسي عن التنين. الله يكتر خيرك يا أبو صافي ويديميك يا سعيد لكل حاج، شو رأيك يا ست سهجنان؟
- مش قليلة والله، من عشر تلاف دولار لألف دولار، حتى الحج صار تجارة يا حاج؟ عفواً عمي بو رعد.
- شو قلتلك؟ شفتي ليش قلتلك ما تقوليلي حاج، حكيتلك عن أصحاب الحملات، وشو بدي احكيلك عن الحجّاج واخبارن، قصصن متل قصص الحيات، هلق ما تقوليلي مش كلن؟ اكيد مش كلن. بس عيب يكون المنيح استثناء، والرذالة ضاربة طنابها من المحيط للخليج.

نرجع لموضوعنا، قلت لك الإيجار ستمية دولار، وكرامة اسمك سهجنان ع اسم امي (الله يرحمها)، خليهن خمسمية، وما بدي منك ثلاث تشهر سلف.

- يكتر خيرك يا حاج - عفواً عمي بو رعد.
- ليكي من هلق وبالرايح كل ما تعيطيلي حاج بزيد عليك عشرين دولار! ههههههه

ههههههه.

لم يكن لدى سهجنان من الوقت ما يكفي لإزجاء الشكر الوافر لأبي رعد، فلقد أصغت إليه فوق ما ينبغي، وهو يتلو عليها مزامير أقرب السبل وأيسرها وأرخصها إلى الحج. واستطاعت سهجنان أن تنتقل إلى الشقة وأن تنقل أغراضها في بيك أب متوسط الحجم، بنقلةٍ واحدةٍ.

كان أثاثها فقيراً جداً: خزانة متداعية حال لونها، فاستعاضت عنه بورق لاصق للجدران، ومدّته على واجهة الخزانة مدّاً رديئاً، فانتشرت فقاقيع على كامل مساحة الواجهة، ومن عجبٍ أنها، على بقايا جمالها الصامد، كانت منعدمة الذوق في كل ما يتعلّق بالألوان، فلم يفهم أحدٌ مثلاً لماذا اختارت اللون الكحلي لورق الجدران تمدّه على واجهة خزانة كانت في الأصل بنية باهتة، أقامتها في زاوية ميتةٍ من غرفةٍ، لولا السرير المتهتك فيها لما حدس أحدٌ أنها غرفة نوم. وفي حائطٍ من الغرفة، رأت سهجنان مسماراً، فعلّقت به مرآتها الوحيدة، من تلك المرايا المستديرة، ذات القاعدة المتحركة، التي توضع على الطاولة عادة، ولها وجهان، أحدهما مكبّر لنتف الحاجبين، وإزالة كل شعرة في مدار الوجه، والآخر عاديّ بلا أي امتياز. مرآة دائرية قياسها عشرة

سنتم، تتدلى من قاعدتها على الحائط الذي كان ذات يومٍ زاهياً بلونه العاجي.

ثمّة مساحة ممتدة من المدخل إلى غرفة النوم، بقربها الحمّام فالمطبخ، وهذا كل بيتها. لذلك حقّ لها أن تبدي قرفها كلما ذكرت في حديثها البيت. مساحة ثمانين متراً مربعاً فقط هي كل بيتها؛ وفي المساحة التي تلي المدخل، ومنها يبتدئ البيت، وضعت أريكةً جديدة حمراء لونها نبيذي غامق، أمامها طاولة بلاستيكية لونها أخضر حشيشي، قبالتهما على الحائط الغربي علّقت تلفزيون LCD قياس ٤٢ إنشاً، فيما توزعت ثلاثة كراسٍ بيض مصفرّة عن جانبي الأريكة، وواحد أسفل التلفزيون دون مسوغ مفهوم.

أما المطبخ فبدا قليل الهيبة، ليس فيه سوى بوتوغاز بعين واحدة، وثلاجة قزمٌ، ومجلى طوله تسعون سنتم، يعلوه رفّان خشبيان طولهما واحد، صفّت عليهما مقلاة ألومنيوم متوسطة الحجم يتعشّق البيض المقلي فيها كلّما حلّ فيها، وعند ذلك فلا بد من السِّيف والفرك العنيف لإزالته، وفي كل مواجهة فرك، كانت سهجنان تقسم بشرفها أن تشتري مقلاة تيفال، وما كانت تفي مرّة بقسمها!

وهناك طنجرة الومنيوم أيضاً صغيرة، تتّسع لثلاث عُلب من شعيريّة الأندرومي معاً، تقبع فوق صينية من الألومنيوم، أيضاً وأيضاً، ولا أحد يعلم متى استخدمت آخر مرة. وفي جوف الطنجرة، الواقعة في حضن

الصينية، ركوتان للقهوة نقيضتان، إحداهما تتّسع لنصف أوقية من البن، والثانية بالكاد تتّسع لملعقة صغيرة منه. أما فناجين القهوة وأكواب النسكافيه – ماغ، فليس فيما بينها شَبَه أو نسب، لا بالشكل، ولا بالحجم أو باللون. ولا أثر للصحون الزجاجية على الإطلاق، مجرد صحون بلاستيكية بيضاء، وأخرى كرتونية ذات ألوان متعددة مخصصة لأعياد ميلاد الأطفال، إلى جانب صينية بلاستيكية للضيافة تضع عليها صحن شعيرية الأندرومي كلما جلست على الأريكة تشاهد قناة mbc2 للأفلام الأجنبية المترجمة، وذلك حينما تكون في البيت، ولديها ملعقة خشبية واحدة لتحريك البيض المقلي، أو شعيرية الأندرومي، وثلاث ملاعق معدنية: واحدة كبيرة لتناول الطعام، قلما استخدمتها. والثانية وسط لتحريك القهوة، والثالثة صغيرة لسكرية عسلية اللون من البلاستيك، غالباً ما تكون فارغة، فهي لم تتذكّر مرّة شراء السّكر، ولطالما اكتفت بإضافة الكوفيه ميت إلى النسكافيه، حتى استطابته دون تحلية، وبات لها ذوق جديد في تناول النسكافيه من ابتكار كسلها ونسيانها.

ولا بد من الإشارة إلى أن مطبخها لم يعرف الخبز إطلاقاً، إلا إذا أحضرت، هي نفسها، بعض السندويشات معها إلى المنزل، الآن كما من قبل. ولا داعي لذكر الفاكهة أو الخُضَر، فهي تكتفي بمرآها في المجلات وعلى التلفزيون، وعلى طاولات الباعة، أو عند ذويها ورفيقاتها.

لم يحدث مرّة أن اشترت مخدّة جديدة، مذ تركت بيت أبيها في الشمال، لتقيم في منزل شقيقتها المتزوجة أولاً، كمقدمة مقنعة للأهل، قبل أن تقدم على الإقامة مستقلةً وتتنقّل من مضربٍ إلى آخر كالبدو تماماً.

حملت إذن مخدتها معها وبيت مخدتها الذي طرزت أمها على أحد وجهيه بضع زهرات ناعمة، بدأت ألوانها تخبو، وظل إبداع صانعتها واضحاً للعيان، لم تبدّل أغطية السرير وفرشته الإسفنجية قط، كما لم تشمِّس الأغطية الشتوية مرة واحدة، ولا الشراشف الصيفيّة. مريع مرأى سريرها، على عكس ما تبدو عليه هي نفسها كلما خرجت إلى الشمس، ولن يصدّق أحدٌ لو اطّلع على وضع السرير المصفرة كل آلاته، ثم قابل ذلك بما تظهر عليه سهجنان من مظهر برّاق، رغم سخافة الألوان التي تختارها أو تحاول تنسيقها.

ذلك كان بيت سهجنان، أو كهفها. كهف خالٍ من الرسوم إلا ما دوّرته الأوهام حيناً، ومدّته الأحلام حيناً آخر؛ كهفٌ في قلب لؤلؤة الأبيض المتوسط – بيروت.

كهفٌ ليس فيه من اللؤلؤة إلا العتم، ولو أضيئت الأنوار بأقصى طاقتها، فليس العتم هو لون الليل حين يغشى السموات والأرض، إنما العتمُ هو تلك الحُلْكَة التي تكتنف ذواتنا ولو أقمنا تحت عين الشمس عمرنا كلّه.

«ولا يسعني إلا أن أسخر من كل الذين يدّعون أنّنا صنّاع أفكارنا، إذ لسنا سوى آلات تتولّد أفكارنا فيها تبعاً لمكوِّناتٍ لا حصر لها، سمٍّ منها المكان، والثقافة على تعقيداتها، سمٍّ الجنس والطبقة، سمٍّ جيرانك وحكومتك والجرائد والإذاعات، سمٍّ مرض أمك وقامة أبيك أو قامتك، شعرك الأشعث أو المسرَّح؛ سمٍّ قياس قدمِك، ووقوفك تنتظر السرفيس، سمٍّ المدرسة التي تذهب إليها، وعدد الأحذية التي تقتنيها؛ سمٍّ ملابس جدّتك وصلعة جدِّك وطربوشه؛ سمٍّ طريقة الحوار وحدّته بينك وبين أبويك وإخوتك! سمٍّ الإهانات والبذاءات الشائعة بينك وبين رفاقك؛ سمٍّ التشفّي بإعلان فضائح الآخرين؛ سمٍّ رعبك من اطّلاع أقرب الأقربين إليك على دفائن صدرك وأمنياتك، سمٍّ انكسار عينيك إذ تعجز أو تُضبط عاجزاً، سمٍّ وجودك كله باختصار، ولا تنسَ حدبة الزمان واستدارته وتلفيقة الحظوظ التي لا تخضع لمنطق.

وقد يجيئك أحدٌ ما، تحذلق بالفلسفة وتزحلق فوق قشرة موزها العفن، حتى حقّ فيه قول الشاعر:

قال حمارُ الحكيم توما — لو أنصفوني كنتُ أركب
لأنني جاهــلٌ بسـيطٌ — وصاحبي جاهلٌ مركّب

فيقول لك كعالِم فذ: «كل ما ذكرته يُختصر بالبيئة وحدها، وبالواقع الاجتماعي، وبعضها نتاج بعض».

كأنّ قوله فصل المقال، فيرتفع منسوب الأسى إلى أقصاه، وأتأسّف

على فذّيته وفذاذته، وأوافق حمار الحكيم توما، متسائلاً: كيف في بيئة واحدةٍ وبقعة واحدة وجيرة واحدة تجدُ السعيد والتعس، تجدُ الذي يُقبل على الحياة، والذي يقطع عروقها، تجدُ الذي يأرق ويقلق، والذي يضيء ويبرق؟ فثمة من يرى الدنيا صفراء كالحة، وثمة من يراها زهراء فواحة في آن؟! إنما البيئة جراب نوريٍّ، وما فيه ليس تفصيلاً ولا نتاجاً، إنما هو سببٌ أصيل بارعٌ في الإرباك، وسواءٌ أوافقني الحكيم توما أو خالفني، فحسبي من السجال قناعة حمار توما وشهادته في توما، وحكمته».

كان أكثر ما أسعد سهجنان في هذه الشقة، أن معظم الدائنين لا يعرفون مكانها، وخصوصاً محلات خوري للمفروشات والإلكترونيات فالتلفزيون LCD ٤٢ بوصة، وكذلك الأريكة الحمراء من محلات خوري،ومما وافق نصف سعدها، أنها قد وجدت عملاً تقنياً في مجلة خليجية فنية اجتماعية، وقد فتحت مكتباً لها في بيروت، لا عمل للعاملين فيه، إلا تنفيذ خطط الإدارة المركزية في دبي، كإجراء مقابلات مع فلان أو فلانة، وتغطية نشاط فني لعلاّن أو علانة، إضافةً إلى إرسال بعد التحريرات الصحفية السخيفة والسطحيةأ التي كان يجريها مدير المكتب مع بعض زوجات رجال الأعمال والسياسيين والمغتربين الأثرياء، اللواتي جعل الفايسبوك منهن، بسبب صورهن المشقّرة، شاعرات دونهن الخنساء في الجاهلية، وولاّدة بنت المستكفي في الأندلس، وزهرة الحرّ في عصر النهضة، ولا يسع أحد التنكّر لفضل الصالونات الأدبية، تلك التي عصفت كالأعشاب الضارة وانتشرت من حيثما وجد مقهىً أو مطعم في الليالي الميتة، من كل أسبوع، يدير هذا «الصالون» أو ذاك رقيع هنا يستثني رقيعاً من هناك، فيردُّ الأخير عليه بـ «صالون» آخر في مقهى للنراجيل. وهكذا...

حتى تفاقمت كالنجيليات، وهي أعشاب ضارّة عميقة الجذور في التربة، والخلاص منها شبه محال، وفي هذه «الصالونات» تدفع ثمن قهوتك وساندويتشك، ونارجيلتك وكأس نبيذك أضعافاً مضاعفة، لا يُستثنى من ذلك إلا رقيع «الصالون» ومساعدوه فهم على حساب المدعوين، وإنّ جهل المدعوون ذلك. واشتهر القول بين نمّامي المدينة والضواحي، إن معظم اللواتي يستضيفهن «الصالون» لسماع ترّهاتهن والسخافات، يبذلن مال الجيب مما عرق الأزواج كثيراً لأجله في مجاهل إفريقيا، وحرّ الخليج، وما ابتكروه من ألاعيب عجيبة في تطويع البطاقات الإئتمانية في أميركا الشمالية والجنوبية وأوروبا. وقل الأمر نفسه في أولئك الرجال الذين يتوسلون ظهوراً في «صالونات» الوطن، حتى إذا عادوا إلى مقارّهم في الخليج أو أوروبا حملوا معهم أشرطة الفيديو المدبلجة من هذا الصالون أو ذاك، فتصبح بضع عشرات من الحاضرين في «الصالون» ألوفاً مؤلّفة كأنها جماهير ٨ و١٤ آذار في ساحة رياض الصلح. وقال بعض الخبثاء إن البعض ينفق أكثر من مال الجيب، فثمة عند الإنسان، إذ تجرّد من الشيم، الكثير مما يمكنه إنفاقه ولكلٍّ طلابٌ ومريدون.

عجيب كيف تنقلب المعايير في كل شيء، فلقد كان العهد في الصالونات الأدبية أن تقام في البيوت، حيث تبسط الملاذُ وكل طيب للحاضرين حتى إذا لبوا احتياجات الجسد، هبوا إلى دواعي الفكر،

وما أن يأزف الوقت حتى ترفع جميعها لجلال المقال. وربما جلّ المقال أولاً ثم بُسطت الملاذُّ والأطايب، ليكون بعدها خبز وملح وشراب سائغ يخفف حدّة ما كان من حوار جاد، ويجلو الضغائن بين المتنافسين، فما أشبه اليوم بالبارحة منكوسةً!

ولا أحد ينكر أنه لم يعهد مرة من أم كلثوم أو محمد عبد الوهاب أو فيروز الغناء في مطعم يتبادل فيه النّهمون لُقيمات الحمص بالطحينة، وما يبقى منها على الأنوف ويسيل على الأذقان، أو تتطاير منه قطع اللحم المشوي، وتُجذب وتئط بين الخُبزة وقواضم اللاحمين! فسبحان مبدِّل الأشياء!

كذلك كان وليد، رب عمل سهجنان في المجلة الخليجية – مكتب بيروت، إذ كان على سهجنان ورفيقاتها اصطياد الثريات اللواتي يتنافسن في الشهرة، والصور المنشورة عن صباحياتهن في دورهم المنيفة، أو يمتن لأجل إجراء مقابلة معهن، يتناولن فيها كل شيء من نقر الكوسا، إلى نظرية الكوانتم في الفيزياء النووية، مروراً بقضية فلسطين وأزمة الائتمان المصرفي... وكان وليد في غاية الإقناع، عندما يقدّم عرضه: «نأخذ لك الصور في فيلا الجبل، وعلى شاطئ البحر، وفي مقهى Linas- فردان، والباقي عليّ، سأجعل منك مدام كوري العصر في العلم، وسيمون دي بوفوار في الفلسفة، وفدوى طوقان في الشعر، إلا إن أحببت أن تكوني نازك الملائكة، هذا يعود لك! ولكن

يجب إقناع مدير التحرير في دُبي أولاً، وهذا يحتاج إلى بعض الهدايا لإقناعه، وربما احتجتُ إلى زيارة أو اثنتين إلى دبي من أجل ذلك، وإذا تعقدت الأمور لا بد من دعوته إلى بيروت لإقامة مريحة مع قليل من الفرفشة.. ثم بووم.. تلك هي أنت في مقابلة نووية ورئيسية في المجلة...

- هاه.. ماذا تقولين؟»
- موافقة! من دون تحفظ!
- والتكاليف؟
- جاهزة لكل شيء من الألف إلى المليون!
- مليون دولار؟
- لاااء، مش هلقد! بس المعنى يعني!
- طيب اتكلنا على الله. دفعة عالحساب إذا بدك. بالمناسبة شيكات ما باخد، نقدي. نقدي. وما تؤاخذيني، بس اطلب بدك تلبي، هدول الخليجيين طبعن هيك، بغيرو رأين بسرعة، خلينا عالخط ومن دون توقف.
- أكيد... أكيد ولو. ليك معي هلق الفين دولار. تفضل! بكفو.
- لالالا، ما بيكفو يا مدام! شو عمتحكي انتِ عمنقول مقابلة عثلاث صفحات وبالألوان....
- ثلاث صفحات بس؟

- بدك أربعة، خمسة، بيزيد الدفع. أنا ما عندي مشكل. بس هيك بصير بدي إدفع لمخرج المجلة، تا نمرقها من قفا ضهر المدبر. هيدا ما بياخد كثير، قصدي، طيوب وفقراوي، ثلاث أربع تلاف دولار بالكثير.
- عال! مش مشكل، خليهن خمس صفحات، خليني روح عالبنك اسحبلك.. قديش بسحبلك؟
- اسحبي ثمان تلاف هلق، وهول الفين، بصيروا عشرة تلاف دولار تا نشوف شو بيصير!
- دخلك قديش بتكلفنا صورة عالغلاف لألي؟
- هوووه، هيدي قصة كبيرة. كبيرة كتير يا مدام، عالقليلة بدنا نعملك خمس ست مقالات باسمك بكذا مجلة، ويمكن نضطر نكلف حدا يكتبلك ديوان شعر باسمك، وشي كم بحث اجتماعي عن الفقر والأمية. وهيدول بكلفو كتير. خلينا هلق خطوة خطوة تا نشوف».

كان أكثر ما يقلق سهجنان وينغص عليها سعادتها، هذه الأيام، هو عدم اغتنامها فرصة أن تلبي احتياجاتها كافة من محلات خوري للمفروشات والإلكترونيات، ولقد حاول والحق يقال، البائع، هناك، إغرائها بسرير جديد وأغراضه كلها وطقم كنبايات مهضوم ومنمنم، و DVD player، إضافة إلى فرش مطبخ كامل، وبعض اللوحات مجاناً على البيعة، كل ذلك بالتقسيط على مدى خمس سنين من دون فائدة ومن دون دفعة أولى مع فترة سماح تمتد إلى ستة أشهر من تاريخ الشراء، وبمئة وخمسين دولار قسطاً شهرياً.

لم تكن سهجنان تعرف أنها ستنتقل إلى بيت آخر، بعد إخلائها مرغمةً الشقة التي أقامت فيها ردحاً من الزمن، إثر تخلفها ستة أشهر عن تسديد بدل الإيجار، ولو كانت تعلم ذلك لاستبطنت الخديعة، وقبلت عرض البائع المغري من محلات خوري للمفروشات والإلكترونيات، ففي نهاية الأمر لن يعرف أحد مسكنها الجديد، ولا مكان عملها الجديد، فلقد تركت عملها السابق، من دون إعلام أو إنذار، ورفاقها في العمل القديم، كما رب عملها، لا يعرفون ما الذي جرى لها، ولعلهم ما كانوا ليهتموا، فلقد كانت سهجنان ممن يُستغنى عنهن، لأنها لم تكن تقوم

بغير التنقل بين مكاتب الموظفين والموظفات، تلقي على مسامعهم مطالعاتها اليومية حول قلة حظها، وبشاعة الحياة، أو تخطط لسهرة أو نزهة، في شركة التأمين، حيث عملت بضع سنوات، وما كانت طوال تلك الفترة قادرة على اصطياد زبائن يريدون التأمين على حياتهم وسياراتهم وممتلكاتهم، ولولا بعض الخدمات الخاصة التي كانت تبذلها بسخاء للمدير في مكتبه، أثناء الدوام وبعده، لما قُدِّر لها أن تحفظ وجودها في هذا العمل. فهد وحده سيندم على راتبين تقاضتهما سلفاً احتيالاً، يومَ عملها الأخير في الشركة، وسيندم فهد أيضاً لأن سهجنان لم تكن حاضرة، إذ أثناء غيابها، فاجأت الدورة الشهرية نوال السكرتيرة الجديدة.

ومن حسن حظها أنها تأخّرت الشهر الماضي عن تزويد هاتفها الخليوي وبطاقة Sim card برصيد يبقيها على قيد العمل، فاحترق خطّ هاتفها، مما اضطرها إلى ابتياع بطاقة جديدة وخطّ جديد، لم يتسنّ لأحد في العمل معرفته، فلقد غادرت العمل نهائياً، قبيل تغييرها رقم هاتفها قسراً. ثم إن كل زملائها في العمل لا يعرفونها بغير اسمها المعدّل جنان. فليتصل موظفو المحاسبة من محلات خوري للمفروشات والإلكترونيات بمكان عملها ما طاب لهم، فلن يجدوا من يعينهم بمعلومة مفيدة. ولعلهم سيسألون عن سهجنان حسب بطاقة الهوية، وسيلقون جواباً صريحاً: «النمرة غلط! ما عنا حدا بهيدا

الاسم!» ولن يفيدهم الذهاب إلى عنوان مسكنها القديم، لأنها لم تعد تقيم هناك، كما أنّ أحداً ما لا يعرف إلى أين ذهبت، وأن الاتصال بها عبر هاتفها الخلوي لن يفيد، فلقد بات خارج الخدمة، أو بيد من لا يعرف عمّن اسمها سهجنان شيئاً. والمؤكد أن محلات خوري للمفروشات والإلكترونيات، لن تنفق مالاً في البحث عنها ومقاضاتها من أجل تسعمئة دولار ثمن أريكة حمراء، وتلفزيون LCD ٤٢ إنشاً.

لهذا كانت نصف سعيدة، وظنّت أنها كانت ستكون أكثر سعادة، لو أعادت تأثيث مسكنها وحياتها كلها، من دون أن تتكلّف قرشاً واحداً، من طريق الشراء دون دفع، ثم الاختفاء!

ولطالما تذكّرت أن لصاحب الدكان، قرب مضربها القديم، مبلغاً لا بأس به في ذمتها، بدل أثمان التبّغ والمخلوطة والشوكولا، والبيض والولاعات، وسائل للجلي، وآخر لغسل ملابسها الداخلية، إضافة إلى غالونات ماء للشرب، وغير ذلك من النثريات اللازمة مما لا تحصره ذاكرة إلا أوان حاجته.

تتذكر سهجنان صاحب الدكان، وما له في ذمتها، فلا تشعر بأدنى أسفٍ عليه، فسمير، صاحب الدكان، كان يجترئ عليها بالكلام كلما ارتفعت أرقام مديونيتها في دفتره، وكثيراً ما كان يناولها الغرض الذي تحتاج إليه فيلامس يدها، ويتعمّد الاحتكاك بمواضع من جسدها، فيما يعبر بجوارها، بسبب أو بغير سبب، وفي مرات عديدة بالغ في

الاحتكاك، كما بالغ في الكلام بوقاحة، وسأل: «إيمتى بتعزمينا عالقهوة عندك بالبيت وبالليل؟» فإذا أجابت أن لديها ضيوفاً هذه الليلة، ردّ بخبث: «لا دفع، ولا قهوة بحليب بالليل! معقول يا مدام؟» فتعده وتمنّيه بليلة قريبة. وهذا ما لم يتحقق، إلا أنها كانت تتسامح باللمسة والهمسة حيناً بعد حين. فلماذا تأسف على ما أنزلته به من خسائر مالية، وما انفكت تردّد فيما بينها وبين نفسها: «شو اللمس ببلاش؟» فترتاح، ثم تبتسم بخبث.

ما انفك الإنسان أحجية عصية على الفهم، فبينما تراه ذا مواصفات ظاهرية متماسكة، تؤاتيه الحياة والظروف بما يشاء، إذ تجده فجأة مجرد ورقةٍ طائرة في مهب ريحٍ عاصفةٍ تمعن فيه ما تشاء دهساً وركلاً. حتى بدا أن كل محاولات علم النفس ومطارحات علم الاجتماع في فهم الإنسان، ليست سوى مقترحات غير قابلة للتعميم، وليست ذات جدوى بتاتاً، فكأنها تحليلات خاصة لا سند واقعياً لها، ولا دليل عليها.

فلقد كتب غسان شربل في صحيفة الحياة إبان الغزو الأميركي للعراق، كما أجاب مراراً عبر شاشات التلفزة، رداً على سؤال عمّ يتوقعه من ردة فعل صدام حسين، الرئيس العراقي آنذاك، إذا وقع في الأسر، فأجاب بما معناه، أن مسدس صدام المذهّب لا يفارقه لحظةً، وأن صدام حسين سيحتفظ فيه برصاصة يفرغها في صدغه كي لا يذله الأسر. وعبارات أخرى سطحية كهذه تتناول صلابة صدام حسين وعنفوانه وعشائريته.. الخ. ثم فجأةً يُباع صدام حسين بثمن بخس خمسة وعشرين مليون دولار أميركي فقط. فيؤخذ ويُلقى به في تنورٍ خرب، وعندما يستخرجه The Yankees، يظهر الرئيس المهيب الرهيب، والذي كان يُلقي الرعب حتى في الحجارة

من حوله، بائساً، خائراً كمن أفلت من فوره من صور كتاب التاريخ الخاصة بإنسان النيوندرتال، مستسلماً كطفل بين يدي أمه، فيما جنود المارينز، يتعمّدون تفقّد أسنانه أمام الكاميرات، شأن النخاسين وتجار الإبل. وكم كان مؤلماً مشهد الجبار يستحيل ضعيفاً مهيناً، هانئاً بين يدي طبيب اليانكيز، ويجيب عن أسئلته بتهذيب فائق لا يليق بصورة القهّار التي أيقظت، ذات ليلٍ، صديقي العراقي الهارب إلى بيروت من جور صدام حسين، إذ عبرت في أحلامه صورة الرئيس المهيب. ولقد أسرّ لي شاعرٌ عراقيّ، مقيم في ألمانيا إثر إعدام صدام حسين، في تلك الصبيحة الموافقة لعيد الأضحى، أنه ولا يزال يقشعر بدنه كلما قرأ اسم صدام حسين، أو مرّ اسم صدام في باله، لا يزال كذلك بعد كل تلك السنين على إعدامه. أما ذلك الصحفي العراقي الذي حشد في كتاباته كل مفردات الفحولة، فيما هو مفتقر إليها، إذ كان مجرد ذكر اسم صدام حسين يحبطه فيخزى، ثم يتلجلج عرقٌ في مؤخرته، فينتحب، ويغرق في نوبة عصبية مدمرة، وفي اللحظة التي أكدت وسائط الإعلام إعدام الرئيس الجبار انفجرت عروقه الأمامية كطلقة دوشكا. لقد استعاد فحولة ضاعت قرابة ثلاثين عاماً.

وهذا أيضاً ملك ملوك إفريقيا، الأخ العقيد الملهم رئيس الجماهيرية الشعبية الديموقراطية الاشتراكية الوطنية الليبية العربية المتحدة.. الخ. معمر القذافي، الذي افتتنّ في سلطانه وسطوته، وغلاميته وصفاقة

تصرفاته وأحلامه إلى حد أنه أسس فرقة نسائية تحيط به، صرخةً مجلجلة عن جوعه إلى الوطء وعجزه عنه، وبلغ من قحّته أنه ملأ غرفةً أعدّها لاستقبال وزيرة الخارجية الأميركية السابقة كوندليزا رايس بصورٍ لها مركّبة وغير مركبة، وبعبارات تشي بالاشتهاء المرَضي، كأنما افترض أن السطوة اعتلاء امرأة، وكأن هزيمة الامبريالية تكون بافتراع ممثلة لهذه الامبريالية أو تلك، سفيراً كان أو رجل أعمال أو وزيراً.

ولكم بدا الأخ العقيد مشبعاً بالكبرياء والتعالي، عندما انحنى بارلسكوني، رئيس وزراء إيطاليا حينئذٍ، لتقبيل يده في حركة كوميدية، تأخذك إلى حركات عبد السلام النابلسي واسماعيل ياسين، مع فرق أن الثانية تضحك والأولى تبكي وتضحك. يقبّل بارلسكوني يد الأخ العقيد ليرضي غرور هذا الأخير، وفي تصريح لاحق لبارلسكوني قال لإحدى الصحفيات: «هذا ما أفعله عندما أقابل سيدة، فلماذا الاعتراض»؟

الأخ العقيد، الذي مزّق ميثاق الأمم المتحدة بعنجهية تمثيلية مفرطة من على منبرها، وأسبغ على خصومه لقب الجرذان، بدا هو نفسه جرذاً، حينما ترجل من سيارته، متنكراً، على طريق هروبه، حيث المتجمعون هناك يقطعون الطريق عليه، فالجهة التي تقاضت منه ذهباً خالصاً لقاء ضمان هروب آمن له، هي نفسها التي أرسلت هذه الجماعة لقطع الطريق عليه والتخلص منه.

ظهر الأخ العقيد المتنكر، ببراءة عابر سبيل محايد، بعد أن قصفت الطائرات الحربية الأطلسية سيارات الاستطلاع لموكبه المموّه علامةً جلية لجلاّديه. أكّدت بعض وسائط الإعلام أن هذا القصف كان إشارة للغوغاء الذين كانت تديرهم فِرق استخبارية أميركية وفرنسية وإيطالية، مباشرة وعلى الأرض. لقد اعتقد الأخ العقيد أنّه قد اشترى حياته بالذهب، الذي أَرشد الوسطاء إلى مستودعاته، في مقابل الفرار من القدر المحتوم، فحصل الأطلسيون على الذهب، وقطعوا على الأخ العقيد طريق النجاة تحت أعين كاميرات عديدة، نقيّة العدسات، واضحة الصوت ودون لبس. ترجّل الأخ العقيد متنكراً بزيّ رجل عادي، مُنسلخاً من ذاته التي عرفناه بها، وقال بحياد عابر، لا بجبروت سلطان غضوب: «إش في هنِه؟» جاءته الصفعات من كل ذي ذراع، والركلات من كل ذي ساق، وهو يتراجع إلى الوراء، ثم ينطوي على نفسه، مردِّداً كبائس: «إش قد تعمل كده، ماني قد أبوك!» لم يردّ الأخ العقيد صفعةً، ولم يبادل أحداً ركلةً، بل تداعى الأخ العقيد على الرّمل يتلقى الصفعات واللكمات والركلات، واختفى كل من كان معه، وقال مَن يدري، أن مرافقيْه كالا له من الشتائم والضربات ما فاق ما تلقاه من سواهم، شهادةً على نكرانهما له، وتأييدهما للغوغاء الذين أدارهم على الأرض ضباط استخبارات أطلسيون محترفون.

كانت يدا العقيد تظلّلان رأسه الأذلّ المنحني بشعره الجعد المصبوغ

بالأسود. بطحوه أرضاً، ثمّ سحلوه على رمال الصحراء، وانتبه أحد الغوغاء إلى مسدس الأخ العقيد على وسطه، فانتزعه، وأعانه الأخ العقيد على ذلك، فرفع كتفه ومدّ وسطه ليسهل انتزاع المسدس، كمن يعلن براءته من هذه الأداة الجارحة دونما اعتراض.

آحادٌ كثيرة تتآزر على إنزال سروالي الأخ العقيد الخارجي والداخلي، وأقاموه، فلم يقم، مستنداً إلى ركبتيه على الرمال الساخنة، يتوسّل جلاّديه بأخسّ ما يكون التوسل وأحطّه، وبدا أن حامل مسدس الأخ العقيد قد استقر على إيلاج فوّهة المسدس في مؤخّرته، ففعل وأغرق في الفعل، ثم انتزعه وأطلق منه طلقةً على رأس الأخ العقيد، ووزّع الباقي في أكثر من اتجاه.

لم يخرّ الأخ العقيد، فلقد كان مطروحاً على الرمل، ثم حملوه كرمّة، وألقوه في مؤخرة بيك أب نفايةً منعدمة الصلاحية!

وما حيّر علماء النفس، هو هذا الاستسلام المذلّ للأخ العقيد وأمثاله من الطغاة، وكيف أنه تحصّن في نكرانه وتنكّره، واحتمى بالضعف كأي عاجز عاثر، وتلاشى كل أثر لغطرسته. ما الذي أصابه حتى أنه لم يفكّر في استخدام مسدسه، ولو لإطلاق رصاصة على رأسه؟

عندما أدركت كليوباترا أنها خسرت المواجهة، ومات حبيبها أنطونيوس، تجرّعت السم لكي لا تُذل! ولما جاء عبد الله بن الزبير إلى أمه أسماء بنت أبي بكر، يسر لها رغبته في الاستسلام، أخبرته

أن الاستسلام لا يليق برجل حرّ، وإنما هي حياة واحدة، ولا مفر من الموت! أجابها بأنه لا يخشى الموت، لكنه يخشى التمثيل بجثته بعد قتله، فلقد انفضّ عنه كل مؤيديه،وميزان المواجهة ليس في مصلحته! أجابته بصراحة: «لا يضيرُ السلخُ الشاة، بعد ذبحها». وكان قولها الفصل، ليقوم عبد الله بن الزبير إلى الحرب، ثم يواجه الموت والصلب طويلاً.

وما زالت تحت عينيك على شاشات التلفزة لقطات حيَّة، لرئيس مصر الأسبق «محمد» حسني مبارك، الذي لم يفاجئ أحداً في غيابه، كما في حضوره، ذلك الرجل الذي ورثَ عن سلفه «الرئيس المؤمن» «محمد» أنور السادات، إضافة اسم النبي الأكرم محمد (ص) ممالأةً للجماهير الغفورة البسيطة؛ رئيس مؤمنٌ عجيب غريب هو السادات، يلج غرفة نومه، أو جناح نومه، فيستحضر النوم ببضع كؤوس من الويسكي والاستمتاع بمشاهدة الأفلام، كما أكَّد الصحفي محمد حسنين هيكل في كتابه «خريف الغضب»؛ رئيس مؤمن ورعٌ بزبيبة ظاهرة وسط جبينه، يحتسي الويسكي الفاخرة كل مساء، ويُحظَّر على أيٍّ من مساعديه إزعاجه، مهما كان السبب إذا دخل غرفة نومه، بينما كانت مصر كلها وقاهرة المعزّ يجرهما النملُ بعيداً وعميقاً وراء الزمن. ولقد أنهت رصاصةٌ حياةَ «الرئيس المؤمن» وانتهى بين الأقدام، فتلطخت كل النياشين وتشظّت، ولم يبقَ سالماً منها سوى غليونه المطعَّم بالفضة والمصنوع من خشب الورد.

كان الرئيس «محمد» حسني مبارك، قبيل انطلاق تلك الرصاصة التي أصابت مقتلاً من «الرئيس المؤمن» يوسِّط مؤثرين في الحكم أكثر منه لتعيينه سفيراً لمصر في بريطانيا تحديداً، وتجيئه أثناء ذلك دعوة لزيارة الولايات المتحدة الأميركية، كنائبٍ للرئيس المؤمن، وهناك لفتت صحيفة النهار اللبنانية إلى مغزى استقبال «محمد» حسني مبارك في أميركا استقبال الرؤساء ليكون بعد ذلك رئيساً لأرض الفراعنة برمَّتها!

فلا ينبغي لأحد أن يفاجأ بتمدُّد الرئيس «محمد» حسني مبارك على سرير طبي في نظارة المحكمة، بعد إخراجه من حديقته الخاصة مصر، وتعرضه الشاشات فرعوناً ممدداً محنطاً بشعره المصبوغ الأسود كظلام الليل، وسواد عشرين مليون فقير في «أم الدنيا» بهية!

مسلكياتٌ مربكة، وبلا نظير، تتوأم مع طموحات دفينة لرجل كان أقصاها تعيينه سفيراً، ثم حدس بأنه خالد خلود الأهرامات بشعره الأسود المصبوغ، طموحُ قاصرٍ لم يفارقه وهو فوق مصر، حتى أنه في لقاء أخير مع رؤساء الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا والمستشارة الألمانية انجيلا ميركل في شرم الشيخ، استخدم الفوتوشوب ليبدو هو في مقدم الحضور، وهم يتبعونه، فيما الصورة الأصلية تؤكد تخلفه عنهم لثقل همته، فحركته البطيئة لا تستطيع إخفاءها صبغةُ شعر سوداء حالكة. طموحٌ أرعن، وردة فعل رعناء، لرئيس تربع على عرش مصر قرابة ثلاثة عقود، لم يجد مخرجاً أمام القاضي إلا الاستلقاء على سرير

طبي نقَّال، كأي طفلٍ يتلافى عقاب والديه بالبكاء، وتنويس العينين، ومحاولة استفراغ ما في الأمعاء، إنه ادعاء المرض، لإظهار الضعف. تهريج لا يليق برجل فكيف بحاكم. عجيب كيف تكشف الملمات معادن الرجال! بل معدن الإنسان!..

ذلك بالضبط بعض ما كان يجول في ذهن سهجنان، وهي تشاهد نفسها تنحط وتنحدر ببطء وثبات، من علياء التألّه مراهقةً في بيت أبيها إلى حيث هي اسماً زائفاً وأفعالاً شائنة، فها هي تقدِّم الخدمات الخاصة لمديرها السابق في شركة التأمين، كما استحالت بقدرة قادر إلى سمسارة توقع بالزبائن كرمى لعينيْ وليد مدير مكتب المجلة الخليجية في بيروت، وهي شبه متأكدة أنها تستحيل قوّادة شيئاً فشيئاً. أما الخدمات الخاصة فقد اعتادت بذلها لكل مدير، ولم يخب في ذلك إلا سمير صاحب الدكان قرب مسكنها القديم. لم تنتبه سهجنان إلى أنها تنزلق بخفة لدرجة احترافية من النصب حيث تشتري ولا تدفع، تقترض ولا ترد الدين؛ آلمها هذا الشعور قليلاً، عندما استعرضت محطاتٍ من خواتيم حياة «رجال عظماء» بدوا في لحظات ضعفهم خائرين عاجزين مستسلمين ومسوقين إلى ردود فعل مخزية. «هيدي حقيقة، وما في حدا أحلى من حدا، إذا صدام حسين والقذافي ومبارك، سقطت هيبتهم، فمن أنا لأشقى، من أجل ديون تافهة، ما قدراني سدِّدها. بكرا بس يصير معي بدفع!».

أما الخدمات الخاصة التي كانت تقدمها لمدرائها، فالأمر «مش بأيدي. شو بدكن ياني انزعب واشحد؟ لا والله! الله ما قالها!» ثم تستغرق في مشاهدة فيلم مترجم على MBC2 وتنام وعينها على التلفزيون هانئةً مطمئنةً.

كانت سهجنان طويلة القامة، ممتلئة الجسم دون حدٍّ الإفاضة؛ امتلاء شهيٌّ لافتٌ، يصفِّر للعابرين ويناديهم، ويتملّون بها، ويعيدون التملّي مراراً؛ بل ربما جاشت دوامة الإثارة في بعض الذكور من حولها، فيتناسون هيبتهم، ويمرّرون كلمة لجس النبض، فتستجيب ببراءة مَنْ لا يعلم شيئاً، وتتوالى فناجين القهوة، ثم الغداء أو العشاء بعد ذلك، تبعاً للوقت، وكان مما يساعدها، ويفتك في جليسها، هو قلّة كلامها، واستغراق عينيها الواسعتين اللامعتين في عيني محدِّثها، فيرتبك ويضيع هياماً، وتسقط كل خططه لاستجرارها خارج حصونها.

والحقّ يقال أنها كانت غير محصّنة إلاّ لمن يعرفها أوَّل مرَّة، وللساذج بعد مرتين، وللأحمق بعد ثلاث مرات، وأمَّا المسطّحُ من الرجال فلن تنجده ألف مرة ومرة، لأنه سيبقى مقصراً عن إدراكها.

هكذا عملت أول مرَّة في شركة التأمين، لدى فهد، وفهد هذا اسم لا يوافق مسماه، ثعلب هو ما يوافقه من الأسماء، رآها أول مرة في المقهى، فاقترب من طاولتها وبادرها:

- مرحبا، أنا ببيع بوالص تأمين عالحياة، فيني بيعك بوليصة؟
- مش لما لاقي شغل بالأوَّل؟

- محلولة! من اليوم أنت موظفة عندي بالشركة!
- شركة شو؟
- تأمين!
- عم تمزح؟
- أكيد لأ.
- قديش المعاش؟ إذا عم نحكي جد.
- ستمية دولار بالشهر، و ١٥ بالمية عكل بوليصة بتبيعيها، شو قلتي؟

ولما لم تعلق، لقلة كلامها في الأصل، فيما عيناها مستغرقتان في عينيه، تابع فهد دون توقف، خشية أن يفقد حرارة الإغراء:

- سبعمية، تمنمية، تسعمية...
- تسعمية؟ معقول أنت؟

فظنها فهد قد استقلّت المبلغ، وهي في قرارة نفسها، كانت لترضى بالعرض الأوّل، فاستعجلها بما ظنّه ضربة معلم:

- ألف دولار بالشهر وعشرين بالمية كومسيون عكل بوليصة بتبيعيها.
- ايمتين بدك ياني بلّش؟
- من هلّق. بس بعد الغدا... مَتْر عطيني المانيو!
- بالمناسبة: أنا فهد.
- تشرفنا، أنا جنان.

سنوات عديدة قضتها سهجنان في شركة التأمين، عند فهد، لم تبع فيها بوليصة تأمين واحدة من أي نوع، ولم يكن لها في سجلات الشركة أي ملف أو دور إلا انتظار فهد ليستدعيها إلى مكتبه، أو يطلبَ منها أن لا تغادر بعد انتهاء الدوام، وكانت تفعل ذلك بطيب خاطر، ففهد لم يتأخر عن تسديد معاشها نقداً كل آخر شهر؛ وكان لها في الشركة مكتب ليس عليه إلا هاتف وبعض أوراق بيضاء، وكاتالوغات دعائية للشركة.

عندما بدأت استدعاءات فهد لها تتباعد، توجَّست الأنثى داخلها خطراً، ولا سيما أن موظفة جديدة، أصغر منها سناً، قد وفدت إلى الشركة، وباتت شبه مقيمةً في مكتب المدير الفاره، حيث الأريكة الواسعة في أقصاه، والتي يمكن لها أن تُمدَّد برفع شنكلين يمسكان الذراعين اليمنى واليسرى فتستحيل سريراً وثيراً رائعاً.

لا يشك العاقل في احتمالات ما يجري داخل المكتب، وخصوصاً أن نوال، الموظفة الجديدة، كانت شديدة البياض، فإذا خرجت من المكتب خرجت مضرجة بأحمر الخوخ أول احمراره.

لم تشعر سهجنان بالغيرة، ولم يخامرها أدنى شعور بالأسى، نعم، قلقت في الشهر الأوَّل من أن يستغني عنها مديرها فهد، لكنه لم يفعل، فذاب قلقها ذوبان الملح في ماء الطبخ. لكنها بدأت شيئاً فشيئاً تستطعم

الملوحة في كل شيء، وإن كانت لم تحمل أي شعور تجاه فهد، قدر ما تحمل من شعور تجاه الألف دولار آخر كل شهر.

في الشهور اللاحقة، بدأ فهد، يستدعيها بين الحين والآخر إلى مكتبه، ويجلسان معاً على الأريكة الموصدة، يستطلع خباياها بلمس جائر خالٍ من أية رومانسية، حتى إذا انتشر تيارٌ حارّ في أوصالها تركها، بعينيها الزائغتين الدائرتين في أفلاك لذيذة، ماضياً إلى المغسلة، في زاوية من المكتب، يغسل يديه، ويتمضمض طويلاً بالماء والصابون، ثم يبصق مراراً، قبل أن يجفف يديه وشفتيه، وينتصب وراء مكتبه، كمدير بحق، وبصوت مدير محايد يخرج صوته حاداً، حاسماً ورفيعاً:

- يا جنان، عم راجع الانتاجية بالشركة، ما عندك شي، من خمس سنين مش بايعة بوليصة واحدة، معقول؟

وبتراخي وكسل امرأة في فراش الزوجية، إبَّان شهر العسل، علَّقت:

- الحق عليك انت! ما علّمتني كيف بيع، ولا شو أعمل!
- ولو، كل هالشي وما علّمتك؟!
- لم تدري بما تجيب، أغمضت عينيها لحظة، ثم وقفت واتجهت إلى المغسلة إياها غسلت وجهها، ونظمت شعرها، ومضت باتجاه الباب.
- عمهلك! وين البوسة؟

عادت إليه، لتقبّله، فراحت يداه تعيدان العبث، فاسترخت على

ركبتيه، فيما راح هو ينزلق على كرسي المكتب أكثر مما يجب، وبدا أنها تريد له الانزلاق، وتريد أن تنزلق معه كي لا تتلاشى الدولارات الألف. فلا أحداً يستطيع أن يتكهَّن ما الذي يمكنها فعله في سبيل هذه الحفنة من الدولارات!

عندما خرجت سهجنان ذلك المساء من الشركة، صلَّت لله صلاتين اثنتين بصدق عميق: أن لا تخسر الألف دولار أولاً؛ وأن يعوضها الله عملاً بديلاً، ثانياً. وكانت على يقين أن الله لن يخيّب رجاءها.

والثقة بالله صفة ملازمة للخطاة، يذنبون ولا يتوبون، لكنهم، يحملون ثقةً بالله، توشك أن تعدل الأرض وما عليها. ولو حمل التقاةُ مثقال ذرةٍ من الثقة بالله، كتلك التي يحملها الخطاةُ، لأمعنوا في الذنوب تبريحاً حتى تضجَّ انتهاكاً، وتزهر الأفئدة من إيمانهم خضراء زاهية زاهرة كألف ألف ربيع.

عندما أنزلوا النوّار، زوجة الفرزدق الشاعر، في حفرتها، سأل الحسن البصري، إمام زمانه، الفرزدَق، إمامَ الشعر والفسق:

- ماذا أعددتَ لهذه الحفرة يا أبا فراس - كنية الفرزدق؟

أجاب الفرزدق دون تلجلج على مسامع الحاضرين من المشاركين في جنازة النوَّار:

- شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، منذ أربعين عاماً.

ردَّ الحسن البصري متفيقهاً:

- هذا العمود فأين الطنب (الخيمة)؟

وما أسرع ما التفتَ الفرزدقُ إلى الحسن البصري وقال:

- أرأيتَ لو كان ثمة خندقٌ تلظَّتْ نارُه، وأنت رضيع بين يدي أمِّك، أكنت تخشى أن ترميك فيه؟

- لا والله! ردَّ الحسن بثقة.

- والله لأنا أوثقُ بالله منكَ بأمِّك. علّق الفرزدق فحُصِر البصري وأُفحم.

وليس من بنات أفكار العابثين، تلك القناعات التي تدور على ابتلاء المؤمن لأنه ممتحنٌ، ومن ذلك شيوع المثل: «صوم وصلي بتركبك القلَّة». في مقابل ذلك، تتذكر العجل المسمَّن الذي ذبحه الأب للإبن الخاطئ العائد، تاركاً الابن البارّ يجمعُ الحشيش لعلف ذلك العجل المسمَّن، وعجول أخرى أعدَّت للخطاة التائبين العائدين.

ولو تأملنا سلوك العباد لرأينا من أمرهم عجباً، يفتكون بالمخالفين من جنسهم، ويكرمون المنكرين، بل ربما أكبروهم وأنقذوهم وأعانوهم، فلقد تواتر في كتب اللأخباريين والمؤرخين، إبَّان فورة الخوارج في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة، كيف كان هؤلاء إذا وقع بين أيديهم مسلمٌ ليس على رأيهم قتلوه شرَّ قتلة، دون استتابته أو دعوته إلى معتقدهم. وقد حدث أن أحد الصحابة الكبار وقع مع

رفقةٍ له بين أيديهم، فقال الصحابي لرفاقه: «لا تجيبوهم إذا سألوا، أنا أجيبهمْ». ولما سألهم الخوارج: «ممن القوم؟». ردَّ الصحابي: «قوم من يهود بني النضير!».

- أنتم كافرون إذاً؟! يا غلام أحضر لهم طعاماً وشراباً، وآتوني بمن يسمعهم كلمة الله ثم أبلغوهم مأمنهم!.

ففعلوا، ثم أوصلوهم إلى تخوم منازلهم وانصرفوا.

فقل لي بربك: ماذا ترى؟

ولعلّ الخطّائين يُنيبونَ بأعمق وأصدق مما يكون عليه التقاة، وإلا فما سرُّ قوة الجذب تلك التي تنشدُّ فيها إليهم الاستجابة لما يرجون، فيما التقاة يتقلّون على صفيح الآمال الحارة والرجاءات الحارقة.

ثمّة سرٌّ عصيٌّ على الفهم، إلا أنه واقعٌ معروف، يتكرر يوماً فيوماً ألف مرة، والناس على انقسامهم بين مستسلمين تجرُّهم جحافلُ الذباب إلى جحيمهم الدائمة، وبين معاندين في صف «أورست» من «ذباب» سارتر، بغض النظر عن وعيهم أو عدمه. لكن المعاندين يكبرون ويعظمون فيما تصغر أو تتهاوى قوى جوبيتر أمام عنادهم وإصرارهم.

والمؤكد أن سهجنان لم تكن تعي هذه الحقيقة، وليس لها أدنى معرفة بسارتر، أو بأي من فلسفات الزندقة، لكنها كانت، يقيناً، كذلك بالسليقة، وعلى طريقة مَنْ يحترُّ تحت شمسِ الصيف، ويقشعر تحت مطر الشتاء. فهي كلما أطبقت عليها قضية تعجز عن رفعها، توجَّهت إلى الله تستعينه، وما كان يخيبُ رجاؤها مرَّة.

وصلت سهجنان ذات يومٍ شديد الحرارة إلى بيتها، تريد الاستحمام، نضّت عنها ملابسها، وسارت عارية باتجاه الحمام، ووقفت تحت

الدوش، لكنَّ نقطة ماءٍ واحدة لم تنحدر فوق عاجها الناعم، فأوشكت على البكاء، واستغاثت بالله ليجد لها مخرجاً، وسرعان ما جاءها رنينُ هاتفها:

- آلو.
- آلو.. جنان.. أنا فهد.. وينك انتِ؟
- بالبيت!
- شو في بالبيت؟ لاقيني بسرعة عالمكتب، هلق.. هلق!
- ما فيني!
- ليش ما فيك، لاقيني بسرعة وبلا فلسفة!
- شالحة تيابي وبدي اتحمَّم!
- روعة، حطِّي عليك أيّا شي، جيبي غياراتك معك ولاقيني على المكتب، الحمام بالمكتب اليوم.

وفي هذه الأثناء، كان جارها الورع في الشقة المقابلة، يتهيَّأ للصلاة، ولما فتح صنبور الماء، لم يسمع إلا شخير الهواء المتسرِّب من القساطل الفارغة، فحوقل واسترجع واستغفر، وظلَّ شخيرُ الهواء يتعالى فوق حوقلته؛ فتيمَّم على رخامة المطبخ، وشرع في صلاته غاضباً في قرارة روحه، وعلى صفحة وجهه عتبٌ مرير.

«عندما تخضرُّ عريشةُ السطح على مساحته كلّها، وتبصقُ الكرمةُ عناقيدها الوليدةَ المشرئبة من أغصانها الجديدة. تلك الأغصان التي يسميها الفلاح «ألاحين» والواحدة منها «ألْحون»، حتى إذا امتدت كلظىً أخضر، قَسَت، والأحبُّ الأصوبُ إلى لسان الفلاحين «عَسَت» أي أصبحت عاسية - وهي خلاف القاسية، فالقسوة يبوسة وموات، أما «العساوة» فبلوغ واخضرار - تجدها استحالت في ليلةٍ وضحاها عبيَّةً باذخةِ الظلّ، تقفُ تحتها، والشمسُ في صدر السماءِ فتحجبها، وتستظلُّ عباءتها ليلةً، والندى يعتصرُ الضباب رذاذَ موجةٍ عاتية، فلا يصيب فراشَك بللٌ. فالعريشة عبيةٌ، كأنها ارتدت عباءة الورق الأخضر، كراحات الأيدي المبسوطة بعضها فوق بعض، وقد عَسَتْ ورقةً ورقةً، وتراكبت تيكَ الأوراق نسجَ فنّان بديع، وترامت متدليةً عن حواف الأطراف المربعة عيناً حذاء عين، كل عين مربَّعٌ، أربعة أمتار بأربعة، تنهضُ على أوتادٍ خشبيةٍ أربعةٍ، تتصل أفقياً، من الأولى بأربع أخشاب أفقيةٍ تلقي كل واحدةٍ برأسها على الوتد العمودي الذي ينتهي من أعلاه بأربع شُعب كسواعد قصيرة، تحضن رؤوس الأخشاب الأفقية الحادة كأقلام الرصاص، وتُشد بعضها إلى بعض بأليافٍ من لحاء شجيرة

يسميها الفلاحون شجيرة الصابون لأنها تحمل أثماراً بحجم حبة البندق إذا كسرت ومُررت على اليدين بالماء كان لها رغوة كالصابون يستخدمها الفلاحون بعد الطعام لغسل اليدين، وكلما فاضت العريشة عباوةً وعست، وستفعل دائماً، يضيف العاقل وتدين اثنين من مسطح السقف ارتفاعاً، فيقوم مربع جديد، الحيلة إذاً في إقامة المربع الأول، الذي تُثبَّث أقدامه على سطيحة السقف بسلالٍ مملوءةٍ طيناً إذا جفَّ، اشتدّ وأمسك بقدمٍ من أقدام المربعات، فيما السلال مطيَّنة من قواعدها بأرضية السطح لتثبت بصلابة متوخاة.

وهكذا مربعٌ حذاء مربع يصبح السقف أخضر عبياً، حتى إذا أطلَّ حزيران، أينع العنقود حصرماً عفياً وفياً، تتفتق له الغدد اللعابية للصبيات، يقطفنها عناقيدَ خضراء فاتحة، تمسحُ حبيباتها بالملح، فتُعتصر العيون إغماضةً تلو أخرى، فيما أسنان الصبايا تهرس الحصرم هرساً ليناً وشديداً.

أمّا عندما يهلُّ تموز، و «تغلي المي بالكوز» - وهو ابريق الفخار الصغير - تشقرُّ العناقيد، حتى كل حبّةٍ كُرَيّة كورباء، حجراً كريماً، إذا كانت العريشة حيفاوية، أو كل حبةٍ كُرَيَّة ياقوتٍ نادر الوجود في مناجم الأرض، وافر البذخ في عريشة السطح.

فلا عجب إذا أسمى الفلاحون عريشة السطح مبروكاً، إنه «المبروك» إذاً، يُزرعُ عند زاوية البيت قبل أن ينهض بنيانه.

ويكون علامةً على بركةٍ دائمة، وأمل أخضر لا يذوي، ولا تصفرّ فيه إلا عناقيده، وما همَّ إن هجم الخريف تشريناً وراء تشرين، وتهادت أوراق المبروك، إذ تحرِّكها نسائمُ الخريفِ السامّة، وتعجز عن نزعها، فأوراق العريش، تهوي حينما يستحيل اخضرارها بنيّاً فاتحاً، أقرب إلى لون حبّات الفستقِ المقشور، ثم بنياً غامقاً، أدنى إلى لون عروق العريشة الممتدة على عيون المربعات العديدة، فوق السطوح، أو المساحات الممتدة أمام الدور.

تتهاوى أوراق المبروك من عليائه، إلى تربة الجلول، عائدة إلى أصلها، من التراب وإليه، فاسحة في المجال، لجنين ورقةٍ ضامرة، تخرج من حَطَبِ العروق، تبشِّرُ بالربيع، قبل حلوله.

ثم يأتي من يحدثك عن عظمة الفلسفة الصينية، عن الين واليانغ، تلك الدائرة التي يفصلها خط ملتوٍ كأنه علامة استفهام بين قسمين متساويين أسود وأبيض، يبدوان للمتأمِّل وجهين متقابلين، ويحلو عند كثيرين الاستغراق والتحليل، للحديث عن تراكب الليل والنهار، وتعاقبهما، ويزيد البعض في الاستنتاج، أن الدائرة هي فلك الوجود الذي لا يصفو ولا يستقر على حال، فمن رحم السواد يولد البياض، ومن كبدِ البياض يتخلَّق السواد.

ذلك ينُّ الصينيين ويانغهم، أما فلسفة الفلاحين في قرانا، فليست دائرةً، فالدائرة، وإن كانت أتمّ الأشكال، فهي آخر الأمر مغلقة، مخنوقةٌ

بمحيطها وحدودها، إنَّ فلسفة أبناء هذه السهول والجبال، أبعد من ذلك، إنها امتداد وتدفق، جدولٌ ثرٌّ، هادئ، لا تطال نهايته عينٌ، كما لا تبلغُ مبتداه مسحاة.

جدولٌ يمضي أمداً إلى أبد، دون توقف، وقبل وعينا وبعده، حيث نسغ الحياة أسروعٌ دائم الحركة، يغزُّ في بذرة الأشياء، في هيولى كلِّ بذرةٍ، ولا يفنى حتى ولو دبّ الجفافُ في عروق كل موجود، فقد تفنى عريشة الدار، وصاحبُ الدار، وحجر المدماك، أمَّا ذواتها فخالدة، في عريشةٍ جديدة، وصاحبٍ جديد، وحجرٍ جديد.

فأين أنتَ من دائرة تلفُّ على نفسها حتى ندوخ، وبين جدولٍ يمضي، وكل آنٍ أفقٌ ومطلٌّ، فوق آلية الليل والنهار، وفوق حبس الفلك الصيني الرومنطيقي، ذلك الرأس الأصلع الذي يكزُّ انحناءة السماء وانطباقها على استدارة الأرض التائهة؟».

قرأتْ سهجنان هذه الأوراق التي بُسطت على أرضية صندوقٍ من البلاستيك، أعطتها إياه أختها، وهو حصتها مما أرسله أبواهما لهما، صندوقان بلاستيكيان من العنب، كبير وصغير، الصغير لسهجنان، والكبير لأختها المتزوجة طبعاً.

عنب أشقر من عريشة الدار، هناك في أعالي الشمال، كانت سهجنان تفرغ العنب من الصندوق، عندما لفتت نظرها هذه الأوراق في أرضية الصندوق، ظنّتها أول الأمر رسالةً خبأتها أمُّها تحت أوراق العريش،

بعيداً عن عيني أختها، ومن عادة أم سهجنان، أن تفعل ذلك، إذ تخفي رسائل عاجلة لها، تسألها فيها عن جديدها، كما تستعلمها رأيها في شاب من المحلةِ قد جاء مع أمّه يستطلعان إمكان جمع رأسيهما على مخدة واحدة.

عندما بدأت سهجنان بالقراءة، بدا أنها تقرأ سنسكرتية بخطٍ عربي، حتى أنها فكّرت في مضمون ما تقرأ، فلم تفهم سوى التوقيع: من أوراق الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام.

وعبد الرسول محمد الكرام هو جدها، زوج جدتها سهجنان، التي أسميت هي نفسها على اسمها.

شتمت سهجنان جدَّها وجدتها وأبويهما في سرِّها وعلانيةً أيضاً، وصدَّت نفسها عن العنب الشهيّ، فأقسمت بالأيمان المغلظة أن لا تذوقه، إلا أنها وكالعادة نكثت إيمانهما، شأنها في كل مرَّة.

كوَّرتْ سهجنان أوراق جدِّها عبد الرسول محمد الكرَّام بيدها، ومشت لترمي بها من النافذة، عندما لفتتها فجوة تحت إبريز الشباك، فدسَّتِ الأوراق فيها بغضب وتشفّ، حتى أغلقتها تماماً، وقالت بصوتٍ رفيع: «عالقليلة استفدت منك بشيء يا عبد الرسول».

لا يملك المرء إلا أن يعجب، كيف أنَّ لعبد الرسول محمد الكرَّام، الغارق في الاستنتاجات العاقلة، حفيدةً كسهجنان غارقة في جاط غضبها من اسمها الذي أنكرته، وأغضبها ولا تزال.

لو أنها تعرفُ، أنها عندما ولدت، جاء الحاج عبد الرسول محمد الكرام وزوجته إلى بيت ولدهما الفضل. باركا لوسيلة، والدة سهجنان، بالمولودة الجديدة.

وبعد السلام والكلام، سألت الحاجة وسيلة:

- فرجوني عَ هالبنت!

أحضروها ملفوفةً إليها، فلما فضَّت لفافاتها عنها، انشقت هذه عن بدرٍ رضيع، ذي وبر على الرأس بنِّيٍّ، وشفتين صغيرتين بلون لؤلؤ الرمَّان اللفاني، وخدين بارزين كتفاحتين، وقامةٍ صغيرة عفيَّة، تدور عيناها العسليتان بحجريهما، دوراناً بطيئاً هنيئاً، ثم تثبتان على وجه جدتها التي كانت تهدهدها:

يا بنتي ويا بنتي	غاب القمر وين كنتي
قومو زيحو من دربي	بدي ضبك بقلبي
خبتلك ستِّك علبي	لا سمعتي ولأ ما شفتي
قولو لْ خالي ولْ عمي	ولْ أخواتي ولْ أمي
بدي أعطيك اسمي	بحياة الله شو قلتي

بدا أن وسيلة قد امتعضت من قول الحاجة سهجنان: «بدي أعطيك اسمي». ولكن لم يتسَنَّ لها قول أي شيء لأن الحاجة سهجنان سبقتها ونزعت من معصمها تلك المبرومة الذهب، التي كانت علامتها يوم خطبها عبد الرسول محمد الكرام، قبل أن يصبح حاجاً عالماً، وقد كان بعدُ فتىً ذائباً في هوى سهجنان الجدة الآن.

رفعت الحاجة سهجنان، والرضيعة في حضنها، المبرومة الذهب وحركتها ليراها الجميع، ولوَّحت بها يميناً ويساراً، فيما تهزهز بركبتها ذات اليمين وذات اليسار، لتسكن الرضيعة. مبرومة ذهب بالغة الحجم باستدارة وسماكة خنصر الرجل البالغ، شرائط سبعٌ من الذهب المبروم شريطة شريطة تلتف بعضها على بعض كجديلة من ذهب، فائقة الصنعة، تسطعُ سطوعَ شمس على جبين الأفق.

لوَّحت الحاجةُ سهجنان بالمبرومة الذهب صعوداً وهبوطاً بخفةٍ ورشاقة مراراً.

- مبرومة ١٣٥ غرام أربعة وعشرين قيراط، شغل الأرمن بحلب، حكيلن الحكاية يا حج!
- شغل أربع سنين بالفاعل، ومع المكارية بالمواسم، وبتجارة العدس، ١٦٠٠ مجيدية وعشرين بشليك، مجيدية تنطح مجيدية، وبشليك يضرب بشليك.. وما تنسوا انو رحت مشي ع حلب ورجعت مشي، مسافة أربعتعشر يوم، نهار وليل، روحة رجعة، بعزّ دين الشتا، هيدي غير الوقت الضايع ما رح نحسبو. وصلت دغشة ع حلب، صليت الفجر بجامع القرنة بالسوق، ونطرت الصايغ آغوب الأرمني تا يفتح، ضليت عريق بطني، والزوادة صارت عآخر، كم فتفوتة خبز بجيبة الشروال، رزق الله عا أيام الشروال، اللحام قبالي سلخ القرقور وعلقوا، عويس

متل الدهب، ما استرجيت قرِّب، مش عارف شو ناطرني عند الصايغ آغوب الأرملي، الله وكيلك لما فتح، سميت وفتت، حيا الله، سلّم الله، وقلتلو بدي مبرومة ما في منها ببلاد الشام يا معلم آغوب!

- وصلتي! قديش عامل معدلك؟
- قد ما بدك.
- فوق المية؟
- فوق الألف!
- قلبك قوي؟
- حديد!

طلَّع تنكة مصدَّاية من تحت الطاولة بلزق الباب البراني، انشفتها بتقول: تنكة زبالة. مليانة رماد، مد ايدو وشال شقفة خام مطوية سبع ثمان طويات، نفَّض الرمادات، اخدني لجوا، آخر المحل، وفلش شقفة الخام، وضهّر منها كيس جوخ بلون الدراق، لونو بشق القلب، وسحب المبرومة بتوجّ وجّ، لمّن شفتها زوغلت وانربط لساني؛ فزعت مصرياتي ما يكفو.

- شو رأيك؟
- بتطيّر العقل! قديش حقها يا معلم آغوب؟
- ١٨٠٠ مجيدية!

- توصّا يا معلم آغوب، الله يرحم أبوك، بعتني لعندك البونا سمعان الدويهي من طرابلس، وبسلّم عليك، بعلامة ما أكلتو عسطيحة بيتو بضهور زغرتا، كباب مقلية بالليّة، آخر موسم الحصيدة عمنوَّل! وحمَّلك ألفيتين عرق متلَّت...
- خوش بابا خوش! البونا سمعان، عيوني البونا سمعان، وانتي عيوني. كبة مقلية، أورما، يبرق، شيش برك، داوود باشا.. السطح كلو أكل. هاتي ١٦٠٠ مجيدية وعشرين بشليك، وإذا ما بكفي اللي معو، بتاخد المبرومة، وبتدفع الباقي بعدين! البونا سمعان أبوي وماما واختو وخيو.
- اي والله. البونا سمعان بي الكل، بينشرب مع المي العكرة. حُطّلي من السعر شوي يا معلم آغوب.
- ما بتقدر. إذا ما في، بتاخد وبتدفع بعدان.
- لا.. لا.. لا. الحمد لله في، بس بضلّ بلا أكل، والله بعد ما تروقنا، شطّ ريقي عالقرقور اللي معلقو جارك اللحام.
- أبو أحمد قرقورة، كويس، الترويقة علينا بابا.

والله، ما الكن يمين تحلفوني، قام المعلم آغوب بنفسو ووقف عاباب المحل، وعيط:

أبو أحمد: قرقورة!

- يا الله! يا الله معلم آغوب، أمر أمور!

- عندي ضيوف لبناني، بدو يتروق، هاتي مشوي، وهاتي نيّة. اللبناني بياكل نية.
- بعرف، بعرف. عراسي والله.. شوي وبيكونو عندك يا معلم آغوب.

وحياة مين مسلمكن، مدّلي المعلم آغوب سفرة عطاولة المحل: اورفلي، وكفتة عادي، وكستلاتة مشوية، وسودا نيّة وليّة وخضرة وكبيس وحمص بطحينة. والله دبت بتيابي، بس مثل ما بقول المثل: «أكلة وانسمت عليك، كول وبحلق عينيك». ومعلومكن كان لي سبع تيام عالخبز اليابس والزيتون والبصل. أكلت والله نهوة قلبي، ولحلحت تمي بكبايتين ليموناضة، وبكرج شاي ع خاطرك. تشكّرت المعلم آغوب عالترويقة، وتكّيتلو ١٦٠٠ مجيدية وعشرين بشليك، باسن وحطن عراسو وقال:

- فاتحة مباركة.

قمت أنا من هبلي صرت أقرا الفاتحة بصوت عالي، وفاتح ديي للسماء وعالواقف. بلّش المعلم آغوب يضحك ويتشهشق.

- مش فاتحة القرآن؛ فاتحة البيع تجارة.
- آ.ههههة. قصدك استفتاحة مباركة.
- هيدا هوي. هههههههة.
- يا لطيف! هالحكاية عمرها خمسة وستين سنة، كأنها مبارح.

- بيرجع مرجوعنا للمعلم آغوب، ضبّ المبرومة بكيس الجوخ اللي بلون الدراق، ولفها بشقفة خام، وطلّع إبرة وخيط وقطّب شقفة الخام، وقللي:
- وقفي!

وقفت. فتح الجارور، وجاب شفرة بولاد، بتطلع شي فتر، وقللي بصوت واطي:

- فكّي الشروال!
- شووو؟
- فكّي الشروال! عجلي. هلق بيجي زبون.
- يا عمي شو بدك بشروالي؟

بيني وبينكن، لعب الفار بعبي، وتشوشر عقلي.

- يا عمي شو دخل دكّة شروالي هلق؟

انت حمارة! بعدك ولد! كيف ترجع عطرابلس، وحامل الذهب. يمكن توقع منك. يمكن حدا يشوفك، بيقطع طريق، بيقتلك. بدك تتجوزي أو بدك تموتي؟

- بدي اتجوز!
- خلص، اسكتي وفكّي الشروال!

فكيت الدكّة، وقلبي عم يدق مثل الطبل. بس ضلّيت متحسِّب. قرَّب المعلم آغوب وشفرة البولاد بايدو، فتق عشرة تنعشر قطبة من

كمر الشروال لجهة اليمين، وجاب خرزة زرقة علقها بدبوس على شقفة الخام، اللي فيها المبرومة، ودحشها بدكة الشروال تحت الكمر وقطّبوا أحلى مما كان، رسم الصليب بالهوا بوجي ثلاث مرات، ومدري شو بربس. رجع فتق ست سبع قُطب بالدكة من ميلة اليمين، وجاب مسبحة كوربة شرَّابتها صليب دهب زغير، ودحشها تحت الفتق، ورجع قطب الفتق أحلى من الأول. وصلَّب بالهوا، وبربس متل الأول. وقللي:

- هيد المسبحة للبونا سمعان، وقللي:
- سلّم لي عالبونا سمعان، وقوليلي: إن شاء الله بتصيري مطران حلب. بصير بشوفك كل يوم.
- مش أحلن تفتح أنت محل بطرابلس يا معلم آغوب؟
- شو بكي أنت، حلب أكبر، أكتر بيع، هيدي حلب قد الدنيا.
- عندك حق!

وقبل ما أمشي، لفلف كل الأكل الباقي، وحطن بكيس خام، ونزلهن بالجرابندية اللي كنت معلقها بكتفي، ورجع جاب بلاك فضة لولد زغير، وجوز حلق فضة وحطن بكيس مخمل زغير، ونزلهن بجيبة الصدرية اللي كنت لابسها.

- كل ما تقعدي بمحل انت وراجعة مع المكارية عطرابلس، وسألوكي شو اشتريت من المعلم آغوب الصايغ، قليلن بلاك

فضة وجوز حلق لأختي الزغيرة. ما حدا رح يسرقك منشان
فضة بعشرين بشليك.

ايه! هول الأرمن، شعب ذكي، وفي وصادق، ما في منن. وبالشغل
نامبر ون. ما علينا هلق. هيدي حكاية المبرومة. تفضلي يا حجة
سهجنان!

لم تنفك الحجة سهجنان، فيما الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام يروي حكاية المبرومة، تهدْهدُ الرضيعة بهزّ ركبتيها، والرضيعة تدير عينيها في وجه جدتها بصمتِ العاقلين. وما أن أنهى الحاج مطوَّلته عن المبرومة، التي لم يبقَ أحدٌ من معارفهم في الشمال والجنوب والبقاع والوسط إلاّ وقد سمعها عدَّة مرات، بالطبع كان يتخلَّل الحكاية، حديث مفصَّل عن الطريق التي سلكها الحاج عبد الرسول محمد الكرام، من جرود الضنية نزولاً إلى طرابلس، لمرافقة المكارية إلى حلب، عبر تلكلخ ومنها إلى حمص، ثم الرستن، وبعدها حماه، ويطول الحديث عن نواعيرها وأغنامها، ومن حماه إلى خان شيخون وصولاً إلى معرة النعمان، ويتشعب الحديث عن أبي العلاء المعري وفلسفته، والتعوذ منها، ثم منها إلى أريحة، ويعدّد قرىً ودساكر وقصبات قبل أن يصل إلى حلب، وهناك يستفيض عن قلعتها، وعمارتها، وأسواقها، وغناها، وعن سبب تسميتها حلباً، متبحراً في قصة النبي إبراهيم الذي كان له فيها كهف عظيم يؤوي فيه غنماً لا عدَّ له، فإذا حلبه سقى الناس منه فوق حدّ الارتواء، فكان الناس يجتمعون ويسألون بعضهم بعضاً: «حلب؟» أي: «هل حلبَ ابراهيم غنمه؟». فتتعالى التكبيرات في المجلس، ويصلون على النبي إبراهيم وعلى النبي محمد.

وقد يخرج الموضوع إلى الابتهالات والمدائح النبوية. وما كان ينسى الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام عندما تهدأ نوبة المدائح، من العودة إلى موضوعه، فيتحدث عن الضباع الكثيرة المنتشرة في الطريق، وما تبعثه في النفوس من هلع، وما يواجهه المكاريون من قطاع الطرق، ورجال الوردان - يعني الجمارك. وهؤلاء كانوا أشد على المسافرين من الضباع وقطاع الطرق، كما كان يخبر الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام، وما كان يفعل إلا إذا تلفَّت حوله ليتأكَّد أن جميع الأطفال قد غرقوا في أحضان أمهاتهم حتى النومة السابعة، بعد حديث الضباع. فيتنحنح، ويخفض صوته:

يا جماعة المجالس بالأمانات، بس مش رح سمِّي، الله يرحمو هلق صار بديار الحق، مشي معنا عحلب من طرابلس، وهوي من عنا من الضنية، المسكين آخد معو مرتو، عروس جديدة، ما فهش عفراقها.

لما وصلنا عالرستن، طلعلنا الوردان من الخلالي، كانت الشمس أوَّل غروبها، والدنيا زخّ، والرجال غرقانة لركابها، تشيل أجرك تا تفشخ، يضلّ بسطارك بالوحل، تمدّ ايديك وتشيلو، تحطو تحت باطك وتمشي حافي.

«خلينا نحطّ هون»، قالوا المكارية. «خليكن عالدرب سحبة وحدة لساحة الرستن» قال الدَّالول «قبل ما تفحِّم العتمة». غمضة طلو الوردان عبغالن، ثلاثة وعليهن أنباشي.

- الله بالخير يا جماعة! الله يسهِّل من هون؟ من وين لوين؟ قال الشاويش.
- الله بالخير يا أفندي، والله عاحلب من طرابلس، وبدنا نريّح بالرستن سواد الليل من بعد أمرك.

وكمّل الدالول بصوت واطي «الله يجيرنا منك ومن شرّك، يلعن وجّك».

وقف الشاويش قدّامنا، وأشّر للوردان اللي معو، «انتي عالآخر، وانتو التنين و احد عاليمين وواحد عالشمال، إذا فلت حدا منن بدي قبركن».

واتطلع فينا وقال: «انتبهو أنا عديتكن». وحطّ عيونو بعيون الدّالول وقللو: «بشيل عيونك إذا فلت حدا» ومشينا حركة ساعتين، تا وصلنا لساحة الرستن، والدنيا ما هديت، لا من فوق ولا من تحت، قلّطونا لآخر الساحة تحت الخرّوبة: «حطّو هون! أوعا حدا يولّع نار! النار عليها رسم، عشر بشالك!».

- عبدو!
- أمرك سيدو!
- وقف هون! واشرلو يوقف حد حيط الدبش ورا الخروبة، واتطلع فينا وقال: «اللي بدو يقضي حاجتو يروح لورا الحيط، والفوتي بنص بشليك. الضهرة ببلاش! مفهوم!».

- آمرك سيدنا.

الله غضب عقرايبنا من الضنية، وقرَّب من الأنباشي، ورا منو مرتو، مش مبينة انها مرا، كلنا لابسين جلاجيء فوق بعضها البعض، والروس مغطاية، بهيك الأيام الرجال بيشبه المرا، كلو مغطي، خصوصي بالشتا.

- يا سيدنا، لا تؤاخذني، عندي قرايب بالرستن، بتؤمر تخليني روح نام عندن، إذا مش منشاني، منشان مراتي، مش مرتاحة ال يوم!

- مرتك معك؟ قرّب لشوف؟ وين الفانوس؟

قرَّب واحد من الوردان بالفانوس، «ضويلي عليهن، اقلعي عن راسك يا حرمة!».

قشّطت عن راسها المسكينة، «شعر أسود غطس مبلول، سارح لآخر ضهرها، وجّ أبيض مثل القمر، استغفر الله، أعوذ بالله، قامة، لا الخيزران ولا طلة طلايلو، بس هامة، مش مفستكة، عنق ناقة مشدود، متقَّل بكوزين رمان، الله أكبر، وعالميّ والبلل، فستانها مرنّخ عالآخر، نبق من كل كوز متل راس الباهم، استغفر الله، واقفين وقوف، سبحان الله، الكلام بسركن الرجال صارو فحول وعم تجول».

فتنة واسمها عليها، كانت تُغْرِقُ عينيْها في عينَيْ محدِّثها فتغرقُه فيكافح للنجاةِ فلا ينجو. تنهضُ أمَامَ نظَّارها فيتهافتوا تهافتَ قلاعِ الرملِ على الشواطىء إذا ضربتْها الأمواج عاتيةً. تباعد بين ساقيها إذا

قعدت، وفستانها هودجٌ فوق أسفلها، فيشرئبُ كل عصبٍ في الذكور المحيطين، وتتحلّب أفواهُ الجميع رجالاً ونساءً، وتسيل فيهم وفيهنَّ كلُّ مواضع السَّيلان. فمَنْ ذا الذي يقوى على العفّة إلاّ مَنْ عصمَ ربُّك من مضلاّت الفتن؟ وما أشبه فتنة بالحاج عبد الرسول محمد الكرّام، تلك بما تبديه وذاك بما يرويه!

وكلما أمعن الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام في روايته، خصوصاً في فصول البالغين، عندما يغفو الأطفال في أحضان أمهاتهم وعلى أفخاذهن البضّة، كان الحاضرون يصغون بشغف، يقطعون أنفاسهم، لئلا يُشغلوا عن كلمة، عن حرف، عن نأمة، وكان الحاج عبد الرسول، والحق يقال، بارعاً، ساحراً يحوي، كما الحواةُ، صِلال الآذان والأفئدة. وما همَّ كم مرَّة سمعوا القصة، وألمُّوا بتفاصيلها، كان بهم، رجالاً ونساءً، توقٌ بالغ إلى السماع، كأنها تُروى لأوَّل مرة، وإذا فات الحاج عبد الرسول مشهد، ذكّروه، ليرويه لهم بطريقته، ولا عجب، فالحاج عبد الرسول، راوية من طراز نادر، أشبهه عارفوه بالماء القراح لا يملٍّ ولا يُجفى. وكان النساء أحرصَ على استغراق الحاج عبد الرسول في التفاصيل، من أزواجهن أحياناً، تبعاً لمواسم الحمل والنفاس والهرم، أما الرجال فكانوا أكثر مجاهرةً بالإقبال، وادّعاء الفحولة، فذلك دأب الذكور، مُذ كانوا، يخلطون بين الشهوة والاقتدار عليها، وهم يعُون حدود قدرتهم، ولكنهم لا يقرّون بها، فذلك قدحٌ في فحولتهم، وإعدام لوجودهم. ولولا أن مَنَّ الله على غالبية النساء، إلا مَن شذّ، بالحياء، لكان النقاب والنصيف والحجاب من نصيب الرجال لا النساء، خشية

الفضيحة والمعايرة، فلقد عصم أدبُ المرأة وحياؤها المرأةَ من المجاهرة، بما يجري في المخدع الليلي بين الزرابي والنمارق، فلولا حياء النساء، لذاب الرجال خجلاً، في وهم فحولةٍ متمنَّاةٍ، وتنقبوا إذا خرجوا كرجال الطوارق فلا يعرفهم أحدٌ، وتنهار صروح ادعاءاتهم الجوفاء.

وهكذا كان معارف الحاج عبد الرسول في الأماسي الشتوية الطويلة، يتنافسون في دعوة الحاج إلى بيوتهم، ويجمعون أحبابهم وأقاربهم ومعارفهم، يعدّون للسهرة ما لذَّ وطاب، وأكرموا الحاج غاية الإكرام، فهذا يخصصه بسبّحة من اليُسر النفيس، وهذا يخلعُ عليه عباءةً مسح بها على قبر الرسول الكريم، وذاك يحمل للحاج في بؤرة داره رطْلَي صنوبر من منحدرات بكاسين على سفوح جزين، وآخر يستحلفه أن لا يعبأ بأمر المكدوس هذا العام، فلقد أوصى له على حاجته، وقل مثل ذلك في الكشك، والتين اليابس، والجوز واللوز، وكل طيِّب مأكول أو مشروب أو ملبوس.

ولقد سرى بين الناس، همساً وجهراً، أن الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام، حكيم، وصفته الكلمة لا البرشانة، ووصفه النساء بوصفهنَّ أنجع من المبضع. وهو بارعٌ نافذ في تقوية بذرة الرجال، وإنزال ما علق في مبايض النساء، بعامل الخجل والخوف، إلى مستقره لاعتلاق العلقة بمقصدها، فيكون الحمل مضموناً، دون الحاجة إلى طبيب

يكتب الوصفات غير المجزية لتقوية البذرة عند الرجال، وفتح أبواب المبيض عند النساء.

وقد أجمع قوم، تواترت أخبارهم، وأُسندت أحاديثهم، أن فلاناً وفلاناً وفلاناً في قائمة تطول، أصغوا إلى حديث الحاج في سهرة و احدة ليس إلا، فواقعوا نساءهم، فحملن، ولطالما ظن بعضهم أن الحمل جاء بمحض المصادفة، حتى إذا عاثوا بنسائهم حرثاً طويلاً ثقيلاً، ليلةً وراء ليلةٍ، دون جدوى، ولا طائل، عادوا بعد ذلك صاغرين، ويبهظون للحاج الهدايا، وما هي إلا سهرة واحدة، حتى تحدث المعجزة لتكون ولادة بعد تسعة أشهر!

حتى أنَّ مَنْ قصَّر عن فعل الرجال، عجزاً أو هرماً، مضى، يأخذ مكانه في سهرة، يكون فيها الحاج راوياً، فتتحرّك في المقصِّر آلته، ويودُّ في تلك اللحظة، لو يستطيع أن يبطح حلاله، فلا تضيع الفرصة.

بدا الحاج عبد الرسول «فياغرا» زمانه، وما عاد أحدٌ يعبأ بوصفات كتاب «الباه في رجوع الشيخ إلى صباه»، ونسي الناس في طرابلس وضواحيها، أمر الأطباء والصيادلة، فكسدت بضاعتهم، وبارت تجارتهم، حتى في أبسط الأدواء. فقد كان المصاب بالفُواق، وهذا عرَضٌ شاع، تلك الأيام، بسبب البرد وانعدام التدفئة، يمضي إلى سهرة الحاج فيعود منها طيباً معافىً، فوقرَ في أذهان الجميع، أن في الإصغاء إلى الحاج دواءً لكل داءٍ.

وبلغ من شهرة الحاج عبد الرسول أن طبيباً مختصاً بحالات العقم والعجز الجنسي، تنكَّر في ملابس بدوي، بعد أن أعيته الحيلة والأدوية المختلفة، لعلاج تقصيره الذكوري؛ وكما يُقال فإن الغريق «يتعلّق بحبال الهوا»، تعلّق الطبيب النطاسي، بحبال ما تواتر من روايات عن الحاج عبد الرسول، فمضى على تنكّره ذات أمسية عاصفة ماطرة من شهر شباط اللبَّاط، واتخذ له مكاناً في أقصى المجلس من ذلك اللّوان الواسع، ليتسنى له الفرار إنْ تعرَّف إليه أحد، وكان في ظن الطبيب أنه سيجلس ساعةً واحدةً، أو ما دون ذلك.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة عندما استقر الطبيب في المجلس، قرب الباب، يستمع إلى الحاج يروي حكاياه بصوته الهادئ الرزين، الذي يرفعه تبعاً لمن يروي عنه، فإذا كان يروي ما يقوله الشاويش مثلاً، اتخذ هيئته، وتسرَّب اللؤمُ من صوته، وإذا ذكر كيف قطع جوز من الضباع عليهم الطريق، صرَّ على أسنانه، وجأر كما يفعل الضبع، فتتقلقل مفاصل السامعين، أما إذا بدأ الوصف، فكانت عباراته، تنساب كالنسغ في عروق النبات، يرسمُ المشهد بالكلمات، يتسلَّل إلى لهات السامعين، وخلايا أدمغتهم، فينسى السامع أن يرفع ساقاً عن ساق، ولا يكتشف أحدٌ أن طرفاً من أطرافه قد نمَّل، إلا بعد أن تنتهي السهرة، ويتمنى فيها الحاج للجميع نوماً هانئاً، وعمارة الدار لمن فتح له أبواب بيته.

تتحرك أمعاؤه، أو تلحُّ عليه رغبةٌ في البول، وما كان أحدٌ يضيق بجاره في الجلسة، ولا يصدر اعتراض من أحد على أحد، صمت مطبق، انصاتٌ جليل فريد.

بالطبع كانت سهرات الشتاء هي الأحبّ على قلوب المدعوين والسامعين، ذلك لأن برد الشتاء يفرض على القادمين إلى سهرةٍ التحصّن من البرد، فالميسور يأتي بعباءته، والميسورة بمعطفها، أمَّا متواضعو الحال فكانوا يأتون ببطّانياتهم، ويقعدون على الأرض. والسعيد منهم من أسند ظهره إلى الحائط، ولذا فعليه أن يكون أوَّل الحاضرين، لأن الباقين عليهم أن يقعدوا في صفوف متتالية، مما يعني، أنهم لن يجدوا ما يستندون إليه إلا سيقان من استندوا قبلهم إلى الجدران، وما كان يزعج هؤلاء أن لا يستندوا إلى الحائط، بقدر انزعاجهم من كونهم تحت أعين من خلفهم. وأثناء عرض الحاج عبدِ الرسول، لا أحد يفرغ لقول شيء، ولكن صباحات الأيام التوالي، كانت تكون محطَّات تزريك وتعليقات بتعريضٍ له أول وما له آخر.

بالطبع كان للحاج عبد الرسول حق الصدارة في المجلس، وعلى يمين صاحب الدار وآله وصحبه، أما زوجة صاحب الدار والحاجة سهجنان فعند الزاوية من صدر المجلس وكذلك من كان من أهل

الدار والأنسباء من النساء، وهؤلاء وحدهم كانوا يستأثرون بالموقد المتوهّج، وما طاب من المطعم والمشرب والفواكه.

غير أنَّ الحاجة إلى الموقد، كانت أمراً ثانوياً ابتداءً من الربع الأول للسهرة، أما بعد ذلك فيبعث الاكتظاظ الحرَّ، ولا سيما، لأولئك المحصورين في الوسط، ناهيك بالحرارة التي تدبّ في العروق، بعد أن ينام الأطفال المرافقون لأبويهم من غير المميزين حصراً، لأن الأطفال المميزين ممنوعون من الحضور، وكذلك محظور على البالغين والبالغات الحضور، وكذا كل مَنْ جازتِ المراهقةَ من البنات. والعوانس والأرامل والمطلقات ممنوعات حصراً. أما مَنْ بلغ مِنَ الصبيان فمرحَّبٌ به، بكفالة الأب، وشرط أن يكون قد اشتهر أن أمّه قد سمَّعت بصبية ما، فباتا محجوزين عُرفاً أحدهما للآخر، وعلى عاتق الأب تحذير ولده المراهق، قبل السهرة، من مخاطر الاستمناء، وإلزامه بعد السهرة بحمام ماءٍ بارد، ولو كان الثلج حتى السقف لإماتة الشهوة. وعلى المراهق أن يقرِّر الحضور أو عدمه بعد ذلك.

كان الطبيب النطاسي، وهو بقرب الباب بثيابه التنكّرية يعاني الحرَّ الذي يهبّ عليه من داخل المجلس، وما يرافق ذلك من دخان النراجيل وتبغها العجمي النفيس ينفثه الحاج عبد الرسول والحاجة سهجنان، وصاحب الدار، وزوجته والآل والأصحاب، أما السامعون الباقون فلا

يحق لهم غير التبغ البلدي تلفُّه أيدي الرجال بورق الشام المميز، وكان يُطاف دورياً على الحاضرين بأطباق التبغ الفلْت وأوراق اللَّف.

وفي الحقيقة، كان الطبيب النطاسي يعاني ثلاث موجات من الحر، أولاها ما ذكرناه آنفاً، وثانيتها جرَّاء خوفه من انكشاف أمره، وثالثتها دبيب ما بدا يسري في أطرافه من لهيب إغراق الحاج عبد الرسول في تفاصيل تثير الشهوة فضلاً عن استعاراته اللاهبة، أمَّا متن الطبيب النطاسي فكان عرضة لصفق الريح دون توقف.

لم يحاول الطبيب النطاسي، الانصراف لحظة، فلقد كان الحاج عبد الرسول ساحراً بحق؛ وفي لحظة قبيل انتصاف الليل بقليل، أحسَّ الطبيب بلهيبٍ يضجُّ في عروقه كلّها، وأخافه تمدُّدٌ وسطه بين فخذيه تحديداً، لم يعهده من سنين، دسَّ بوجلٍ يدَه تحت العباءة، يرصدُ ما يجري، إنها معجزة حقاً، آلته استطالت وتصلّبت، فكَّر أنه يحلم، شدَّ على آلته، وجدها صلبةً مديدةً، فخفق قلبه، وكاد يغشى عليه، وفاضت عيناه بالدمع، «غير معقول، سنين طويلة من المقويات ومختلف أنواع الأدوية والوصفات والحقن، ولم يحقِّق ربع ما هو عليه الآن، يا لهذا الحاج الساحر في خمس ساعات، يصنع كل ذلك الجبروت بتشبيهاته واستعاراته الفائقة!».

وفي ثوانٍ هبَّ الطبيب، كمن أصابه مسٌّ، طائراً إلى دارته المنيعة في المينا عندما فتح الباب، لم يصبر لينزع عنه ثياب التنكّر البدوية، بل قفز

رشيقاً إلى حجرة النوم، دافعاً بابها بعنف، ملقياً بنفسه على السرير الذي فيه زوجته، قابضاً بيده على آلته الصلبة آنذاك، متقلباً فوقها يمعن فيها تجميشاً وعضّاً، وإذْ فتحت الزوجة عينيها مرتاعةً، ورأت هذا البغل فوقها، راحت تعول على مدى صوتها، فارتاع الطبيب بدوره، فخنس بعيداً منها، عاجزاً عن قول كلمة واحدة لتهدئتها، فلقد أحسّ ببللٍ يسبقه إلى القول ويتفجَّر من بين فخذيه وينساب على ساقيه، ومنهما إلى فراش الزوجية الوثير!

قذف ثمّ بال الطبيب النطاسيّ على نفسه كثيراً، فهو لم ينتبه إلى أنه قد حبس نفسه عن البول قسراً منذ ما يزيد على ست ساعات، حيث كان ينصت إلى مزامير الحاج عبدالرسول محمد الكرّام.

عندما تكشَّفت هويته لزوجته، هدأت قليلاً، وفيما كان يخبرها بما جرى له، وكيف أنَّ آلته تصلَّبت فوق ما يعهده من آلات الناس، فيما كان يصغي إلى رُقى الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام، فجاءها على جناح السرعة، ليمنحها ما اشتهياه كلاهما منذ تزوّجا. فأغرقت الزوجة بنوبةٍ من الضحك والبكاء، ثم جرَّته إلى الحمام ليغتسل من نجسِ القذف البول، وانصرفت إلى إعداد غرفة نوم الأطفال، الذين لم يرزقاهم، ليناما فيها إلى حين غسل شراشف السرير وتشميس الفراش الذي بال فوقه وهو بملابس التنكُّر، بما يزيد عن ليتر من سوائل الجسد العاجز.

لم يمض وقت طويل، قبل أن تُقنعَ السيدة رابحةُ الزاهد زوجة الطبيب النطاسي وليد الجسر، بضرورة دعوة الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام إلى دارتهما المطلّة على البحر في منطقة الميناء، مرّة كل أسبوع، واضعاً قبل ذلك شرطين: الأول، أن لا يُدعى إلى ذلك أي من معارفهما في العمل، وكلاهما طبيبٌ معروف، والثاني، أن تكون الدعوة في بحر الأسبوع لا نهايته، ولا في ليالي العُطل حيث تكثُرُ الزيارات. وهكذا كان، فاتفقا مع الحاج عبد الرسول على تشريفهما كل أربعاء ليلة خميس. وكم كانت سعادتهما، د. وليد الجسر و د. رابحة الزاهد، إذا كان في الشهر خمس أربعاءات. هنيئين كانا كزوجين في شهر عسلٍ، عاشا لكلّ أربعاء أسبوعاً وراء أسبوع، واختفت إلى الأبد، ليالٍ ماضية، كانا ينامان فيها متجاورين على سرير واحدٍ كأنهما أخوان لا زوجان.

ظلّ الدكتور وليد وزوجته الدكتورة رابحة سعيدين ببركات الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام، ولم يكن ينغّص سعادتهما، إلا معاناتهما، كلاهما من التهابات بولية حادة، وقد أصبحت عبوات منع الالتهاب في بيتهما كالماء والطعام، حتى اكتشفا بعد حين أن سبب هذه الالتهابات لم يكن إلاّ جرّاء انحباس البول الطويل، حيث تتسرب منه قطرات إلى محالب د. وليد، فإذا صبَّ هذا ماءه في جوف زوجته، نشرَ التهاباً واسعاً، يرتد إليه لاحقاً نصيب كبير منه كلما راد مِيلَه بمكحلة الدكتورة، فأدركا متأخرين، أن معجزات الحاج عبد الرسول محمد

الكرَّام، لم تكن أكثر من احتباس بول الساهرين السامعين طويلاً، لامتناع الوصول إلى المستراح، أو خشية أن يفقد الساهر موقعه. ثم إن الحكايا كالمسلسلات وأفلام الإثارة، تشدُّك كلما كانت المؤثرات فاتكة، تخاطب تعطّشك ورغباتك الدفينة، وتنسيك حاجاتك، وإذا احتبس بولُ الرجال في آلاتهم طويلاً انتصبت، فما كان في الأمر معجزة ولا غير ذلك.

«ما أعجب رغبات الإنسان الدفينة، تلك التي لا يصرّح بها لأحد، حتى لنفسه، إلاّ إذا تفلَّت من شباك وعيه كله، وهو في قرارة النوم العميق، فتجيئه على شكل رموز وصور مفكّكة، أعجزت في فهم محتواها كل من تصدى لها. وما كان ليوسف الصدّيق، أن يفقه شيئاً مما رآه، أو أخبر به، لولا أن علَّمه الحق تعالى أصول التأويل.

بل إن يوسف الصدّيق نفسه، لم يلتفت إلى تأويل رؤياه أحد عشر كوكباً، والشمس والقمر وهي ساجدة لها، لولا أن ذكَّره بذلك أبوه يعقوب النبي، بعد أن أصبح يوسف مليك مصر، وهو في كل ذلك يؤول رؤى الآخرين في السجن، ومن ثم رؤيا عزيز مصر.. مما يؤكّد أن علاقة الرؤى بالواقع وثيقةٌ، ولا بدّ لها من راءٍ ومؤوِّل، على أن يكون الرائي غير المؤول أحياناً، ألم ترَ أن يوسف الصدّيق قد أوَّل للسجينين اللذين رأيا أن أحدهما يعصر خمراً، والآخر يحمل على رأسه طبقاً تأكلُ منه الطير. وأفتى للأول أنه سيصبح ساقي الملك، ودعاه ليذكره عند الملك، وأفتى للثاني أنه سيصلب وتأكلُ الطير من رأسه، فليتقِ الله وليصبر، فما عند الله خيرٌ وأبقى. ثمّ ها هو الصدِّيق يؤوِّل لسيد مصر سنابله السبع وبقراته السبع، وهي تتداول العجف والسمنة، فيما

أمره أبوه بإخفاء رؤياه عن إخوته، وما التفتَ إلاّ حين رفعَ أبويه على العرش، ساهياً عن التأويل إلى حين تحقُّق الرؤيا؟

ولقد طاش لبُّ المفسرين في الفرق بين الرؤيا والمنام، وأفاضوا وأسهبوا، وتعبوا وأتعبوا دون طائل، بل سفسطوا في الأمر دون أن يقنعوا أنفسهم فكيف سواهم؟

فليس من العدل ادعاؤهم أن رؤيا النبيّ أو الوليّ هي غير رؤيا العاميّ، وليس من العقل في شيء أن يكون منام النبيِّ أو الوليّ أرقى من رؤيا العاميّ.

كما في منام أبي الأنبياء وأبي الحنيفية ابراهيم الذي اختلف الرواةُ فيما إذا كان اسمعيل اليعربي ابن هاجر الجارية، أو اسحق ابن سارة السيدة هو شريك أبيه في منامه، ويستند كثير من الرواة إلى حديث النبي محمد «أنا ابن الذبيحين» بأن المقصود بالذبيح الأول، وذلك دليلٌ على يعربية اسمعيل من أمه هاجر، وتسفيه لادّعاء اليهود أنَّ الذبيح اسحق دون اسماعيل..، والذبيحان هما: اسمعيل، وعبد الله أبو النبي محمد، الذي قُدِّم للذبح في إثر نذرٍ ثم افتُدي بمئة من الإبل، في قصة طويلة ملأى بالإثارة والعبر.

وفي الآية أن النبي ابراهيم بعد أن بلغ معه، يعني ابنه اسمعيل/ اسحق، السعي، قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الصافات ١٠٢.

فبدا المنام هنا أمراً مؤسساً على رؤية بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ وقوله تعالى ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، كما بدت الرؤيا هناك واقعاً حادثاً لا محالة، ولا بدَّ من التفرقة بين الحلم والمنام. فالأحلام، جمع حلم، ليست في شيء من الواقع، فلقد وصفها الحق بأنها أضغاثٌ، والضّغث في اللغة هو قبضة حشيش اختلط فيها الرَّطب باليابس، وبذلك لا يصح تأويل الأحلام لاختلاطها".

ذلك ما أخبره الفضل والد سهجنان لوسيلة والدتها في محاولةٍ لإقناعها بأنَّ ما رأته أمُّه سهجنان لا يعدو كونه أحد أمرين، إما منامٌ فهو أمر، وإمّا رؤيا فهي واقعة لا محالة. ويستحيل أن تكون حلماً! وعليه فلا يجوز مدافعة أيٍّ منهما، لما في ذلك من مدافعةٍ للقدر. والإنسان لا يقوى على مواجهة القدر، لأن الإنسان من القدر كالريشة في مهب ريح عاتية.

إلاّ أن وسيلة، والدة سهجنان، تلك المرأة القصيرة، السمينة الشديدة البياض، ذات الكرش المدور غير المترهِّل، الرشيقة التي لا تتعب ولا تكلّ ولا تملّ العمل، كنساً وشطفاً وغسلاً وطبخاً، تنام متأخرة وتصحو مبكرة، والابتسامةُ لا تفارق وجهها في كل حال، تقدِّم أسرتها على كل شيء سوى نفسها، أما زوجها الفضل فهو عندها الرجالُ كلهم ترى فيه طلعة القمر، وغرّة الشمس، رغم أنه كان أسمر شديد الأدمة، اعتادت أن تحبّ ما يحبه، وفي الواقع، لم تكن كذلك، بل كانت تُوقر في ذهنه

أمراً ما فيتبنّاه، فإذا فعل، نشرت بين الجميع تعلّقه بهذا الأمر، وإنها تتقيّد بذلك طاعةً له.

وغالباً ما كانت وسيلة تبذر ما تشاء في روع الفضل في وقت متأخرٍ من الليل، فحين ينام الفضلُ زوجها وقد أعياه إقناعها بالمداعبة الزوجية الخفيفة، مقدمةً لما هو أثقل، تأبى ذلك وتضع وسادةً بينهما على السرير، حتى إذا استحكم به النوم، تسلّلت إليه بخفة، فأزاحتْ الوسادة، التي طالما أسماها الفضلُ في سرِّه جدار برلين، ودسَّت يدها الناعمة المطيَّبة وراء سترة نومه بين فخذيه، تحطُّها هناك ثمَّ تمرِّرها على مهلٍ، كمن يعرف مواطن الإنعاش في مغميٍّ عليه، فيدركها نافضاً عنها غبارَ الموات، لتشبَّ نارٌ كمينةٌ هناك، وتتكشَّف دودة القزِّ عن حربةٍ صلبةٍ يطيش لها مخ الفضل، فيدَّعي استرسالاً في نومه، متيحاً لوسيلة كل أشكالِ انتهاكه المباحة والمحظورة.

والمباح كثيرٌ مطروق، وكذا المحظور المأتيّ والمسكوتُ عنه، كإنفاذِ اصبعها الوسطى في ثقب أسفلَه، حتى إذا نخرَ وحشرجَ، تركته مديرةً له ظهرها، فيدنو منها مرتعشاً، آيساً من كل غرور الرجل، يرفعُ أطراف قميص نومها الطويل، يمرِّرُ كفَّيه على استدارتي وركيها، نزولاً إلى أعالي فخذيها الدافئين كمن يستجديهما، وهي في ذلك، تدافعه دفعاً قُدَّ من أحمر فساتين مارلين مونرو والمروحة تطيِّر ما طاب لها من أطرافه الواسعة. فيستعطفها دون كلام، لتعيد الكرَّة بإنفاذ أصابعها

واحدةً واحدةً في ثقبه السفلي، فتفعل. وما بين الإصبع والإصبع تبذر ما تريد، فيأخذ بإصبعها ويدسها بحريمه السفلي، وهي تقرِّره بالكلام الصريح: "أتريد كذا.. وكذا.." وهو لا يجيب بغير التأوُّه الذليل.

كانت الحاجة سهجنان، لا تزال تهدهد الرضيعة الوادعة في حضنها، وقد أنزلت ذراعها التي كانت تلوِّح بها إغراءً للحاضرين بلمعان المبرومة وحجمها، ثمَّ وفي لحظة خاطفة، نزعت الغطاء عن رأسها، فبدا شعرُها المحنَّى بالأحمر والمقصوص حتى حدود رقبتها المترهلة، غير مناسبٍ إطلاقاً لعجوز قد ودَّعت الستين منذ سنين عديدة.

وقفت مستقيمة، وقد ألقتِ الرضيعة على عاتقها الأيسر وتوجّهت ناحية القبلة، وهي تعولُ بصوتها المرتعش:

الله يشهد عليَّ.. بحق القبلة، وبجاه نبينا محمد، الخميس الماضي، ليلة الجمعة، وقبل أذان الفجر مدري بقديش، شفت بنومي اني بعدني بنت بأول طلعتي، وكنت ببيت أهلي، الله يرحمهن، وشفت أمي، الله يرحمها ويجعلها من أهل الجنة، واقفة على عتبة بيتنا القديم، وعم تحكي مع ست وجَّا متل فلقة القمر، لابسة أبيض بأبيض، وعم بتوجّ نور، غمضة مشيو سوا، لحقتن تا أعرف شو في، ولمن صرت برات البيت، ما لقيت حدا، بس الدنيا كانت غير شكل، اختفت البيوت من حدنا، ما في ولا بيت، ولا حيط، ما في إلا أرض خضرا، وشجر ع مدّ عينك والنظر، رمان، خوخ، بردقان، مشمش، تفاح، تين وجميز و...

- معقول يا مرت عمي! شو هيدا، فواكه من كل المواسم بوقت واحد. قالت وسيلة.
- الله يعدمني عيوني إذا عم اكذب، عم تكذبيني يا وسيلة؟
- اتقوا الله يا جماعة، إن الله على كل شيء قدير، والجنة فيها من كل الأثمار. في كل الأوقات ليش العجب. قال الحاج عبد الرسول محمد الكرّام.
- لأ. مش هيك قصدي يا عمي! عم استفهم، انو معقول يعني. قالت وسيلة.
- الله يشهد عليَّ، مش عم قفّي شي، عم احكي شو شفت.
- صادقة يا مرت عمي، صادقة! كملي! خير والصلاة عالنبي.
- اللهم صلّ على سيدنا ونبينا محمد. لما أنا شفت هالفواكه كلها، قعدت فكّر، بقطف واللا ما بقطف، قربت من شجرة المشمش تا أقطف حبة، سمعت دعسة ورايي، سميت بالرحمن، واطّلعت يمين شمال، ما في حدا، مدًّيت ايدي رجعت سمعت الدعسة ورايي، كمان سمّيت بالرحمن، وتلفتت ما في حدا. بالصراحة خفت. وقلت شو بدك بالمشمش يا بنت، روحي عالخوخ! وشو خوخ! الحبة قد التفاحة!
- لكن قديش التفاحة يا مرت عمي إذا الخوخة قد التفاحة؟
- ما وصلتلها بعد، بس اوصلها بخبركن. قربت من الخوخة،

كمان سمعت دعسة قوية، رجفت وسميت وتلفتت، كمان ما في حدا. قلت بقلبي، يا عمي مين اللي لاحقني عالدعسة، ليش كل ما قرّب عشجرة بسمع هالدّعس! كملت بوجي عالرمانة، لقيتها نازلة من عيونها، وعالتقل والحملان الغصون واصلة على الأرض، والله ما عليها ورق قد ما عليها رمان.

- قديش الرمانة يا مرت عمي؟
- ولا شي عادي، قد الرمان العادي، بس أكبر نتفة، ولو سلامة معرفتك يا كنتي، الشجر لما بيحمل كتير بزغّر.
- آ! فهمت.
- شوي، شفت سلة فاضية تحت الرمانة، جيت تا احملها وما فيها رمان، لقيتها مفخوتة من تحت، قشقشت شوية حشيش من الأرض، وحطيت كم قضيب رمان بكعب السلة والحشيش فوقن، ومديت ايدي تا أقطف كم رمانة، رجعت الدعسة ورايي، سميت وتلفتت وصرت عيط: مين انت؟ شو بدك فيني؟ ما بحللك تلحقني مين ما كنت تكون. أنا بنت عزبا وتحت نصيبي، مين أنت؟ اشهد بالله يا جماعة ما سمعت إلا ضحكة خفيفة لا قريبة ولا بعيدة. أنا هون لعب الفار بعبي. تركت السلة والرمانة، وصرت اركض راجعة عالبيت، وطلعت بوجي شجرة التفاح، وشو شجرة قد الدلباية، عبية، بس، بيه، ما

في عليها تفاح. الله أكبر، كيف هيك؟ قلت لحالي. وحياة الله ما قدرت امشي، معقول شجرة قد البناية وما عليها ولا ثمرة. انشغل بالي، صرت فكّر واتطلع بعبّ الشجرة وبين الغصون، شوي، شفت شي أحمر مثل قلب الطير، براس الشجرة، فركت عيوني منيح، واتطلعت، وشو بشوف؟ تفاحة حمرا حمرا حمرا قدما تقولي، اوعك تسألني يا وسيلة قديش هي؟

- لأ. ما رح اسألك!
- ليش؟

لأني بعرف! قد اللقطينة!

- ما حزرت. بس قرَّبت، قد الشمامة بس مدوَّرة. قلت لحالي. والله يا بنت لازم تحوشيها لو كانت معلقة بالنجم، شمّرت فستاني ودحشتو تحت الشنتان، وسميت بالرحمن، وتعمشقت عالشجرة.

وهون ما سمعتي دعس يا مرات عمي؟

- ييي ذكرتيني! الله يرضى عليك، من لما بعدت عن الرمانة، ورجعت بطريق البيت، ما عدت سمعت شي، بس قلبي كان حاسسني، انو في حدا لاحقني. لكن لما اتطلعت ما لقيت حدا.
- طيب بجوز يا عمي، المرا تدحش فستانها تحت الشنتان بالفلا، ويمكن حدا يشوفها! يا ساتر! قالت وسيلة.

- ما بجوز! قال الحاج عبد الرسول، ولما رأى عبوس زوجته وهي ما زالت واقفة ووجهها باتجاه القبلة، والرضيعة على عاتقها الشمال، عدّل في فتواه قائلاً: "ما بجوز، إلاّ. إلاّ. إلاّ إذا كانت نيتها صافية، وقلبها مطمئن". ولما لم تفك الحاجة سهجنان عبستها، راح الحاج عبد الرسول يفتش في طوايا ذاكرته عن حجة يبتكرها لكي لا يغضب زوجته، وقال في ذات نفسه: "لو اخبرتني حكايتها من قبل، كنا اتفقنا عاشي". فجأة لمعت في رأسه فكرة، أحسها جهنمية فقال: "بعدان ما تنسي يا وسيلة إنو هيدا منام!" ولم تفك الحاجة سهجنان عبستها، فارتبك الحاج عبد الرسول وأسقط في يده، ولم يدرِ ما يفعل أو يقول.

فجأة صدح من جديد صوت الحاجة سهجنان:

- اسم الله عليك وعليها! يجوز وما يجوز! يجوز وكمشة جوز كمان. وينك يا وسيلة، ان شاء الله مفكري الشنتان متل كلاسين اليوم نص شبر ورقّ المنديل أو ورق السيجارة، لا يا حبيبتي، الشنتان، ستان معرق بيوصل للكاحل، وكشكش داير لف فوق الكاحل عالكرعوب. ووينك انت من شنتان التفتا، والموسلين، بحلف يمين عالقرآن، إنو شنتان مبارح بفصل عشرة خمستعشر كلسون من كلاسينكن. عليم بالله كانت

البنت بأيامي، لما تضهر عالحقلة، أو تروح تملي عالعين، ترفع تنورتها وتشكلها تحت الزنار حتى الرايح والجايي يشوف الشنتان، اسم الله عليكي وعالفيزون الشفاف تبعكن، بتكون الوحدة منكن متل المدقة أو الكوساية المقلوبة أو البتنجانة المكعبلة، ولابستلي الفيزون، ومبينة دناكيرها من فوق ومن تحت، وعالجوانب، الله يستر عبنات الناس، بتلاقي الوحدة هالأيام لابسة الفيزون، وبلوزة سكب عالجسم، وأزغر منها بخمس ست قياسات وشامرة عن بنصها اللي متل الشمبريال، وخواصرها مثل القشطلية مشقشطة داير عادار.

- شو قصدك يا مرت عمي؟ أنا ما بلبس بلوزات بادي، والفيزونات تاعولي مش شفافين كتير.
- اي عال. بتعرفي شو بيلبقلك!
- وحياة عينك كل شي بيلبقلي! ثم وقفت وسيلة وخلعت عنها روب النوم وبدت بالتفريعة الزهر الشفافة وبرمت برمتين بفسحة الصالون بين زوجها وعمّها وحماتها، وبما أنّ التفريعة كانت تطال بأطرافها الطويلة سجادة الصالون، بدت وسيلة أطول مما هي عليه فعلاً، وأكملت: "هيدي كنتك يا مرت عمي شوفيها، وين الكباتيل اللي عم تحكي عنهن، وما تنسي اني طالعة من خليفة طازة، بعدني نفسا"

- استغفر الله وأتوب إليه، تستري يا حرمة! قال الحاج عبد الرسول، وهو يشيح بوجهه جانباً مغمض العينين. فيما الفضل، تملَّى زوجته بجوعٍ لا مثيل له، وتمنّى لو ينصرف والداه فوراً، ليستأثر بكنزه الثمين البضِّ، وتمنى، لو أنها، تكشف له عن ساقيها البيضاوين البضتين؛ وكأنما الفضل قد حكَّ فانوس علاء الدين السحري، فلم تكتفي باستعراضها العام، فرفعت أطراف تفريعتها، لتكشف عن ساقيها بخفةٍ صعوداً إلى منتصف فخذيها الناصعين الأملسين الخاليين إلا من الزّغب القليل الخفي الذي تحسُّه راحة الكف ولا تراه العين أبداً.
- اوعك تفتح عيونك يا حاج، كنتك خوتت، خليك داير وجك.
- "روقوها يا جماعة!" قال الفضل بصوت خفيض فيه حيرة الموقف بين أمه وزوجته. "قعدي يا حياتي، وانت يا حجة كمليلنا المنام".
- لا والله ما بكمِّل، ومرتك فايعة هالفوعة! خلِّي بيك، يكمِّل حكايتو لمن وصلو عالرستن بسوريا، بس ليك يا حاج ما تبلغص كتير بالحكي عن مرتو لابن الضنية، اللي حكيتن عنها بزيادة!
- ايه يا عمي! كفيلنا الحكاية! وما تغمق كتير بالوصف عن مرتو لتاع الضنية، متل ما قالت حبيبتي مرت عمي!

قالت وسيلة ذلك وقد لاحت على صفحة وجهها بشائر الانتصار، فلقد حقَّقت هدفين اثنين في وقتٍ واحد: إسكات حماتها، لحدسها بما ترمي إليه الحاجة سهجنان، وهو تسمية الرضيعة سهجنان، على اسمها. والثاني: الاستمتاع برواية الحاج عبد الرسول الأحداث بطريقته المثيرة دائماً.

عندما تنحنح الحاج عبد الرسول ليكمل، بدا أن الحاجة سهجنان قد قرَّرت أن ترد الضرب لكنَّتها، فأعلنت حاجتها للذهاب إلى بيت الخلاء، لما أتاها من الغائط، فأمرت الحاج عبد الرسول بالصمت حتى تعود من استخلائها، واستفراغ أمعائها.

- بأمرك يا حاجة. قال الحاج عبد الرسول.
- بس يا مرت عمي انت سامعة القصة ألف مرّة، شو عليه إذا كمَّل لبين ما تخلصي من أشغالك بالحمام. قالت وسيلة.
- لا لا يا حبيبتي، ما بكمِّل وأنا مش موجودة، وحياتك يا وسيلة سامعة هالقصة ألفين مرة وأكتر، مش ألف مرة، وكل مرَّة بحسّها أوّل مرة. أنا بفوت عالحمّام بقضي حاجتي، وانت، فوتي بعد مني عشغلتك اللي ما بتعرفي غيرها! وأنا، وحياتك مش رح شد السيفون!

وهبّت واقفةً تدفعُ الرضيعة في أحضان الحاج عبد الرسول، وتهرول باتجاه الحمام دون توقُّف. فيما كانت وسيلة تأكل بعضها

بعضاً غيظاً، وقد بات وجهها أحمر كحبة بندورة، فأحست أنها ستنفجر إنْ لم ترد على الإهانة، ولكن الحاجة في المستراح الآن، فلا بأس أن تكيد لحماتها بما يليق، فذرفت دموعاً غزيرة وهي تقول بين الشهقة والشهقة:

- بيرضيك هيك يا فضلو! وانت يا حاج عبد الرسول، بتقبل مرتك تقلي: آكل خرا!
- لا له يا بنتي، ما قصدت هيك، قال الحاج.
- روّقيها يا حياتي، شو هالتفسيرات الغريبة؟ قال الفضل.
- شو بكن انت وياه يا عمي، واضح شو بتقصد، "مش رح شد السيفون" أنا مش فرقانة معي، هي متل أمي، بس هيي عادتها هيك البهدلة. ما حدا بيخلص من شرِّها. هيدا الحاج عبد الرسول، لما بيحكي الناس بتسمع، وحضرتها، مفكٍّرة حالها الملكة اليزابت، بتسكّت عمي الحاج عبد الرسول بكلمة، وبدون خجل قدام الناس، تذكًّر شو صار ببيت الدكتور الجسر ومرتو، لما فنعصت، وتطاولت عالحاج لأنو ما ناولها جمرة للأركيلة، هوي وعم يحكي الحكاية، وتذكًّر..
- خلصنا بقا يا وسيلة! قال الفضل.
- رخيها يا فضلو، معها حق. أنا وقتها زعلت كتير.. قال الحاج.
- وانتِ يا فضلو، استحي عدمك، ولا مرة إلاّ ما بتفشلك قدام الناس، ولك قدامي، أنا مرتك، ما بتوقرك، بعذِّلَّك..

- دخيلك لأ يا حياتي، خلص ببوس إيدك.
- لا ايدي ولا إجري.

ولما أحسَّت الحمام يفتح ثم يغلق، وتناهى إليها صوت رشيش الماء تضخُّه طلمبة المقعدة في المستراح، سكتت وسيلة، فيما دخلت الحاجة سهجنان الصالون مشرقة وهي تقول مخاطبة كنتها وسيلة:

- ما تعذبي حالك يا كنتي، كبست السيفون بالغلط!
- عال عال يا مرت عمي، ارتحنا من الريحة!.
- خلص! صرخ الحاج عبد الرسول بغضب، صلِّ عالنبي يا حجة، جايين نسهر، واللا نعمل حفلة زجل!

حاولت الحاجة سهجنان أن تقول شيئاً، فأسكتها الحاج عبد الرسول بصرخة أرفع من الأولى، ومدَّ إصبعه محذراً: إيَّاك! وأنتِ يا وسيلة يا بنتي، جدِّديلنا الشاي!

- بتؤمر يا عمي! ثم جمعت إبريق الشاي وفناجينه، وهرعت إلى المطبخ، تغمرها سعادةٌ مطلقة، فلقد نجحت في الإيقاع بين حماتها وعمّها.

وبما أنّ الحاجة سهجنان، كانت نجيبةً أريبةً، وكانت تقرأ جيداً بشائر الربح وعلامات الخسارة، وإذْ أدركت أن بيارق الهزيمة سترتفع على أسوار موقفها إن بقيت على إصرارها على إتمام الحديث، أظهرت انعطافة حادة، وغير متوقعة، عندما التفتت إلى الحاج عبد الرسول، وطلبت إليه بلطفٍ بالغٍ:

- كمِّل يا حاج! شو صار مع ابن الضنية والوردان بالرستن؟

في هذه الأثناء كانت وسيلة قد عادت بالشاي المعطّر بالمردقوش وفناجين البورسلان من صنف روميو وجولييت، وأطباق الجوز واللوز والمشمش المجفّف والزبيب، وما أن وضعتها جميعها على طاولة الصالون، ووزَّعت الأطباق المرفقة بحسب توزيع الحاضرين، حتى علّقت موافقةً بخبث، معتقدةً أنها ربحت المعركة:

- اي والله يا عمي، كمِّل! بدنا نعرف شو صار!

وقف الحاج عبد الرسول، وخطا باتجاه الحاجة سهجنان، يضعُ الرضيعة بين ذراعيها، بعد أن طبع على جبينها قبلةً وعلى يديها الصغيرتين قبلتين. أخذت الحاجة سهجنان الرضيعة، وهدهدتها لها من جديد:

يـا بنـتي ويـا بنـتي غاب القمر وين كنتي

ثم مدَّدتها في حضنها والرضيعة تدفع ساقيها في الهواء إلى الأعلى، كمن تريد أن تستزيد جدَّتها تهليلاً لها وتغنيجاً. فراحت الحاجة

سهجنان تواصل تهليلها، محرِّكة ركبتها ذات اليمين وذات اليسار، والرضيعة في مكاغاةٍ تشي بسعادة لن تعرف مثلها أو دونها في حياتها عندما تبلغ أشدَّها، اللهم إلا بضع مرّات، حينما كانت تغيب عن وعيها في حلقات سمر نادرة.

يا اللا يا حاج! كلنا سمع! قال الفضل ووجهه يفيض بأمارات البلاهة والسعادة، فلقد عادت الأمور إلى طبيعتها بين أمه وزوجته التي بات يمنّي نفسه بليلة حافلة معها، بعد انصراف والديه، وكان أكثر ما أثار جنونه ساقا زوجته وهي تضعهما متراكبتين على الأريكة قبالته، ألى جانب أبيه، وقد رفعت من أطراف تفريعتها، فبدا بصيصٌ ساحر يرسله فخذاها، بحسب حركتها، وتمعّكها على الكنبة، فأحسّ بأنّه يذوب كقالب زبدة فوق نار مطّردة. ولكم حمدَ الله ساعتئذٍ، أنه تحلَّل من منامته، واكتفى بتلك الدشداشة الفضفاضة، فلا يفضحه انتفاخ طارئ وسطه، كما هي الحال الآن.

تنحنح الحاج عبد الرسول، والرضا يغمرُ روحه، فلقد شعر بالتفوق بعض الشيء، إذ أسكت سهجنان، وهي انصاعت بدورها، مما لم يعهده فيها مذ رآها أوَّل مرة، وبات أسيرَ رونقها الذي لم يذوِ مرةً بعينيه منذ ذلك الحين قبل أربعة عقود ونيف. وكمن أحب أن يعتذرَ من حبيبته مواربة، توجّه إلى الحاجة سهجنان، بابتسامة ظاهرة وبودّ مفرط:

- لما تأمَّل الشاويش، يا نور العين وزهر البستان يا حجة سهجنان،

بمرت قرايبنا من الضنية، ضوّت عيونو، فمطّ رقبته، وبحلق،
متل الكأنو مش مصدق عيونو، وصرخ بالعسكري:

- قرِّب الفانوس أكتر، وزيح من الدرب ولاه!
- شو اسمك يا خواجة؟
- سعيد!
- ومن وين خيو؟
- من الضنية، طرابلس.
- وانت يا حرمة شو اسمك؟
- فتنة!
- اي والله فتنة ونص، قال الشاويش. وهالخواجة شو بكنلك؟
- جوزي.
- جوزك هاه؟ والتفت إلى سعيد: ولك وين لقيت هالفتنة ولاه؟
- بالضيعة يا سيدنا!
- في من هالبضاعة كتير عندكن ولاه؟

ولـم يترك الشاويش لسعيد فرصة للإجابة، لأنه عاجله بسؤال آخر،
والغدر، كما الشر، يقدحان من عينيه:

- معاك شي يثبت انو هالحرمة مرتك؟

اتسعت عينا سعيد حيرةً وخوفاً، وما عرف كيف يجيب، بل راح
يتلفت برأسه، كمن يبحث عن عون أو ملاذ.

قال الدالول لمن حوله بصوت خفيض: "راحت عليك يا سعدو! يا دلك يا سعدو! يا ويلك يا سعدو!".

كان سعيد وفتنة يقفان بعيدين عن جماعة الرفاق في القافلة بين يدي الشاويش، وهو على صهوة بغلته المطهمة، وعليه ثوبٌ مشمَّع يقيه المطر، وتابعه يرفع الفانوس فوق رأسيْ سعيد وفتنة، والعسكريان الآخران يقفان على جانبي جماعة الرفاق تحت الخروبة الضخمة.

سرت حركة بين الجماعة وحديث هامس، تناهى إلى الشاويش فأزعجه، فعجَّ:

- شو في يا عبدو؟
- سيدنا في واحد بدو يروح لورا الحيط يقضي حاجتو وما معو نص بشليك!
- شو معو؟
- بشليك صحيح!
- خود البشليك، وسجِّلوا اسمو، بيطلعلو فوتتين لورا الحيط، ومعو مهلة للصبح، واللا بروح عليه النص الثاني!
- سيدنا! سيدنا! فيني أنا فوت كمان لورا الحيط، هيك منصير تنين، وأنا بعدان بدفع لصاحبي نص بشليك؟
- لأ! شو بدك تخرا بالدَّين، كل واحد بيدفع عن حالو. بعدين، ما بدي اسمع صوت، أثناء التحقيق، اللي بسمع صوتو بشختو.

- سعدو.
- أمرك سيدو!
- معاك شي بثبّت انو هالحرمة مرتك؟
- كيف يعني سيدو؟
- عجيب! شو كيف يعني؟ شو هيدا، ما بيطلعلي إلاّ حمير؟
- سعدو!
- أمرك سيدو!
- يعني معاك ورقة كتب الكتاب، وامضا القاضي الشرعي عليها، معاك حجّة مختومة بتأكد انو هالحرمة مرتك؟
- اي سيدنا!
- هاتها تاشوف، وكانت الخيبة تأكله وهو يقول ذلك، ثم انفرجت أساريره، عندما سمع سعيد يقول: "هياها بالبيت بصندوق جهازها لفتنة".
- هيك لكن! بالبيت، بالضنية مش هيك؟ اي لأ حبيبي ما بتنفع. بدنا ياها هون. بدنا نتأكد يا حمار!

بدا سعيد على وشك البكاء، ثم انفتق عن فكرة ظنها صلبة:

- سيدنا اسألها!
- شو عم تحكي ولاه؟ ولك شو هالذكا، الله يعدمني ياك! ولك كيف بدي اسألها، ويمكن تكون متضحك عليها، وآخدها خطيفة! يعني معقول تقول لأ. اخرس ولاه.

- عبدو!
- امرك سيدو!
- جرهن قدامك عالمركز!
- حاضر سيدو!

عندما اقترب عبدو ليدفعهم أمامه، توسَّل سعيد، راكعاً على قدميه: سيدنا، الله يخليك: "اسآل الجماعة اللي معنا، في منن من ضيعتنا، وحضروا العرس كمان، اسآل أبو قاسم الدالول، بيعرف بيي وبيها". اقترب أبو قاسم الدالول، فمنعه العسكري الذي على اليمين. فقال بصوتٍ عالٍ منفعلاً بحذر:

وحياتك سيدنا، أنا وبو سعيد، بيو لسعدو، من عزّ الصحاب، اكتر من أربعين سنة، وعندو حسبة بسوق الخضرا بالتبانة، كل ولاد طرابلس بيعرفو، وتلاتربااع اللي معنا بيعرفو بو سعدو القبَّانجي، بعدان الجماعة ما إجو عنقطة انطلاق القافلة وحدن. فتنة إجت معها أمها وبيها، أبوها بو صالح المعمرجي، بقصِّب حجر، تصوينة السرايا بطرابلس قصّبها بو صالح، طلعت فرجة، ببوس شواربك، مشيها عكفالتي، ولو يا افندي! قديش إلك بتعرفني؟ شي مرة كذبت عليك يا بو دعَّاس؟

بدا أن الشاويش بو دعّاس قد لان قليلاً، فأتبعه بو قاسم بموجة أخرى من الاستعطاف، وخطا باتجاهه، فمنعه العسكري، جأرَ الشاويش بودعاس بالعسكري: "اتركو ولاه! قرِّب يا بو قاسم، شو بدك تقول؟". اقترب أبو قاسم من بغلة أبو دعاس وراح يهمس في أذنه:

- "ولو يا بو دعّاس، شو نسيت اني عامل رقبتي درب لإلك، ودينتي عسكري عندك، كم مرة، جيتك بنصاص الليالي، دلّك عالمهربين اللي معي بالقافلة، وكم مرة، سلمتك الطفّار. يا بو دعاس شي مرّة خنتك؟"
- لا والله، خوش إنت آدمي معي، وإلك عليي كتير بس يا خيي القانون..
- ولو يا بو دعاس، ليش سعدو مهرِّب؟ جايب حرمتو عحلب بدو يشتريلها اسوارتين ثلاثة، ويشمو الهوا، صدقني اهليّتن جماعة ماكنين، وشو بدك أنا بدفع، ما تجرسني قدام اهليتن، وقدَّام الجماعة، بكرا ببطّل حدا يمشي معي بالقافلة، وهيك تنيتنا منخسر.
- يا بو قاسم، بس انت عارف الوضع، ما فيني ارجع بكلمتي قدام العسكر.
- يا بو دعَّاس العسكر عليي، هلق، بقبِّض كل واحد ثلاث بشاليك.
- يا بو قاسم، شو هالحكي؟ ثلاثة بثلاثة تسعة؟ وأنا شو بطلع بوش؟
- فشر إنت إلك ثلاث مجيديات!
- وبتسلمني البشاليك إلي، أنا بشوف كيف بدبرهن.
- متل ما بتؤمر!

عندما بدأت فتنة تسعل، وبدأ جسمها كله يهتز، التفت الشاويش بو دعاس، وتملاَّها، وقد لصقت ملابسها بجسمها، بقامتها الممتلئة الرشيقة، أصابه ما يشبه الدوار، فصرخ بالعسكري: قرِّب الفانوس عليهن ولاه!

واقفةً تحت المطر، تتساقط من شعرها الأسود لآلئُ حبيبات المطر، فتلمع وهي تسيل على أنفها البديع الشامخ الأرنبة، وعلى خديها المقبَّبين الجوريين،وشفتيها المكتنزتين، إلى ذقنها المستدقة على شبه استدارة لا تُقاوم، وصولاً إلى عنقها المديد الأبيض. وبجانبها كان سعيد بقامته القليلة، مطرِقَ الرأسِ ذليلاً وضيعاً خائفاً كطائرٍ وقع في مصيدة.

"الله يقطعها! فتنة واسمها عليها، شو هالبظبظة والحشورية، كانت تترك جوزها يروح لحاله عا حلب. هيدا، أنا، ما نطيت عضهروا للحاج، وقلتلو إجري عا اجرك ع حلب!"

- يا حجة ما كنا مجوزين وقتها، هني كانو مجوزين.
- لأ يا مرت عمي، المرا لازم تكون إجرا عإجر جوزا، إلاّ لما يكون رايح عالشغل، بس انتِ ما شاء الله عليك يا مرت عمي حتى عالشغل، اجرك عإجر عمي.
- ليك شو عم تحكي، عمّك ما اشتغل ولا شغلة من لما بلش بالحكايا، اشتغل ثلاث أربع سنين حارس ببلدية طرابلس،

تعب ووقَّف، قبل منها لما كنا بالضنية، أوّل طلعتو، اشتغل بالزراعة، والله، ما كنت اسألوا وينك، تا يرجع عالبيت.

- اي عال، بس ما تنسي انو هلق وين ما بيروح تيحكي حكاية، بتكوني عجنبو وإلك صدر القعدة.
- عال ليش انت شو خايس عليك. ما هياكي قاعدتلو لابني ومفرشخيتلو! زوغلتيلو عقلو! ضبضبي حالك.
- وحدو الله يا جماعة، قال فضلو.
- لا إله إلا الله.
- لا إله إلا الله محمد رسول الله، قالت وسيلة.
- عم تزيدي عليي؛ لا إله إلا الله، محمد رسول الله وكل الأنبيا كمان رسل الله. زيدي انكان فيك تزيدي يا وسيلة بنت أم واكد.
- سمّعيني يا حجة، الله يرضى عليك، وانت يا وسيلة، خلصنا بقا. بتسمعو واللا بسكت. فسكتتا على مضض.
- لأ. دخيلك ما تسكت، خلينا نعرف شو صار يا بيي! قال الفضل.
- فتنة صارت تشتوشة، ضلَّت واقفة تحت الشتي، والشتي زخّ، وما انحنت ولا نخّت، ولا لوت رقبتها، ولا عوجت كتافها، متل الناقة، متل ما قلنا، صحيح كانت عم ترطّ رطّ من الصقعة، وهيدا مش عيب، بحلف يمين، أنو الحيطان كانت عم ترط من البرد؛ البرد مش هين، بس بدو أجسام، سعدو انكعم من البرد

ومن الخوف، لبخو البرد لبخة عجيبة، وطّالو راسو، والخوف هدلو اكتافو، لكن فتنة لأ. صدقوني يا جماعة، أنا قلت وقتها، انو رطّت بدنها، مش رح تمرق عخير، عيون بو دعاس صارت تاكلها، حطو حالكن محلو، لمن شاف صدرها مأرنب، أرنبو دينيه، وأرنب وسطه، اللي كان حدي من العاقورة، قاللي: "ما عش فيي، انتِ شو؟"

- دخيلك ما تقلنا شو قلتللو!
- معليش يا مرت عمي، يقول شو فيها، ما في ولاد زغار، بعدان، كان بعدو شب وما كان حاجج.
- اسم الله عليك كان شب، ليش هلق منشو بيشكي، بعدو شيخ الشباب.
- هيدي ما اختلفنا عليها يا حماتي.
- كمّل يا بيي، وانتو سمعونا، وحاجي نقير ونقار!
- دخيلك أنا! حكي بدري!
- معك حق يا مرت عمي.
- هاي هاي، شو اتفقتو عليي؟
- هيدي الدنيا، النسوان عالرجال. هههه.
- معك حق يا بيي، يا الله ما حدا غريب امي ومرتي، بيمونو، كمّل تانشوف شو صار!

- شو جاوبتو لتاع العاقورة؟
- مش مهم شو جاوبتو يا بنتي، لأنو المهم هلق شو جاوب الشاويش بو دعاس الدالول بو قاسم!

الظاهر لمّا كان الشاويش بو دعاس عم يشاور عقلاتو، وبلش يحط عقل الرحمان براسو، والمجيديات والبشاليك بجيبتو، رجع وصار يمغمغ بالحكي، وعيونو عفتنة، بيَّن متل اللي طاش، لما شافها مبلّلة، وتيابها ملزقة عجسمها. اشتعلت النار بجسمو، فاتطلع بأبو قاسم وقاللو:

- يا بو قاسم القصة صعبة، ما فيني مرقها بدنا شهود، وبدنا وراق، في مسؤولية بالدق.
- يا بو دعاس، أنا شاهد، ونص اللي معي شهود ما بكفو؟
- يا بو قاسم ما تحرجني!
- يا بو دعاس، ولو الشرايط اللي عكتافك مش من ورايي؛ كم مرّة سلمتك المهربين والتهريبات تاعولن، وهني مأمنين عليي؟
- شو باك يا بو قاسم، بلَّشت تمنّني، هول الشرايط من عرق جبيني!
- عراسي يا بو دعاس، والله ما عم منِّن، بس الشي بالشي بينذكر؛ دخلك كم مرة أكلتها فلقة منك قدام المهربين، تاما بيّن انو متواطئ معك؟ طالبتك بشي.

- بس يا بو قاسم، كنا نمدك فلقة تاتضلك صادق قدامن، وما يشكُّو فيك.
- أكلتها كم فلقة وكم كف. بس ما تنسى ضليتك أقوى دالول وريس حملة عالخط. صح؟
- اي والله!
- فإذن اتركني أتصرّف.
- ما فيني. بو سعدو وبو صالح أمنوني، قالولي الولاد برقبتك. والله حاملن فرشة صوف معي، وكمان القصبات، وين ما منحط بنصبلن خيمة، بعدن عرسان. ما تجرسني قدّام أهلنا!
- الهيئة أحوالن منيحة، وبدَّك تمرقها بتسع بشاليك وثلاث مجيديات؟ أعوذ بالله؛ والله النومة حدّها بتسوي عشرين مجيدية وأكتر!
- يا بو دعاس الله يستر عحريمك!
- ما تجيب سيرة حريمي!
- بتؤمر يا بو دعاس، عشرين مجيدية وبلا هالجرسة! كرمال الله، بطلعلك ياها، وهاي ايدي عشواربي. إلك عليي، إذا طلعت قدامي تركية عا قد خاطرك، ومتل ما بدك، بجيبها معي عحسابي، بتركها عندك بالمركز، ولما ارجع عحلب بالمشوار الثاني، برجعها معي عحلب وعحسابي، صلي عالنبي يا بو دعاس!

- شو بدّك بالنبي هلق!
- اللهم صلّ على نبينا محمد، متل ما بدّك يا بو دعاس. الله يستر عحريمك.
- يا أخي ما بقا تجيب سيرة حريمي علسانك.
- عراسي يا بو دعاس.

ويمكن انو بو دعّاس عالقرّ والحكي اللي سمعو من بو قاسم، تفلفل، وصار شي ياخدو وشي يجيبو. بقولو، عذمة بو قاسم، انو بنتو الكبيرة هربت مع ابن الناطور بمعرة النعمان، وبقولو كمان انو مرتو لبو دعاس بيلفي عليها، لما يكون بو دعاس بالخدمة، الرايح والجايي، وما خلّت حدا من شرِّها من رئيس المخفر للمعّاز، وحتى لما يروح بو دعاس عالبيت بالشهر ليلة، رصدوها بتضهر نص الليل من البيت، وبترجع وجّ الضو بحجة انو رايحة تتطل عا امها بالقاطع. وبيقولو انو بو دعاس سامع وقاشع، بس مش قدران يحكي، أم دعاس ازغر منو وفاجرة، وهو بحب اللحسة، بقضيها بالخدمة، يتسلبط عالناس، ويشلِّط عليهن، ويقشطن بشاليك ومجيديات عالطالع والنازل؛ الله يعلم قديش صار معو ذهب وفضة. الله يلعنو ما بيعرف الحرام، انوقعت حرمة تحت ايدو ما بخاف الله!

- اي عشي قليل بنتو راحت خطيفة، ومرتو فلتانة، الله يستر علينا.
- اي والله يا حجة، الله يستر علينا، وبقولو عاذمة بو قاسم،

انو بنتو، تركها اللي خطفها، بعد ثلاث تشهر، وخافت ترجع عابيت أهلها، راحت صوب حلب، وما عاد حدا عرف أرضها وين.

- الله لا يجعلها بديار حدا!
- آمين يا حجة. المهم، انو بو دعاس، التفت لأبو قاسم وقللو: خمس وعشرين مجيدية مش عشرين، وبس ترجع من حلب بتجيب وحدة تركية معك وعحسابك، ولما بترجع من طرابلس عحلب بترجعها معك، إذا كنت خلصت منها، وزهقو منها رجال المنطقة، لأني بدي أجّرها. انتبه يا بو قاسم، رح أكري أوضة حد المركز، وقعدها فيها، الليل إلي، والنهار للبدُّو يزورها ويغيّر عضراسو، مش منشان شي، منشان تطلِّع اكلاتها وشرباتها، وإذا بقي شي، بتكون رزقة من الله!
- الله يلعنو، واطي، ابن دولة وفاتح سوق عمومي؟!
- مش كل ولاد الدولة هيك يا فضلو، هوي هيك، بلا شرف.
- وبعدان يا عمي، ترك سعدو وفتنة؟
- يا ريت، قد مانو قليل أصل، وأفكارو شيطانية، اتطلع بأبو قاسم وقللو:
- طلاع بالخمس وعشرين مجيدية، وما تنسى التركية من حلب، وتا تشوف بو دعاس شو آدمي، رح آخد فتنة عالمركز ونيمها عا تختي.

- لأ. دخل اجريك يا بو دعاس، ما تفضحني، اقتلني واتركها مع جوزها، يستر عحريمك.
- رح أأقتلك إذا بعد بتجيب سيرة حريمي علسانك.
- بأمر بسطارك أنا يا بو دعاس، شو بدك خود واتروك هالحرمة مع جوزها!
- طيب، تا تصدق انِو خيك بو دعاس آدمي، وقصدو شريف، رح آخدهن تنيناتن هي وجوزها ونيمهن عتختي، مبسوط هيك يا بو قاسم، بس التركية ثانياً والخمس وعشرين مجيدية أولاً.
- وأنا بروح معن. ما بتركهن لحالن، هول ولاد، عرسان جداد، اهلن أمّنوني عليهن، ومين أمّنك ما تخونو ولو كنت خوان.
- يبيه يا بو قاسم، بلشنا، بدك تعمل نبي قدامي، ما نحن دافنينو سوا؟ شو هالحكي خوان وما خوّان؟
- تفضل يا بو دعاس يا حبيب قلبي، هيدي ثلاثين مجيدية، وتركهن، وخلّي العسكر هون يراقبونا لوج الضو، والله طلوع الضو منمشي، وإذا بدك منمشي هلق، ويا دار ما دخلك شر.
- اسكووت، وفتح كيسو وحطّ الثلاثين مجيدية اللي اخدهن من بو قاسم بالكيس، وحزمو منيح على وسطو، وجلّس قعدتو عضهر البغلة، وبلَّش يخطب:
- يا جماعة! الدالول شهادتو عندي بألف، بس القانون بضل

قانون، مين فيكن بيشهد انو سعدو وفتنة مجوزين عسنّة الله ورسوله؟

قرَّب اكتر من عشرين ثلاثين شخص وشهدو قدام الشاويش.

- طيب، ماشي، يا جماعة ما تواخذونا، بدي عوِّض عالعرسان، رح آخدهن معي عالمركز، بولعلن كانون، وبنيمن بأوضتي وعتختي استرجو قولو انو الشاويش بو دعاس مش ابن أصل.
- ابن اصل، ابن اصل ونص.
- خلص! شرِّفي يا عروس، قرِّب يا عريس، قرّبت فتنة، ووراها سعدو، وراسو بالأرض، وقدامن مشي بو قاسم، وقبل ما يقفي بالدرب، عيّط بو قاسم:
- قاسم، يا قاسم، انتبه عالحملة بغيابي، وج الضو بكون هون أنا والعرسان.

عندما وصلوا إلى مركز الوردان في حارة المرضعة بالرستن، كان أبو دعاس ما انفك يحاول إقناع أبي قاسم باصطحاب سعدو والعودة إلى حيث تحط الحملة، تحت الخروبة في ساحة الرستن، بادعاء أن المركز كناية عن غرفة واحدة، بالغة الطول، قليلة العرض، وليس فيها قواطع، ثمة سرير واحد في أقصى الغرفة إلى الشرق، بعيداً من النافذة، ينام عليه أبو دعاس أيام الشتاء، وبجواره طاولة مخلخلة بالية، تستخدم لتناول الطعام، أثناء الوجبات العديدة، وتستخدم أيضاً للعب البرجيس معظم الوقت، أما إجراء المعاملات، فلم تكن ضرورية قط، لأن معظمها كان يجري شفهياً على شكل صفقات، صندوقها الوحيد جيب أبي دعاس. أما في حال ضبط "عصابة" تهريب، تنقل قمحاً أو زيتاً أو كازاً أو سوى ذلك من ضرورات الحياة، ولم يكن مع رجال العصابة ما يدفعونه لأبي دعاس، فكان يكتفي بشدِّ أيديهم وأرجلهم إلى شجرة بجوار المركز، ثم يرسل مساعده عبدو إلى مركز المحافظة للتبليغ الشفهي، بعد أن يخفي بعض الأكياس للاتجار بها لاحقاً.

يحدث أحياناً أن يضبط بعض "الفرارية" أي الفارين من الجندية، أو بعض المطلوبين، بمساعدة الدالول أبي قاسم، أو أمثاله، فكان يبتز

هؤلاء الفارين وأولئك المطلوبين أشدَّ الابتزاز، ومَن كان معه ذهب يفتدي نفسه به، أُطلق، بحجة الالتباس في الهوية، أمّا مَنْ لم يكن معهم ما يفتدون أنفسهم به، فكانوا يربطون إلى معلف البغل، ريثما يبلِّغ حاكم سرايا الرستن بالأمر، ليأمر الجندرمة بالتوجه إلى مركز الوردان في حارة المرضعة، وسوقهم مخفورين للمحاكمة، ويكافأ أبو دعاس وصحبه بتنويه شفهي من حاكم السرايا ينقله شاويش الجندرمة إلى أبي دعاس وجهاً لوجه.

غرفة المركز، لا حمام فيها، فقضاء الحاجة يكون عادة في الفلاة التي تقع وراء المركز، لجهة الغرب، وتطل عليها نافذة واحدة، يمدُّ أبو دعاس بجوارها سريره العسكري، القابل للطيِّ، أثناء الصيف فقط، ففي الشتاء، يبعد أبو دعاس سريره من النافذة شرقاً، وإلى أقرب نقطة من الموقد.

تعدَّدت وظائف النافذة الوحيدة في المركز، فهي مصدرُ الضوء الوحيد، وهي مرحاض البول لرجال المركز، إذ يقف الواحد منهم ويمدُّ آلته ويفرغ مبولته، خصوصاً في أيام الحر والقر، وفي الأخص ليلاً. كما كانت قضبان النافذة، الطولية والمتعارضة المصنوعة من حديد صدئ، مشكاةً لأكياس اللبنة، ومجاديل البصل، وإضمامات النعنع التي تترك لتجف، وتضاف إلى الشاي خصوصاً في أيام البرد، فالنعناع دواءٌ ناجع لجميع أنواع المغص. كما كانت النافذة إياها بمثابة

جهاز اتصال بين أبي دعّاس، ومخبريه من غلمان منظمي الحملات، وغيرهم من مخبري الحارة والجوار، حيث يعبرون الفلاة وراء المركز، ويقفون تحت النافذة، فيشدون حبلاً مربوطاً إلى النافذة وينتهي بجرس صغير، إذا سمعه أبو دعاس، أرسل مساعده عبدو، ليستطلع الأمر، وإذا رأى أن القضية محرزة، نزل بنفسه، واستفهمه الأمر، فإذا أرضاه، أعدّ كميناً ملائماً، أو مفاجأة غير سارة كالتي جرت مع حملة أبي قاسم في توقيت سيّء للمترحّلين التعبين الذين أوجعهم السير والبرد والمطر والجوع وقدوم الليل.

لم يرضَ أبو قاسم أن يعود أدراجه وسعدو إلى حيث تحطّ القافلة تحت الخروبة في ساحة الرستن، فصار أبو دعاس يرغي ويزبد، بسبب أو بدون سبب، حتى انتهوا إلى مدخل المركز، حيث عقل أبو دعاس بغلته، ودفع الباب ببسطاره العسكري الضخم، فانفتح على مصراعيه.

- قدّاحتك يا بو قاسم؟
- تفضل يا بو دعّاس!
- ولك شو هيدي قدّاحة فضّة وفتيلتها جديدة وطويلة!
- اي والله، خيط قطانة أصلي، روح القطانة، بيولع من نقرة.
- مش قليلة، مش قليلة يا أبو الخبايا والدخاير أنتِ يا بو قاسم!

لما شعل أبو دعاس الفانوس بغرفة المركز الوحيدة، تأكدلو أنها قداحة أصلية مثل فرد الباربيلو.

- ولك شو هيدا يا بو قاسم، منين جايب حجار القداحة هول؟
- من حلب، من عند اصلانيان الأرمني، الحجر بيقدح بالمي، وما ببورد.
- خود هيدي قداحتي، وأنا رح خلي قداحتك معي، واللا اقلّك، بعطي العتيقة لعبدو، انت شاطر بتدبر حالك.
- مبروك عليك يا بو دعاس، تكرم.
- بس انتبه بدي حجار من عند اصلانيان لإلها.
- ما في داعي يا بو دعّاس، تارسها ترس، فيها خمس حجار، بيخدموك سنتين ونص.
- وإن يكن، جبلك ظرف حجار للاحتياط.
- تكرم يا بو دعاس!
- وانت ولاه! شو قلتلي اسمك؟
- سعدو! يا بو دعاس، سعدو.
- يا بو قاسم شو دخلك انتِ، قعود عاجنب، شو اسمك ولاه؟
- س س سعيد!
- شو قصّتنا حيرتو ربي! سعيد واللا سعدو؟
- سعيد يا بو دعاس، سعدو للدلع والتغنيج.
- يا ابو قاسم لا تتدخل! الله يخليك. يا أما طلاع برّا، أنا عم

اعمل واجباتي، عم إجري تحقيق رسمي، لا تعطِّل الشغل، بدكَّك بالحبس، قصدي تحت الشجرة، بتهمة تعطيل التحقيق.

- جاوب ولاه! شو سعيد وشو سعدو.
- هني هني ذاتن، بالهوية سعيد، وكلن بيعطولي سعدو.
- والنّعم يا غنوج، قوم ولِّع هالكانون، روح عالزاوية هونيك، جيب شوية حطب قرامي، وشوية قشاقيش يابسة حطن من تحت وولِّع.
- العما شو لئيم! شو هيدا يا عمي؟
- شفتي يا وسيلة. ابن كلب مأصَّل. بس ابو قاسم ابن أصول، فزّ متل النمر، كوكش شوية قرامي، وعبطة حشيش يابس، رماهن بالكانون قبل ما يفتح تمو بو دعّاس ويقول:
- يا بو قاسم، عم تتدخل أكثر من اللازم، الأمر مش إلك إلو للدلوع الغنوج.
- حبيبي يا بو دعاس! سعدو جدع وبيعجبك، بس أنا موصى فيه، وأنا خدَّامك، القداحة تانولِّع؟
- روح من عندك أنا بولّع، شو بدك ترجع بهديتك، وتضب القداحة. فشرت.
- بتؤمر يا بو دعاس، انتِ مضِّيلي هالليلة عاخير، وإلك قداحة ثانية مثلها.

- تنين مش وحدة.
- تكرم تنين وثلاثة، بس مضيلي الليلة عاخير.
- وانت قلت ثلاثة ثلاثة، بصيرو أربعة، والله حلّلنا أربعة.

وبلَّش ياكل فتنة بعيونو، ويمرق لسانو عشفافو، انتبه بو قاسم وقاللو:

- مزبوط أربعة، بس بالحلال.
- حلال حلاااال. كلو حلال، مصدق انتِ انو في حرام، هيدا حكي، الحرام اخترعو الضعفا والجبنا، ولك شو ما صحلك خود. بس يصير بايديك بصير حلال.
- وحِّد الله يا بو دعاس!
- ولك إلي عم تقول وحِّد الله؟ شو مفكرني كافر؟!
- له له له، حاشاك يا بو دعّاس.
- ما حدا يجيب سيرة الله هون، اللي بدو يجيب سيرة الله يروح عالجامع. فلقتونا ولووه. هون مركز دولة، وأنا الكل بالكل.
- استغفر الله!

سحب أبو دعاس الغدّارة تاعيتو، لما سمع بو قاسم قال استغفر الله، وقاللو ركاع ولاه، بدي إإقتلك هلق، تا تعرف مين الكل بالكل هون وبرا ووين ما كان.

- ما في غيرك، ما في غيرك!

- ييه شو هيدا، كيف بقول هيك، هيدا كفر!
- لأ يا حجة بو قاسم خبرني، انو قال ما في غيرك وبقلبو قال "يا الله"! الله موجود، بس قالها بقلبو: الله، هبرجت النار، وضوّت الأوضة متل لمبة بألف شمعة، وبينت الاوضة على حقيقتها، مزبلة بكل معنى الكلمة، علب سردين وطون مفتوحة، غيارات الرجال الداخلية منشورة على حبل غسيل، وورا منو تخت بو دعاس، وشو تخت بو دعاس، مسنَّد من قدام بحجرين خفّان، وعليه فرشة منتفة محشية ثياب عتيقة.
- الله لا يشبعو، يشتريلو رطلين صوف وينجد فرشة جديدة!
- غضب من ربك يا حجة، الله يجيرنا! حدّ الكانون في سطل مي مفخوت، مطبوب عتمو بلزق الحيط، وفوقو في بردعة حمار عتيقة.
- لشو هيدا يا بيي؟
- هيدا "عرش" بو دعاس قبال الكانون يا فضلو، وفي سبع ثمان حجار خفّان من الميلات الثلاثة بيقعد عليها العسكرية، وإذا إجاهن حدا يفاوض عتهريبة. والأوضة مشرورة كياس جنفيص، ما حدا بيعرف شو فيها، بتفكّر حالك بمستودع حبوب، بس وينك وين! ريحة القمح بتشق القلب.. بس الريحة هون بتقتل.

- ليش شو بتشكي ريحة العدس والحمص يا حاج؟
- كمان بتردّ الروح، يا حجة، عندك شك؟
- هيدا قصدي يا حاج. ما علينا شو صار بعدان؟

قرَّب بو دعاس من فتنة، وقرَّب بو قاسم ورا، مدّ ايدو مسكها بو قاسم.

- شو باك يا بو قاسم، بدي قعدها عاكرستي حد الكانون.
- الله يبارك فيك! بس سعدو أولى!
- ييه، سعدو، سعدو، خلصنا من ربو يا بو قاسم.
- قوم يا سعدو.
- قعود يا سعدو. ما حدا بقعدها إلاّ أنا.
- تفضل، دلِّها وين بدك ياها تقعد، وهي مش طفلة بتقعد لحالها يا بو دعاس؟
- قلتلك عاكرستي.
- قصدك عالسطل المطبوب أبو بردعة؟
- هيدا سطل؟ كان سطل. ولما قعَّد عليه بو دعاس صار أكبر من سماك يا بو قاسم.
- عراسي والله، عراسي، تعي يا بنتي؛ اخدها بو قاسم بايديها وقعدها عالسطل، وقرّب حجر خفان ووقفو عاسكينو حد السطل. واتطلع بسعدو: "سعدو قوم لحد مرتك".

لم يترك أبو دعاس وسيلةً إلا جرَّبها، بغية إبعاد سعيد عن زوجته، وما ترك كلمة جارحة إلا وجهها إلى أبي قاسم، من أجل إثارته وإحراجه لإخراجه. علّه يستطيع أن يختلي بفتنة، ولو بضع دقائق. وما تم له ذلك، فلقد استمسك أبو قاسم بأقصى ما عنده من طاقة على التحمّل وفي باله ذلك المثل الشعبي الذي عدّه أهل الحصافة نبياً لما ينطوي عليه من دعوة بالغة الإقناع للعاقلين.

ولكم ردّد أبو قاسم في ذات نفسه ذاك المثل تلك الليلة، ألف مرّة! قلْ ألفين. لتكون في محيط الجواب الصحيح. "ليلة يا مكاري" يحفّز أبو قاسم في ترداد المثل نفسه على الصبر، والصبر مرٌّ، كما هو معلوم، ويوافقه من المسميّات الصبر أو الصبّير، لمّا في تجرُّع زوم أوراقه السميكة من مرارةٍ لا تطاق، حتى إذا بلغتَ المثمرَ منه، وقد نضج، أدركت حلاوته ولذاذةً بالغة مرضية. وكذا الصبرُ، مريرٌ كسُبُلِه المريرة، أما عاقبته فأحلى من العسل، ولا بأس في الاستطراد، إلى المرِّ، فالمرُّ اسمٌ من أجود أنواع الغالية، والغالية أرفع أنواع العطور، لا يتلاشى عبقها أبداً، لأنه يتغلغل في مسامّ بَشَرةِ المرء والمرأة، وملابسهما، وأثمن المرِّ ما كان كالصابون في الشكل، صلابة وطراوة، يُحفُّ على الملابس بالمسح الشديد والحكّ النافذ، وكذلك على جسد المرأة وخدنها، وكلما أمررت الماء على الملابس، أو أجريتها على الجسد فاح طيب فاتنٌ وعبق أخّاذ، يتجدَّد مع إمرار الماء يوماً فيوماً، فليس

من العبث وصف الصبر بالمرّ، فالصبر، كالغالية من العطور، نفيس، ولا يقدر على الأخذ بعنانه إلا الأقوياء، كما الغالية لا يقدر عليها إلا الأثرياء، فالثراء كما القوة سلطان لا يقوى عليهما إلا من كان من أهل الاقتدار، وهؤلاء قليلٌ كما الكِرام حسب قول الشاعر.

معلومكن إنو بو قاسم رجّال، بينقالُّو رجّال، مش حيا الله! كنا، أوَّل ضهرتنا من طرابلس، وقلَّطن لصوب تلّ كلخ، وسبقنا الليل عطراف الوعر هيك الناح، اضطرينا نحطّ رحالنا هونيك، بنص الليل، كنا نايمين مثل القتلى، ووعينا عجعير، شي انسي شي جني، قمنا نشوف شو في، ونصنا عم يرجف من الخوف ومن البرد، ونصنا غطّ عاقلبو من الخوف، ضل نايم، أو عمل حالو نايم، ضوّا قاسم، ابن بو قاسم مشعلين كبار، وركض يشوف شو الحكاية، ونحنا ناطرين، وخيفانين، إلا وراجع بو قاسم وبإيدو راس ضبع برقبتو الطويلة وعم يشلي دم، وبإيدو الثانية الساطور. بلشنا نكبّر الله أكبر الله أكبر. قامو اللي غاطط عقلبن، وبلشو يردّدو: الله محيي بو قاسم الله محيي بو قاسم.

- حط راس هالكلب بالموقدة يا قاسم واتدفو عليه.
- هيدا راس ضبع يا بو قاسم قالولو الشباب اللي معنا.
- هيدا كلب يا شباب، لو كان سبع، ما كان هرب لما لحقتو، هوي وعم يسحب كيس اللبنة عن باب الخيمة.
- معقول يا حاج، لحق الضبع، شو الضبع بيهرب؟

- أكيد يا وسيلة، بيهرب من الرجال، وبو قاسم رجال من حق وحقيق. اصبري! هلق بتشوفي شو عمل بأبو دعاس.

لمن قال بو قاسم لسعدو قوم قعود حد مرتك، فنجر عيونو بو دعاس.

- شو يا بو قاسم صاير عم تعزم بالمركز كأنو بيتك!
- العفو يا بو دعاس، عم اعمل الواجب، سعدو حد مرتو، وأنا وأنت حد بعضنا.
- يا خيي أنا ما بدي أقعد حدّك!
- عال! قعود حدّ سعدو!
- أنا ما بقعد حد بسينات، بدي أقعد مطرح ما بدي، بدي أقعد حدّ فتنة، إلي زمان ما قعدت حدّ مرا.
- وحّد الله يا بو دعاس.
- شو باك انت، وحّد الله لوحدك، كم مرّة قلتلك ما تقلي وحّد الله!
- لا إله إلا الله.
- قولها بقلبك. وانت يا حرمة تفضلي عالتخت إجا وقت النوم.

قامت المسكينة فتنة، ومشت ناحية التخت، زاحت الغسيلات المنشورين، واختفت.

- قوم يا سعدو إلحق مرتك، اتسطح حدّها.

- شو باك يا بو قاسم، زدتها كتير، قلتلك ما حدا بيحكي هون غيري، وانت انقلع خليك قاعد هون. سعدو قال! الله يبعدك ويبعدو يا بو قاسم، ما بينام عتختي إلا أنا والنسوان وبس. وإذا بعد بتحكي كلمة ثانية بقوم بنام فوقها عالتخت وبالزلط.
- كبِّر عقلك يا بو دعاس!
- عقلي كبير، أكبر من سماك.
- روِّق يا بو دعاس، خلينا نتعشَّى! شوف شو في معي، قنينة عرق مخمَّس مش متلَّت شغل عين تراز، ما حدا بيحلم فيه إلاّ بالمنام!
- عرق؟ استغفر الله يا حاج. استغفر الله!
- استغفر الله يا حجة. شو قصتك انتِ، شو أنا عم اشرب، عم نحكي شو صار؟
- ما تواخذني، دخيلك، كيف صاير طبعك حدّ، وما بتلقى كلمة!
- لا حول ولا قوة إلا بالله، استرينا يا حجة، وخلينا نحكي الحكاية، أو فضّيلنا هالسهرة، وقومي نروح عا بيتنا.
- ييه يا بيي، محرزة تروحو عابيتكن هلق؟
- ايه يا فضلو! محرزة ونص، أنا ما بعرف نام إلا عم مخدتي وتختي.
- وأنا كمان يا فضلو.

- يا أمي ولو، عقولة المثل: "ليلة يا مكاري".
- مزبوط يا مرت عمي، تخت الواحد اريحلو، بس يعني، ليلة وبتمرق!
- دخيلك انتِ، بتشهيني بتختي، وبتنفريني من تختك، وحياة عينك يا وسيلة، سهجنان ما بتنام عند حدا. بحضن الحاج وبس.
- يا ويلي عليي. شو ما حكيت معك مش مخلصة. خليني سكر بوزي!
- ايه هيك أحسن.
- سمعتو يا جماعة.
- خلصنا يا حجة. جايين نسهر ونهنّي بالزغتورة، واللا بدنا نقضيها ملاطشة؟ اسكتي واتسمعي وبس!
- سكتنا!
- كتير منيح.
- بعدان يا بيي شو صار؟
- اي يا فضلو، لما طلَّع بو قاسم قنينة العرق من الجرابندية، صافية متل قلب النهار بتموز، قاللو بو دعاس:
- هاتها لهون! أنا ما بشرب سك بدون عشا.
- مين قالك بدون عشا يا بو دعاس؟

وقام قرَّب حجرين خفان لبعضن، وضهَّر من الجرابندية كبكوب جبنة بلدية، وكم حبة كبة مقلية، وراسين بصل ابيض شغل كفرفيلا، وراس بندورة أزرق شو انو ملوِّح.

- وهلق! عشا ملوكي واللا لأ؟
- لأ. مش ملوكي، بس ماشي الحال! وين الخبز؟
- هول رغيفين شغل ديَّات أم قاسم عالتنور!
- امري لألله.
- مد ايدك يا سعدو!
- فشر! إذا مدّها، بكسرلو ياها!
- له يا بو دعّاس، نحن ببيتك!
- لأ يا بو قاسم انتو بالمركز، لو كنتو ببيتي، لا سمح الله، كنت بتشوف شو بعمل.
- يا سيدي، اعتبرنا ببيتك.
- لأ. هون في قانون، كل لقمة بياكلها سعدو بدّي مقابيلها بوس فتنة ثلاث بوسات، ومطرح ما بدي!
- استغفر ربك يا بو دعَّاس.
- يا بو قاسم استغفر ربك لحالك أنا وربي بصطفل!
- طيب شراب، كسرتلك أحلى عرقات بها الكيلة.
- كترتلي!

- له يا بو دعّاس، انتِ رجال، بتقول كترتلك.
- يا زلمي، هيدي الكيلة بتغسّل فيها، بشيل فيها مي من الطنجرة وبكبّ عليي. كنت قللي، كنت ناولتك كيلة الشرب، هياها معلقة بسنسالها بمسمار حدّ التخت. تاقوم جيبها.
- ولك قعود وشراب! اللي بدو يسكر ما بعدّ قداح!
- ههههه، بس نحنا عم نشرب بالكيلة هلق!
- ههههه، طيب يا سيدي، ما تعد كيلات!
- بو قاسم، متل ما خبرتكن أخو اختو، صار يلقّم بو دعاس وينخّي عالشرب، وبو دعاس يشرب مثل البغل، وكل شوي يقول أنا قايم عالتخت بدي نام، يشدو بو قاسم نزول، ولما يتملَّص منو، ينط عا سعدو، ويتعبّط فيه، يردّو بو قاسم، بس يكون صابو لسعدو بثلاث أربع بوسات من كعب الدست!
- يييه الله يجيرنا يا حاج شو هيدا؟
- متل ما سمعتي يا حجة! قلنا بلا تعليق!
- لأ. أنا قصدي، شو بيستفيد إذا باسو للصبي.
- شو بعرفني، يمكنلك متل ما قال المثل: "ما فيك للعجل بتتوكّا بامّو".
- اي يمكن، الله يجيرنا.
- الله يجيرنا يا حجة من مقاطعتك، صايرة عندك وظيفة تبوّظي القصة.

- طيب سكرت بوزي يا حاج.
- أحسن!
- أنتِ اسكتي يا وسيلة واهتمي ببوزك!
- يا مرت عمي، أنا قصدي، أحسن عن القصة. الله يسامحك.
- الله يسامح كل إنسان عا حسب نيتو.
- آمين.
- خلصنا يا حياتي!
- يا حياتي هاه يا عيون أمك يا فضلو! لازم تقوم تشمطها كف عهاللطشات تاعولها.
- سامع يا عمي، عم توشّت ابنك عليي.
- فشرتي، شو ابني كلب تا وشتو، عم نبهو يا شاطرة.
- صلِّ عالنبي يا حجة!
- اللهم صلي على سيدنا محمد.
- وانت كمان يا بنتي.
- اللهم صل عالنبي.
- منكمِّل واللا منروح عبيتنا؟
- كمِّل يا بيي! تانشوف آخرتها مع الملعون بو دعاس!

"بدنا نعرف آخرتها مع هالطرمة سعدو". قالت الحجة سهجنان وهي تمعن النظر بابنها سعدو، الذي أشاح بوجهه عن أمه والخجلُ

يأكله من رأسه إلى قدميه، أما وسيلة فنظرت إلى فضلو والغضب يتنزَّل عليه نظراتٍ كالجمر. ولما أدرك الحاج عبد الرسول حساسية الموقف، لم يعد أمامه إلاّ إخراج الأرنب من كمه، لإبهار الحاضرين، متجاهلاً ما يجري بين زوجته وابنه وكنَّته.

وهيك يا جماعة الخير، بقي بو دعاس على فورته، ينطّ بين كيلة عرق والثانية، ويركض كالكلب على أربع بدو يوصل للتخت لعند فتنة، وبو قاسم يسحبو من إجريه، فيلتفّ على عقبيه، ويتعبّط بسعدو، ويندفو بوسة من هون وبوسة من هون، وين ما تصيب شفافو، ويجعِّر مثل المجنون:

- بدي فتفتك! بدي فتفتك يا سعدو.
- اختشي يا بو دعَّاس! مش لايقتلك هالشغلة!

غُبّلك غبّة من هالكيلة!

- هات!

ياخد الكيلة ويكبّ بتمو وعاتيابو، وبو قاسم، يصبّلو من القنينة بدون مي، حتى صار بو دعاس إن وقف يقشط مثل الخيشة الفاضية، وكلما وقع يحبـي ناح التخت، وبو قاسم يسحبو صوبو، وما يطلع بوجو إلاّ سعدو، فيقوم يشبّ عليه.

صدق اللي قال: "أول كاس سبع، تاني كاس ضبع، وتالت كاس كلب". بس نحن عمنحكي عن ست سبع كيلات. بلَّش بو دعاس

ينوص متل الفانوس الخالص زيتو، لاكنو قرَّب من سعدو، وتعبّط فيه، وبلَّش يلحوسو متل البسين، ويمدمد ايديه، ويعضّ عليه برجليه، وبو قاسم، يفكّلو ايد من هون يتعربط باجر من هون، وسعدو متل الغميان لا فعل ولا ردة فعل. وما تكون كسلان يا بو قاسم، اشمطو كف لسعدو عاقد ما بتجيب ايدك.

قوم ولا كلب، وقاف، ودافع عن حالك، يفدح حريشك، معو حق هالعرص بودعاس يفتفتك عالآخر. قوم ولاه! إذا ما بدَّك تدافع عن مرتك دافع عن طيزك!

عندما سمع فضلو هذه العبارة وقعت عينه على عين زوجته التي ابتسمت باحتقار، أما فضلو فأطرق كمن ضُبط متلبساً بشائنة الوطء المحرّم.

بلّش سعدو يسحب حالو، بمساعدة بو قاسم، من بين ايدين واجرين بو دعاس اللي تمسَّك بإجر سعدو ونزل فيها تبئيج، وهو مطفي عالآخر.

- قومي يا فتنة، تعي يا عمي لحدّ الموقدة!

إجت فتنة، ودموعها نبع وطالع عالآخر.

- لا تبكي يا عمي! هيدي بلادنا، وهيدي حالتنا، تنذكر ما تنعاد، قعدي حد ابن عمك مفتفت، اللي صار لقبو من وقتها، وعالطولة فتفت، وانت قوم يا مفتفت، ساعدني، تانحط هالبغل بتختو.

جرَّاه معاً على الأقذار، ثم رفعاه ككيس من الأقذار وألقياه على سريره القذر، وأبو دعَّاس، في عالمٍ من هيولى البؤس، يعول تارةً ويضحك تارةً، ثم يشهق كمن يخرج آخر أنفاسه، ليغيب في صمت عميق، يليه زئير بائس لضارٍ هرم يستحق الرثاء.

- بس يا حاج ما على علمي في حدا من صوبنا لقبو مفتفت!
- والله أنا قلت اللي عندي يا حجة!
- الله يستر عالناس يا جماعة!
- بِلا تسترو ستر هو واللي متلو يا فضلو!
- له له يا حياتي ما بصير هيك، مش هيك يا بيي؟

كل واحد وعندو ظروفو، والله بيعرف بالقلوب! مش هيك يا بيي؟

- مبلى يا ابني مبلى!
- بس يا عمي، يعني معقول يكون في واحد مهبول هلقد، في واحد بدو يدخلو بمرتو، ورجع دقّ فيه، وهو ساكت ولا كلمة، منيح اللي في واحد اسمو بو قاسم لولاه مدري شو كان صار؟
- ولك شو كان بدو يصير يا وسيلة، كان دقِّن عالتخت مع بعضن؟
- وحدي الله يا حجة! شو هالحكي؟

- لا إله إلا الله يا حاج، قصدي...
- بلا قصدك بلا بلوط، مدري منين بتجيك هالأفكار النجسة!
- طيب تفضل يا حاج شوفي أفكار غير هيك عندك؟
- ما عندي أفكار، عندي حكاية عم احكيها متل ما صارت، وكل واحد يفسِّر عازوقو، وبينو وبين نفسو!
- معك حق يا عمي، أنا ملاحظة، انو الناس بتفسّر عازوقها، وبتسرغس عالمكسمول، وبتلاقي الرجال عم يسمعوك متل الكأنن عم يحضرو فيلم رزالة.
- يعني النسوان، ما بيصيبن وحام النومة عالتخت ورافعين اجريهن؟!
- استحي يا فضلو! مش كل النسوان هيك.
- حاضر يا حجة! مش عم بقصد النسوان المتلك يا حجة؟
- يعني قصدك النسوان اللي متلي يا فضلو؟
- حاشاك يا حياتي، لا متلك ولا متل الحجة. كمّل يا بيي شو صار بعدان؟
- اللي صار انو بو قاسم قاللن أنا رح ردّ الباب عليكن، واوقف برَّا. كلو شي كم لقمة، ونشفو تيابكن عالنار، وانت حاجي تبكي يا فتنة، ما صار شي. الحمد لله هيك مش أكتر، وانت يا سعدو، علّي راسك، واهتم بعروستك. وما تخاف، بدو يوم وليلة تايفيق هالبغل. خدو حريتكن.

تركهن بو قاسم، وقعد برا حركة شي ساعة ونص.

- دستور! دستور. فيني فوت؟
- فوت يا بو قاسم!
- ولك انتِ ليش ما عم تحكي يا سعدو، شو باك مبلكم، احكي! عيّط، قول شي!
- رح افقع يا عمي بو قاسم، اعطيني شبريتك بدي اقتلو!
- تركو لأألله، ليش انتِ شبريتك وينها؟
- بصرّة الزوادة، ضبيطها بالغلط لما تروقنا الصبح!
- شو كنت عم تقص فيها بصل وبندورة؟
- لأ. ملست فيها لبنة!
- شبريّة ملس هاه؟ اي خليها للملس، الله يصلحك شو بدك فتّ خبز يا مفتفت، بس نرجع بالسلامة عالضنية منشوف شو منعمل؛ يا الله قومو اتكلو عا الله، خلينا نضهر من الرستن قبل طلوع الضو.. بيكفينا اللي صار هالليلة. ليكي يا فتنة انسي اللي صار الليلة، وانت يا سعدو من هلق وبالرايح، ما فيك تقاتل، فنجر عينيك. هيدا أوّل درس.

لما وصلو عساحة الرستن تحت الخروبة، صرَّخ بو قاسم:

- يا قاسم! يا قاسم!
- أمرك أمر يا بيي!

- نادي عالناس يضبضبو حالن، بدنا نمشي!
- مش لما يطلّ الغرّار؟
- لأ يا قاسم، بعدان مش رح يطلّ الغرّار الدنيا شتا وغيوم. يا عبدو!
- يا الله يا الله، يا بو قاسم، امور!
- مسيك هيدي مجيدتين إلك، وهيدي مجيدتين للجحشين المعك، بو دعاس نايم، شرب وتقّل، بدو لبكرا المغرب تايصحا، انتِ المسؤول، شو فهمت؟
- عا راسي يا بو قاسم!
- يا قاسم، اتفقدلي الكل، ضوي المشاعل انت واخوتك، ما بدي حدا ينسى شي، وما بدي ياك تنسى حدا نايم، وخلي كل واحد يلملم فشك بغلتو أو حمارتو، اللي بيترك ورا فشك بدفعوني خمس بشاليك عرمية كل بغلة. وبتعرف بو دعاس بصير يعد الفشكة رمية كاملة.
- حاضر يا بيي.

أبو نص ساعة كانت القافلة جاهزة!

- كلو جاهز يا بيي!
- في حدا ناقص؟
- ولا حدا!

- ومين هيدا الواقف ورا الحيط، شفلي مين هوي وشو قصتو؟
- هيدا بو مايز يا بيي!
- شو باك يا بو مايز؟
- بدي اقضي حاجتي!
- شو بعدك ناطر لهلق؟
- معدتي فاضية، ومش عم نزّل شي!
- طيب خلينا نتسهَّل!
- بس يا بو قاسم، أوّل ما حطينا، دفعت مجيدية، وبيت الخلا تسعَّر بنص مجيدية، وهو ما معو يردلي، شو بعمل؟
- العما اللي بقلبك! هلق حبكت معك، يا أخرا، يا تعا خود مجيدية مني واصرفنا، بدنا نمشي!
- مش هيك قصدي يا بو قاسم، بس الحق حق!
- يحقّ حقك! قرِّب قدامي، وبلا ولا نفس، والله إن فاق بو دعاس، الله بيعلم شو بيطلع براسو، ولك ما بتشتري حالك وشغلك بنص مجيدية؟ يقطع العثملي ويقطعك!

عبدو! يا عبدو!

- حاضر معلمي!
- قوللو لأبو دعّاس بس يفيق، ينضِّف المركز نتفة، ويشفلو فرشة تخت مثل الناس، رح جبلو تركية بتحيي الموتى. شو فهمت؟

- فهمت معلمي! الله يسهل!
- تسلم يا عبدو، إن شاء الله بجبلك معي رطل تتن بيعجب خاطرك، وانتو يا شباب ما بتكونو إلاّ مبسوطين.
- يطول عمرك يا بو قاسم، يطول عمرك! بحفض الله والنبي!

لم يكن قد انقضى من الليل إلا هزيعه الثالث عندما انطلق أبو قاسم، يغذُّ السير على رأس القافلة، والنار تغلي في جسده حتى أنها أوشكت أن تجفِّف ملابسه، والمطر ما انفكّ يهطل بغزارة.

لم يكن في بال أبي قاسم غير الوصول إلى حلب، وقد أقسمَ في ذات قلبه، أن يعود بتركيةٍ تقصف عمر بودعاس، لعظمَة الغيظ الذي خلَّفه في صدره هذه الليلة، فأبو دعّاس لم يكتف بأن جزَّ من المال فوق ما يحصله في ستة أشهر، بل تعدّى ذلك ليجرح أبا قاسم في صميم كرامته، وهو يسعى ليحفظ كرامة من استؤمن عليهما: سعيد وفتنة.

كان الغيظ يمنعه من النوم، ومن الأكل، ومن الكلام. فاكتفى بالسير على رأس القافلة، تخنقه الهواجس، وتدفعه رغبةٌ عارمة في الانتقام، ولو أنّ الله سبحانه، قدَّر ووفَّق أبا قاسم بتحقيق ما بباله لبات أسعد الناس، وكلما خمَّن بإمكان العثور على المرأة التي يريد، كان يقوى على السير والسهر والجوع والبرد. وما أحدٌ كان يدري ما الذي يجول في باله، حتى ساعده الأيمن ابنه البكر قاسم.

وقاسم صورة شابةٌ عن أبيه، طلعة وطلّة وقامة وقوة وشهامة، وقد

أوجس في نباهته قلق أبيه، فقلق هو أيضاً، وما أراد أن يشغل أباه عن قلقه وتفكّره، فمضى يقود الحملة كأنه أبوه نفسه، وقد أفاده جداً استغراقه في أبيه حباً وإعجاباً، فباتَ يأتي كل فعل على مشيئة أبيه ورغبته وإرادته دون أن ينبس أبو قاسم ببنت شفة. ما أتاح لأبي قاسم التفرُّغ الواسع لما هو ماضٍ إليه.

قرابة ثلاثين عاماً، وأبو قاسم ينظِّم الحملات والرحلات إلى حلب، يعدُ فيفي، يحدّد المواقيت وفق نظام لا يخطئ، عرف رجال الوردان واحداً واحداً، وقد طوَّعهم جميعاً، لم يكن يتعامل مع المهربين الأشرار، وما كان يكذب أو يخادع، فوقّروه، ويسروا أموره، أكرمهم فوق ما يستحقون، فأكرموه بأنهم لم يفرضوا عليه إتاوةً فوق ما يستطيع، آمنوا بصدقه وشهامته، فتركوه يقرِّر، وكانوا دائماً ممتنين، لما يمنحهم إياه من هدايا، وما يزجيه إليهم من خدمات مختلفة، فمن نقل الرسائل، إلى نقل ذويهم بين البلاد من طرابلس إلى حلب، ولطالما أحضر لهم من الحاجات ما يطلبونه، ويأبى أن يتقاضى على ذلك أجراً أو ثمناً بدل ما أنفق. كان أبو قاسم رجلاً كريماً وصادقاً فأكرموه وصدقوه. أبو دعاس وحده، كان من طينة خسيسة، آلمه دائماً أن يكون تحت الشمس رجل بخسَّة أبي دعاس ودناءته وانعدام شرفه.

والشرف عند أمثال أبي قاسم رأسمال لا يُفرَّط فيه، وكل عيب هين إلا أن يكون المرء منعدم الشرف، وهذا أكثر ما كان يؤلم الدليل الطرابلسي أبا قاسم.

عندما وصلت القافلة إلى ساحة حلب، لم يكن هم أبي قاسم إلاّ الوصول إلى خلّة صديقه الحلبي محيي الدين الحسون، الذي أباح له النزول بها مع قافلته، دون مقابل، وهي خَلَّةٌ قريبة من ساحة حلب وأسواقها المختلفة، وكان إذا نزلت القافلة في الخلة، نزل أبو قاسم في دارة الأفندي محيي الدين الحسون، وينزل معه مَنْ شاء من رفاق القافلة.

توجَّه أبو قاسم إلى دارة صديقه الأفندي وبرفقته سعدو وفتنة، وأحمالٌ من الهدايا المختلفة: فواكه مجففة، تفاح، برتقال، شاي، بن، سكاكين من صنع جزين، زيت زيتون صرف، لبنة مكبكبة وغير ذلك كثير.

اختلى أبو قاسم ساعة وصوله بالأفندي، فأصدر هذا الأخير أوامره للخدم بتجهيز غرفة للعروسين، وأمر حريمه بالاهتمام بالعروس، وأولاده بالاهتمام بالعريس، ثم خرجا معاً دون أن يعرف أحد وجهتهما.

واستمرا على ذلك، خروجاً في الصباح الباكر، وعوداً في أوَّل الغروب، يجلسان في خلوة، ويستقبلان رجالاً مريبين ترافقهم نساءٌ ذوات ريبةٍ ظاهرة.

واستمرّ ذلك دأبهما أسبوعاً كاملاً، سبعة أيامٍ بلياليها السبع، حتى إذا أدرك الإحباط لهاة الصبر في أبي قاسم، واسودَّت الحياة كلّها تحت عينيه، أبدى للأفندي محيي الدين الحسون انكساره وفشله في تحقيق

مبتغاه. ضحك الأفندي طويلاً، وطيَّب خاطر أبي قاسم، مؤكداً له أن الله الذي خلق الدنيا في سبعة أيام، لا ينبغي لأولاد الدنيا أن يخنقهم اليأس إلا بعد سبعين يوماً وليلة. فضحكا معاً ضحكاً مجلجلاً، وعادت البسمة تطفح على وجه أبي قاسم، وفاض البشرُ في مجلسهما كبركة فضة.

لم يكن أحدٌ يعلم مراد أبي قاسم إلا اثنان سواه: الله والأفندي. وبدا أن الأفندي أحرص على تحقيق مراد أبي قاسم منه، فلقد جنَّد رجاله جميعاً، بحثاً عن امرأة ذات مواصفات محدّدة واسمٍ محددٍ، وكان واضحاً في ذهن الأفندي وأبي قاسم أنّ المرأة التي يبحثان عنها لا يعرفها أحدٌ باسمها الحقيقي، فليس من العادة أن تحتفظ بنات الهوى بأسمائهن الحقيقية. كما أنّ المرأة التي يبحث عنها أبو قاسم مجهولة القسمات بالنسبة إليه، فهو لم يرها مرّة. كل ما يسعى وراءه هو صبية دون العشرين من العمر، ومنشأها البادية المحاذية للرستن لجهة الشرق. فهو إذن يبحث عن امرأة على أبواب العشرين بلهجة بدوية، وذلك كان المعطى الوحيد بين يديه.

كان البحث شاقاً لكنه كان مجزياً في النهاية، فبعد أن قطع أبو قاسم الأمل أو كاد، جاءه آخر ميقات العشاء الثانية، أحد رجال الأفندي، ناقلاً إليه خبراً عن امرأة دون العشرين، ذات لهجة بدوية، يختلي بها الرجال في أركان دكاكينهم المعتمة، في سوق الحبوب.

بعث هذا الخبر الأمل في نفس أبي قاسم، فلم ينتظر الصباح، بل انتعل حذاءه، وشدَّ حطَّته المرقّطة بالعقال الأسود، طالباً من الرجل أن يقوده إليها، إلاّ أنَّ الرجل تردَّد في المسير، فظن أبو قاسم، أنه يريد الإذن من الأفندي، فمضى إليه يستأذنه السماح لتابعه بالسير معه للوصول إلى تلك المرأة.

بدا السرور على وجه الأفندي، فهبَّ ينتعل حذاءه هو أيضاً ويشدّ حطّته بالعقال لمرافقتهما، وظلّ الرجل على تردده. ولما استفهماه أعلمهما بأنَّه لا يعرف مسكنها، لكنهما، إذا نزلا سوق الحبوب غداً عايناها عن كثب، فهي لا تفتأ تتنقل في السوق كما فهم من قريبٍ له يعمل حمَّالاً في السوق.

ليلة طويلةٌ مرَّت على أبي قاسم، أطول من تلك الليلة في مركز الوردان عندما كان أبو دعَّاس يفتفت سعدو، وأعصاب أبي قاسم. ليلة طويلة لم يغمض فيها جفن لأبي قاسم، بل ظلَّ يروح ويجيء على الشرفة في دارة الأفندي، ولما تناهى إلى سمعه صوت المؤذن، وكاد يسبقه إلى باب الغرفة التي ينام فيها الأفندي، فرآه مستعداً، فالأفندي نفسه لم يغمض له جفن، نادى الأفندي الرجل الذي جاءه بخبر المرأة، ومضيا بخطىً حثيثة، حتى إذا انعطفا بجوار المسجد، ولجوه، وأسبغ أبو قاسم وضوءه، ما لم يكن يفعلها قط من قبل، حتى إذا قنت في الركعة الثانية، استقام سمته، ودعا دعاء مضطر، كما أطال في السجدة

الأخيرة كثيراً، ولما استقرَّ جالساً للشهادة بدت عيناه حمراوين، ولا يُدرى أمن غضبٍ هي كذلك أم من بكاء خفيّ.

عندما حثوا الخطى، كان مرشدهما يتقدمهما بفانوسه على الدرب التَّربة، وأبو قاسم والأفندي، يعجلان دون كلام، والله وحده يعلم ما الذي تنطوي عليه نفس كل منهما، إلاّ أنَّ حقيقة الأمر، أن الأفندي لشدة وفائه ومودّته لأبي قاسم، لا يطلب من الله إلا أن يجدَ صديقُه مراده. فلقد طالت إقامته في حلب، وقد ضجَّ رفاق القافلة من الإقامة الطويلة غير المسوَّغة، عشرة أيام طوال، لمن أنهى عمله في حلب، وابتاع حاجاته، وتفتَّحت حبَّة القلب إلى الديار، إلى طرابلس الفيحاء، وقراها التي تطال السماء، وجرودها التي تنتظر العائدين.

وما إن بلغوا السوق، ولاحت تحت أعينهم المخازن الحجرية الملأى بالحبوب على اختلافها: قمح، شعير، عدس، حمص، كرسنة وأرز غير مقشور. وفاحت روائح الرزق المشمَّس جيداً والمعروض في أكياس عملاقة من الجنفيص، وأمام كل مخزن قبَّان ضخم، فسوق حلب للحبوب سوقٌ ضخمة مسقوفة. هنا البيع بالقبان، مال القبان هو كل ما يباع، يشتري الشارون بالقنطار، ويبيعون بالرطل والرطلين.

لم تعد للفانوس حاجة، فقد لاحت بوادر الفجر، وسُمعت سمفونيةٌ رائعة للطيور والحمام الذي لم يكن يحتاج إلى الطيران، بل تراها زرافاتٍ ووحداناً تحجل على أرضية السوق تأخذ حقها من هذا الرزق

الوفير، وقلما رأيت مخزناً لا يضع أمام بابه صفيحة ماءٍ طافحة، تنهل منها الطيور والعصافير إذا اكتفت وليس مَن يذبُّها، بل هي نفسها تشعر بالأمان في هذه السوق، فلا تخيفها أيدي الرجال وهم يزنون القناطير المقنطرة للشارين، فتراها تبعد قفزاً، ريثما يغمس البائع مكتل الغرْف، فإذا مال ليصبّ ما اغترفه في أكياس الشارين، عادت إلى حيث كانت تنقد فرحةً دون وجل. وفي السوق سبل ماءٍ عديدة تزيد على العشرين، ينهل منها السابلة للوضوء وللإرتواء، وكذلك القبانجية والعاملون والمتابعون.

كان الصباح قد صفا، عندما قادهما الرجل المخبر إلى مخزن في منتصف السوق لصاحبه الحاج عبد السميع. وكان بينه وبين الأفندي معرفةٌ قديمة، فرحَّب بهما، بودٍّ شديد، ثم أمر بالشاي المعطَّر بالياسمين المجفَّف، فشربوا وتبادلوا الموَدّات المعروفة عن أبناء السوق، قبل الدخول في الصفقات اللازمة. ولما أدرك الحاج عبد السميع غرضهما اغبَّر وتغيَّر عليهما، متنصِّلاً من قصة البنت ومرورها بمخزنه.

- ولو يا أفندي، أنا حاجج بيت الله الحرام سبع مرات، بينقال لي هالكلام؟
- حاشاك يا حاج عبد السميع؟ ما حدا قال عنك شي، هيدي بنت فلتانة، بعيدن عنك، وبتمرق عالكل، ونحن عم نسأل عنها مش اكتر، من جاب سيرتك بالعاطل؟ ولو شو نحن ما منعرفك.

وراح الأفندي يطيب خاطره، حتى لان واستأنس بما يسمع من حاجة أبي قاسم للوصول إليها لأنها طلبةُ رجل خطير في الرستن، وقد وعدوه بإحضارها.

- يا أفندي المخزن مخزنك، قعود هون لعشية ولما تجي أهلا وسهلا!
- بس نحن ما معنا وقت، إذا بتعرف وين ساكنة، دلّنا عليها، ونحن لك من الشاكرين.
- ولو يا أخ.
- أبو قاسم دالول الرحلة بين طرابلس وحلب.
- عراسي انت واياه يا أفندي، بس هالكلام بيعني مثل الكأني رايح جايي لعندها وأنا والله، بحن عليها، بتكنسلي المخزن، بالجمعة مرة أو مرتين، حسب!
- بارك الله فيك.
- اي والله بتحنَّن عليها، ما إلها حدا.
- الله يبارك فيك ويديمك يا حاج. بس دلنا وين بيتها.
- يا افندي، هلق إذا بدلك عابيتها، بتقول بينك وبين حالك، انو الحاج عبد السميع رايح جايي لعندها. وأنا والله والله، والله بيشهد عاكل كلمة بقولها، كل نهار جمعة، بمرق من حد اوضتها بآخر السوق، بناولها اللي في النصيب، وشوية حبوب، وبقولو الصدقة منيحة يوم الجمعة مثل ما انت بتعرف.

- أكيد أكيد. حد وين بآخر السوق؟
- ما تفهمني غلط يا أفندي إذا بقلك وين؟
- ولو يا حاج!
- طيب، هون حفرنا وهو طمينا؟
- اي يا حاج، هون حفرنا وهو طمينا.
- بتعرف البايكة تاعيتي، بآخر آخر السوق عا يمينك؟
- اكيد بعرفها، مين ما بيعرف أكبر بايكة بالسوق، للحاج عبد السميع وأولاده.
- الله يخليك، الملك لله، بقفا البايكة في اوضة ومنتفعاتها، هونيك بتلاقيها.
- مش على علمي في هونيك اوضة يا حاج.
- مزبوط، ما كان في اوضة، أنا والله سنة الماضية متل هالأيام، اجت هالفقيرة لعندي، عم تستعطي، شفقت عليها، وساويتلها هالأوضة قربةً إلى الله تعالى، ما في شي عند ربك بضيع يا افندي.
- الله يبارك فيك، يا اللا تنقوم نتيسر عبكير قبل ما تسرح.
- اليوم شو يا افندي؟ التنين مش هيك؟
- اي التنين.
- لأ ما بتسرح اليوم.

- شو عرَّفك يا حاج؟
- لأ. هيك بعتقد.
- خير يا حاج، منشوفك بعافية.
- رجعو خبروني شو بيصير معكن!
- بتؤمر.

عندما غادر الأفندي وأبو قاسم ومخبرهما، راح الحاج عبد السميع يصرخ في عمّاله، واستدعاهم واحداً واحداً ليعرف من أين عرف الأفندي بتردّد فريزة إليه، فلم يسمع جواباً شافياً، فالكلّ تنصَّل من القضية، مما جعله في حالة من الهستيريا، متوعداً كل واحد منهم بأنه سيقطع رزق وعنق من سرَّب هذا الخبر حالما يعرفه، لأنه ببساطة، يعني إفشاء أسرار المصلحة. ومن نعم الله العظيمة، أن الحاج عبد السميع لم يكن يعرف المخبر الذي رافق الأفندي، وما كان ليعلم مَنْ مِن الحمالين عنده يمتُّ بقرابة إلى هذا المخبر.

- عمَّرلها أوضة قربةً إلى الله تعالى قال!
- مبلى! قربةً إلى ما بين فخذيه، أنت الصادق يا أفندي!

ضحك الاثنان ضحكات متواصلة مجلجلة، وهما في الطريق، والمخبر أمامهما، مخترقين السوق إلى آخره، وصولاً إلى بايكة الحاج عبد السميع القبَّانجي وأولاده. وهي بايكة ضخمة تمتد على مساحة

دونمين من الأرض، مسقوفةٌ بالكامل، واجهتها للغرب، بارتفاع ستة أمتار، لا تخلو من المحاصيل الوفيرة التي تساوي وزنها ذهباً.

عندما وصل الأفندي ورفيقه أبو قاسم ومعهما مخبرهما، لم يجدوا في البايكة إلاّ الحارس القابع على حجر في ظل شجرة بلوط ضخمة.

انتصب الحارس مرحباً بهم، مختصاً بالعناق ابن خالته مخبر الأفندي.

- وين الشغيلة يا سمعو؟ مش شايف غيرك هون.
- والله، يا ابن خالتي، إجا مرسال من الحاج، بدو الكلّ عندو بمحل مال القبان. الظاهر في شي مهم.
- أكيد في شي مهم، بدو يعرف من دلّنا عا فريزة!
- عندن حق يا ابو قاسم.
- دخل اجريك يا ابن خالتي، اوعك تكونو زمتطو شي كلمة أو لمحتو عليي!
- ولو يا سمعو، ابن خالتك ما بيرهي فيك. عبد الحسين ما بفلّت حكي، بعدان ما حدا بيعرفك انك ابن خالة بيي.
- ان شاء الله.

اقترب أبو قاسم من الحارس سمعو ودس في جيبه خمس مجيديات.

- هول للعيلة.
- الله يا طول عمرك.

ثم مضى أمامهما، على امتداد البايكة وصولاً إلى غرفة وضيعة مستقرّة بين أشجار التوت.

- هيدي الأوضة! الحاج عبد السميع القبانجي، وصَّلّي مرسال انو وصلكن للباب، وارجع لمحلي، خدو راحتكن.

عندما قرع الأفندي الباب، سمع الجميع صوتاً حريمياً حاداً يسأل:

- مين؟

- مِن قِبَل الحاج عبد السميع، افتحي يا حرمة!

- الحاج قاللي ما افتح لحدا.

- افتحي يا حرمة!

- ما بفتح إلا للحاج أو لسمعو. وينو سمعو؟

- روح يا عبد الحسين عيط لسمعو!

عاد سمعو مع عبد الحسين بعد دقائق.

- افتحي يا فريزة! الحاج بعتهن!

وانشق الباب على صرير مزعج، وأطلّت صبيةٌ ذات رأس كبير، وشعر أسود كثيف شديد التجعّد، لها أنفٌ ضخم أقرب ما يكون إلى أنف ذئب تحت عينين زرقاوين، ضيقتين، توحيان بالحذر البالغ، ليس في تقاسيم وجهها ما يدل على أنها من بنات الترك، فوجهها أدنى إلى وجوه بنات البادية، وسمرته شديدة، ومسامّ البشرة شديدة الجفاف، أما عن طولها فهو ما يُهاب في النساء، والذي لا يمعن تأملاً في وجهها،

ورآها عن بعد، لجزم بأنها امرأة قد داست رقبة الأربعين، وهي بعد لم تلامس عتبة العشرين، كما سيتأكد لاحقاً أبو قاسم.

- تفضلوا، ايش تريدون؟
- هيدا عمك بو قاسم، من طرابلس، دالول أكبر حملة بين طرابلس وحلب.
- تشرفنا! شو بتؤمر يا عم؟
- والله يا بنت الناس بدي خادمة بالرحلة، تطبخلي وتغسلي تيابي، ومعي ولادي! يعني بدي وحدة متل حكايتك تتدولش علينا!
- شوف غيري!

وتراجعت إلى الداخل المعتم، واستعدت لإغلاق الباب، عندما وضع أبو قاسم رجله بين المصراعين، وفي وجهه ملامح من أصرَّ على ألاّ تفلت منه الطريدة التي حلم بها منذ مغادرته الرستن.

- يا بنت الناس، روقي شوي. أنا بدفع منيح عالمشوار، بس نوصل عطرابلس بتقبضي عشرين مجيدية. وبدك سلف، بدفع.
- عشرين، ثلاثين، ما بتفرق معي. بدي اسأل الحاج عبد السميع!
- الحاج موافق، كل المسألة شهر زمان، وبترجعي، وأنا بكون دبرت حالي بطرابلس، وبرجعك وبعطيك عشرين مجيدية تانية، شو قلتي يا بنت الناس؟
- شهر بس؟

- شهرين بالكتير!
- ليك يا عم، الكلام بسرّك، الحاج عبد السميع، وعدني، يتجوزني عبواب الصيف، بس ما بدو حدا يعرف، وعدني ياخدلي بيت صوب باب الهوا وأنا تحت نصيبي، شو بيعملولي الأربعين أو الستين مجيدية، إذا فلت الحاج عبد السميع من ايدي؟
- كبري عقلك يا بنت الناس: الحاج مجوز أربعة، ما في يتجوز خمسة!
- قاللي انو مرتو الأولانية مريضة وموِّيتة!
- حيّ ما بينطر حيّ يا بنت الناس!
- ما بعرف! بدي اسأل الحاج عبد السميع، وشوف شو بقللي!
- خليكي هون، رح ناخد إذنو ونرجع لعندك.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة صباحاً، عندما عاد الأفندي وأبو قاسم أدراجهما إلى مال قبان الحاج عبد السميع وسط سوق الحبوب، وتركا المخبر مع ابن خالة أبيه سمعو، ليراقب الموقف عن كثب.

في طريق العودة بدا الانشراح على وجه أبي قاسم، فراح يحثّ الخطى، ويدندن بصوته الحنون:

"يا رايحين عا حلب — حبي معاكن راح
يا محملين العنب — تحت العنب تفاح"

- شو يا بو قاسم! فرفحت؟

- اي والله يا افندي! عطيني رووس شواربك، بدي بوسن، هيدي هيي اللي بدي ياها، هيدي هيي، ولك حدا بيلاقي ضايع بحلب، روح الله يطول بعمرك، بدي اعطي عبد الحسين عشرين مجيدية.
- لا.. لا.. لا.. هيدي عليي يا بو قاسم.

ما إن أطلاّ على مال القبان العائد للحاج عبد السميع وأولاده حتى وجدا الحاج يهمّ بالخروج.

- شو يا افندي؟ لقيتوها.
- لقيناها!
- وبعدين؟
- بو قاسم بدو ياها ترافقو عاطرابلس مشوار الطريق، أبو شهر زمان، وبترجع لعندك صاغ سليم.

في هذه الأثناء، وقبل أن ينبس الحاج عبد السميع بحرف، اقترب شاب ثلاثيني مهيوب بقنبازه المخطَّط والساكية الافرنجية، والطربوش المصري الأحمر بشرَّابته التي تلوح كلما التفت، بالغ النشاط، حليق الذقن ذو شاربين ناعمين معقوفين، تقدم من الأفندي وابي قاسم، سلَّم عليهما بحرارة،

- يسعدلي صباحك يا افندي
- يسعدلي هالوج، كيفك يا عبد الرزاق؟

والتفت إلى ابي قاسم: هيدا حبيب القلب عبد الرزاق ابن الحاج عبد السميع وكبير أولاده، وهيدا صديقي ابو قاسم الدالول، وصاحب الحملات المشهورة بين طرابلس وحلب، خيي وأعز من خيي.

– تشرفنا والله يا بو قاسم، منيح اللي تعرفنا عليك، سامع عنك وعن شرفك. عندي كم غرض بدي وصيك عليهن.

– عراسي والله، شو بتؤمر أنا بخاطرك.

– الله يسلم خاطرك.

– تفضلو، تفضلو. جيب شاي بالزنجبيل يا ولد، وواحد بلا زنجبيل للوالد. الزنجبيل حامي.

– ليش الزنجبيل ما بيسوالي يا عبد الرزاق؟

– لأ يا بيي بيسوالك، بس كلما كيَّلت شاي بالزنجبيل والمحلب، بتقضي الليل بالأوضة اللي ورا البايكة.

– اسكت يا صبي!

– يا بيي، يا حبيبي، منشانك ومنشان سمعتك وصحتك.

أطرق الحاج عبد السميع والغضب بادٍ عليه، فانتهزها ابو قاسم بخبرته الواسعة بطباع الناس، وضرب الحديد حامياً كما يُقال.

– يا حاج، هالبنت بدي ياها بطريق الرجعة عطرابلس، ومعلومك انو هيدي بنت بدو، بتحمل دعك، وانا بدي ياها تدولش عليي وعاولادي.

- تتدولش عليك وعولادك يا بو قاسم؟ هيدا حكي؟ البلد مليان تركيات نقيلك وحدي، وتركها لهالبنت.
- شو القصة يا بيي؟
- ما إلك خصّة.
- في عندكن هالخادمة اللي بيَّك بنالها اوضة ورا البايكة، بدي ياها مشوار الطريق عطرابلس، الخادمة اللي كانت معنا، تركتنا بالرستن، كسرت اجرها، وضلت عند قرايبها هونيك، دقنا زوم المر انا وولادي، ويلك تدير بالك عالحملة، ويلك تطبخ، وويلك تغسل، وشو بدي قلك. لما اوصل عطرابلس الله بيفرجها. ويمكن، نوصل عالرستن وتكون الخادمة تاعتنا نشنشت نتفي، بأمنلو ياها للحاج عبد السميع من هالعين قبل هالعين.
- اي، تكرم عينيك يا بو قاسم، شو قلت يا بيي؟
- شو قلت هاه؟ القول قولك.
- بسيطة يا حاج عبد السميع، المثل بقول طلعت دقن ابنك بلّ دقنك واحلقها!
- عندك حق يا افندي، بس ابني حالق دقنو وعم يبللي دقني قدام الناس.
- لاه لاه لاه يا حاج، عبد الرزاق بيلبقلو، وانتِ بتشوف حالك فيه. يا اللا شو قلت؟ لا تكسفنا، ولا تكسف بو قاسم.

- يعني ربّطوني. شو بدي قول.. الله لا يسامح اللي كان السبب!
- روقها يا حاج. هات وصيني شو بجبلك معي من طرابلس، شهر زمان، وبالكتير شهرين، بتلاقيني قدامك، وانت يا عبد الرزاق، اعملي لايحة بالبدّك ياه من أصغر شغلة لأكبر شغلة.
- الله يديميك يا بو قاسم، يا اللا، شربو الشاي لبين ما ابعت جيب هالمرا، شو اسمها يا بيي؟
- فريزة! الله يفرجها عليي! شو هالنهار هيدا، ابني بيقضي وبيؤمر وأنا عم اتسمع!
- البركة فيك يا حاج، شو انت وشو ابنك؟
- مش هيك يا افندي! بس في أصول!
- طيب تفضّل واؤمر، ونحنا كلنا سمع.
- عيطلي لشغيلة البايكة يا عبد الرزاق، خليهن يرجعو عشغلن بالبايكة، وقللن يوم اللي بعرف مين الفتح هالباب عليي، بدي قص رقبتو، وافتح عليه بواب جهنم. وخليهن يقولو لمقصوفة الديني فريزة تضبضب كواكيشها، تا تروح مع بو قاسم، وأملي بالله، تكون خادمتو صارت متل النعامة لما يوصل عالرستن بخير، ويردّلي فريزة عجنح الطير.
- عراسي والله عراسي، ولا يهمك، وحياتك عالرستن وبعد منها فشخة لأ!

عندما مشى الأفندي وعبد الرزاق بعيداً من الحاج وأبي قاسم، نظر الحاج عبد السميع إلى وجه أبي قاسم، والحزن بادٍ عليه كأنه طفل فقد أثمن ما لديه وبدا أنه يتوسل إليه.

- يا بو قاسم! ما بدي منك شي! بدي تدير بالك عافريزه، وإذا فيك تتركلي ياها وبعطيك مية مجيدية بكون ممنونك، أنا عاقد عليها يا بو قاسم، ردتلي حياتي وشبابي.
- يا حاج، مش عيب تحكيني بالمال! ولو! بعدان من جهتي ما يكنلك فكر، الله كافيني، ما بمدّ ايدي عليها. بس يا حاج قالولي انو في أربع نسوان بذمتك. إلك حق تعقد عليها؟
- يا خيي، شو انت شيخ، الشيخ عطيتو خمسين مجيدية، ضل يبحش بالكتب لالقالي فتوى، هياها عندي مكتوبة، بخط ايدو.

وأخرج من جيب قنبازه الداخلي حجة، ناولها إلى أبي قاسم فقرأ فيها التالي:

"لما كان الحاج الكريم والوجيه وشيخ مشايخ مال القبان في سوق حلب للحبوب الحاج عبد السميع القبانجي، قد التقى بنتاً من بنات المسلمين جاءته تستعطي، فتصدّق عليها بما أمر الله وزيادة، ولما عادت إليه في اليوم التالي، رآها مشدوخة، فسألها وأعلمته أن بعض الرجال اعتدى عليها، ولم تعد قادرة على رد غلمة رجال السوق، خافت على نفسها. وقد يسّر الله تعالى أمر لقائها الحاج الكريم المذكور أعلاه،

وأوحى له الله أن يتحنن عليها، ولما بات على علمٍ أنها تبيع جسدها كرهاً ورضىً، بات مسؤولاً عن تعتيرها إذا لم يفعل شيئاً يعصمها من هذه الموبقة الكبيرة. رأينا نحن الشيخ عثمان بن مروان بن عبد الحميد آل الشيخ، أن الشرع يبيح للحاج أن يعقد عليها لإحصانها وردِّها عن كبيرة الزنى، ولو كان بعصمته أربع نساء، فالضرورات تبيح المحظورات.

التوقيع

الشيخ عثمان بن مروان بن عبد الحميد آل الشيخ

وإلى جانب جانب توقيع الشيخ، تواقيع لأربعة شهود هم: حارس السوق، وحارس بايكة الحاج عبد السميع، والقهوجي المقابل لمحل الحاج، إضافة إلى توقيع اللحام، ويلي ذلك توقيع الحاج عبد السميع".

عندما قرأ أبو قاسم هذه الحجة، استغفر الله في سره ثم نظر إلى الحاج عبد السميع وقال:

- واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.
- شفت ما أحلاك يا بو قاسم! فريزة بأمانتك!
- بأمانة الله. ما يكنلك فكر!

رجع الأفندي وعبد الرزاق، والبشر طافح على وجهيهما ولما انضما إلى الحاج عبدالسميع وأبي قاسم، بدا أنهما في غاية السعادة، تماماً كأبي قاسم. أما الحزين الكمد بينهم فكان مجسداً في صورة الحاج عبد السميع الذي لو طُعن لما سالت منه قطرة دمٍ واحدة.

وصلت فريزة وفي يدها بقجة بالية، لا يعلم ما صرَّت فيها سوى الله، وسيعلم كثيرون ما بداخلها غبّ وصولها إلى الرستن، بعد أيام قليلة.

اقترب الحاج عبد السميع من فريزة، ودس في يدها كيساً مليئاً بالمجيديات والبشالك، فأخفته في صدرها بعد أن شدَّت خيطه الثخين بحمَّالة صدارها الداخلي، ثم التفت إلى أبي قاسم:

- هيدي بأمانتك. وهيدي على مسؤوليتك يا افندي.
- أما أنت يا عبد الرزاق فحسابك بعدان!

لم يكن ينقصه إلاّ أن يبكي، وفي الواقع كان الحاج عبد السميع ينزف من الداخل، وقال في سرّه لو أن الله يتمّ نعمته عليه، فينثني أبو قاسم عن اصطحابها لكان أسعد الناس، بل أنه قد نذر أن يحج ماشياً لا راكباً إذا ما رجعت إليه فريزة قبل أن يعاني فقدها. وتمنى لو أنه ينام طوال فترة غيابها لئلا يعاني ما بدا أنه سيكون مريراً وقاتلاً فعلاً لا قولاً.

التفتت فريزة قبل أن يصطحبها أبو قاسم إلى الحاج عبد السميع السبعيني، وقالت له:

- قول لأبي قاسم في عندي شرط.
- قولي يا بنت الناس.
- أنا ما بدي امرق بالرستن.
- ما في مجال يا فريزة إلا ما نمرق بالرستن، الوردان متليين الأرض، إذا ما مرقنا بالرستن بيعملو لنا قصة ويفكرونا مهربين.

لما سمعت فريزة بالوردان، اقشعر بدنها، وأرتج عليها القول، ثم تراجعت إلى الخلف تريد الفرار.

- شو قصتك يا بنت الناس؟ منمرق بالرستن، وما منحط فيها، وإذا خيفاني من حدا حطّي ملاية عوجك، وهيك ما حدا بيعرفك.
- يا ولد!
- حاضر يا حاج عبد السميع.
- نط عاسوق القماش وجيب ثلاث مليات، وكل حوايجن، شو بدك اللون يا فريزة؟
- أسود ليش في غير أسود؟

شعر الحاج عبد السميع وكأن الأسود، اللون الذي يكرهه، يلفُّ روحه، فرفع صوته:

- اللهم لا طير إلا طيرك! يا ولد جيب اللي بتلاقي، وما تتأخر. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

دسَّت فريزة الملاءات في بقجتها دون أن تفردها، ومشت وراء الأفندي وأبي قاسم ومخبرهما خلف الجميع، حتى إذا انتهوا إلى دارة الأفندي، تعانق الرجلان، وتعاهدا على لقاء قريب، بعد أن أيقن أن مطالب عبد الرزاق مدونة في لائحة حفظها في زناره حفظاً متيناً.

وسرعان ما وصل أبو قاسم إلى محطّة الحملة، ومعه فريزة، وقد

أوشكت شمس الظهيرة على الزوال، نادى أبو قاسم: "يا قاسم! خليهن يستعدو عالعصر منمشي!" فتعالت التكبيرات بين رفاق الحملة.

عندما نظر قاسم إلى وجه فريزة، همس في أذن أبيه:

- هالوج مش غريب عليي!
- مبلى يا قاسم غريب عليك! لا تشغل بالك، هلق تجهز لنمشي، وما تنسا حدا!
- يخلق من الشبه أربعين!
- مزبوط يا حجة.
- بس يا بيي، مش معقول يكون قاسم حط عينو عافريزة؟
- الله أعلم بالنوايا يا فضلو!
- شايف يا عمي، لوين بتروح أفكار الرجال بس يسمعو بمرا؟
- لا والله يا حياتي!
- دخيلك سكوت وخلينا نشوف شو صار!
- يه يه يه، عمهلك عالصبي يا وسيلة! يمكن يكون عندو حق فضلو!
- اصبرو عا رزقن يا جماعة. القضية أغمق من هيك يا جماعة.
- طيب كمّل يا حاج، حكاياتك صايرة مثل حكايات ألف ليلة وليلة يا حاج اصرفنا بقا. لما قلتلك احكي حكاية المبرومة، تا فرجيهن قيمتها، وشو مكلفة تا لفّت عا هالزند، حكيتها بدقيقة،

وبقصص النسوان إلك ساعة عم تحكي، خلصنا وانهيلنا اياها تا قول اللي عندي.

- يا اللا سكتّ، بكمِّل بسهرة ثانية، قولي اللي عندك، كلنا سمع يا حجة.
- ما بتزبط يا حاج، خلّص انت تا بلِّش أنا.
- الله يجيبك يا طولة الروح.
- شو ضاقو خلاقك يا وسيلة؟ قوم يا حاج تنروح عا بيتنا! يبسو فخادي وهالبنت عاركابي.
- بيه عليي، يا مرت عمي فكرتك مبسوطة انها بحضنك وهي سبحان الخالق، كيف ساكتة معك، لا وع ولا بع.
- سبحان الله الولد بيعرف محبينو، مش متل غيرو!
- يا جماعة، يا جماعة حاجي نكوزة.
- لا والله ما انتبهت يا مرت عمي، هاتيها تاريحك نتفة!
- تركيها بحضني وبقلبي، حبيبة ستها. خلينا نسمع كمالة القصة، تفضل يا حاج.
- الله يزيد فضلك يا حجة!

المهم صلّينا العصر جماعة بالجامع الكبير بحلب، وبعد الصلاة قرينا الفاتحة عا نيِّة التيسير، ومشينا، قلّطنا أريحة، وبو قاسم مدوقر عضهر البغل قدام الحملة!

- خلينا ماشيين منحط بالمعرّة. شو قلتو؟
- القول قولك يا بو قاسم!

وصلنا عبواب المعرّة بعد العشاء، ريَّحنا سواد الليل، وقبل الفجر، نادى بو قاسم:

- قومو يا جماعة عالصلاة، ودربكن بوجدن عا خان شيخون، الطقس مآتينا، الدنيا صحو، إن بقيت الدنيا صاحية، منحط بحماه أوّل المغرب أو بعد شوي قولو الله.
- الله. الله. الله.

لما وصلنا عساحة خان شيخون، كانت الشمس معرّسة بالسما. من خمس وعشرين يوم والدنيا صب وشتا، هيدا أول يوم صحو. وقف أبو قاسم وتطلع بقوس القزح اللي ارتسم بالسما:

- يا جماعة شوفو قوس السما، شرق وغرب، شو يعني؟
- نام عالدرب يا بو قاسم.
- يا الله اتكلو عالرحمان، شدّو الهمة. كل فشخة بالصحو قد مية بالشتا! يا جماعة، اللي بدو يقضي حاجة ما يضيع وقت، غفّة طير وبدنا نمشي، دبرو حالكن!

تبعثر الجميع في كل مكان، فيما اختلى أبو قاسم بفريزة، وأخبرها أن الوقوف بالرستن لا بدّ منه، وعليها أن تضع النقاب على وجهها، لأن وردان الرستن لا أمان لهم، ولا بدّ من مسايرتهم ليخرج الجميع سالمين من تحت قبضتهم. وأشار في معرض حديثه إلى لؤم أبي دعاس شاويش الوردان في الرستن.

عندما سمعت فريزة اسم أبي دعَّاس اصفرت وأجفلت ثم تصبَّرت كمهرةٍ رصدت أفعى تحت عينيها.

راقب أبو قاسم ردَّة فعلها بغبطة، مع أنه لم يكن قاسياً ولا فظاً في التعامل مع الناس، وإن كان حاداً وصارماً في أداء أعماله.

سبحان الله، ما أغرب الإنسان، كلَّما استحوذت عليه رغبة الانتقام، وما أغرب الإنسان حين تجره المقادير إلى حتفه، كأنما كُتب عليه أن يكون ضحيةً في مشهدٍ مسرحي بحجم الحياة كما في المآسي الإغريقية.

فجأة تنزَّل على فريزة صمتٌ لا إرادي، بل الصدق أنها بدت كفريسةٍ سُبعَتْ، فاستسلمت، وما عادت تنتظر سوى استعجال البراثن والأظفار لتنشب عميقاً في خلاياها واحدةً واحدة!

تركها أبو قاسم بسكرة موتها، ونادى قاسم يأمره بدعوة الرفاق للانطلاق، ثم أشار إليه، أن يبقي عينه على فريزة. صدع قاسم بما أمره به أبوه، والحيرة تنهشة، إلا أنه لم يعتد مناقشة أوامر أبيه، فمثله كمثل جماعة القافلة كلهم، ثقة مطلقة بأبي قاسم.

وسرعان ما شقَّت القافلة طريقها بجلبةٍ أنيسة خارج خان شيخون، تحت شمس الشتاء الدافئة، على وقع أصوات الحداة، يسكت واحد، ليرتفع صوت آخر، والحنين يقطر من بين الكلمات إلى الوطن والأطباق الساخنة والفراش الوثير الدافئ:

يــا مـيـن يـردنــي عــاحـضــن حبيت
وموقدة مهبرجة وكبة عليها زيت
وفرشة صـوف ومخدة عليها حرام
وزندك الي وما في حدا بالبيت.
يــا طـيــر يــا رايـــح عــلــى بــلادي
سلِّم على المسطاح عا نبعة الوادي
وقــلــلا لإم الــزلــف مــش عمنام
ضايع على بعدك يا مهجة فؤادي.
هــونـيــك فــوق الـــدرب مستنِّي
دموعو سيل والعنَّة ورا العنَّة
بــكــرا بــتـفــرج، كــلــهــا كــم يــوم
منلتقي ومش رح تبعدي عني.

بدت لأبي قاسم، قبل الغروب بكثير نواعير حماه، ولم يعد بينهم وبين العابور الأكبر فوق نهر العاصي للدخول إلى حماه إلاّ مسافة قليلة، حثَّ الجميع الخطى، حتى إذا ما نزلوا ساحة حماه، انفرجت أسارير الجميع، وراح كل واحد، يمهِّد ما اتسع له من الأرض مسكناً تحت اشجار الحور والجوز والصفصاف والأزدرخت.

سرور يعم الجميع باستثناء اثنين أبي قاسم وفريزة التي أمست زائغة العينين، كمن يتحرك بلا إدراك، أو يسير وهو نائم. فلش أبو قاسم زوّادته، ودعا فريزة لتشاركه في الطعام، لكنها كانت في عالم آخر، فتركها، ورمى حبة البطاطا المسلوقة من يده، وقام يسير بعيداً على ضفة العاصي، يعاني نزاعاً قاتلاً فيما بينه وبين نفسه، فهو وحده يدرك عظم ما هو مقدم عليه. بدا متردّداً، وفي لحظة خاطفة راح كمن عزم على إعادة فريزة إلى الحاج عبد السميع في حلب، قبل وقوع الواقعة، التي لا يتحسَّسها سواه. نادى بكره قاسم، وفي اللحظة نفسها وصلت إليه فتنة التي اختلت به باكيةً، فسعدو يبصق دماً منذ خروجهم من حلب، انطلق أبو قاسم مع فتنة إلى سعدو، فرآه نصف رجل، خيال رجل، أصفر كزهرة القندول، دعاها لتغلي له كوباً من الزعتر، ثم كشف عليه، وكلاهما قلقٌ، ارتاع أبو قاسم لمرأى سعدو على هذه الحال، لكنه طمأنه وهو غير مطمئن.

عندما وصل قاسم، أمره أبوه أن يشتري دجاجة ويذبحها، وتوجَّه إلى

فتنة: "اسلقيها واسقي جوزك، كلها يومين ثلاثة ومنوصل عطرابلس، وإن شاء الله خير".

اندفع أبو قاسم يسير على غير هدىً، مستقراً على ما رسم، فلا بدّ لأبي دعاس أن يدفع الثمن الغالي لما أنزله بسعدو من ذل ومن موت محتَّم.

- مسكين يا سعدو!
- الله يصبِّر قلب أهلو.
- يا جماعة سعدو بعدو طيب، ليش عم تنعو؟
- معك حق يا فضلو.
- قطيعة! ليش عم تعطينا ياها بالتقسيط؟
- بتؤمري يا حجة: قربنا نخلّص. ليلتها ما نام الليل بو قاسم، ولا أنا نمت، صابني إسهال، قضيت الليل كلو عاضفة العاصي، هُرّ، حشاكن الله، وغسِّل، وكلما رحت اختلي لاقي بو قاسم واقف وداير وجو صوب الرستن نوبة، وصوب حلب نوبة، وكل شويّة يعيط: يا قاسم، طلّ وشفلي سعدو كيف صار؟
- منيح يا بيي،
- عم تشرّبو زوم الدجاج؟
- اي.
- ومغلي الزعتر؟
- اي.

لما شافني رايح جايي سألني شو باك يا عبد الرسول؟

- عندي اسهال، أجلّك الله رب العالمين.

عطاني عرقين زعتر وقللي: "علكن وبلعن بعودن بكل شي فيهن بيمشي حالك".

وحياة مين مسلمكن، متل الكأنو الزعتر مسحة رسول.

قبل طلوع الضو، نادى بو قاسم:

قومو يا جماعة، تحضروا، وما حدا ينسى شي، المشي بعد صلاة الفجر، لما اصطفينا لنمشي، اختلى بو قاسم بابنو قاسم، شو قاللو ما حدا عرف، كل اللي عرفناه، انو قاسم ركب عبغلة بيو، ونفر قدام الحملة متل جنح الطير.

عرفنا بعدان، انو بو قاسم، بعت مرسال لأبو دعاس مع قاسم، بقوللو فيه، "جبتلك المهرة، خليك بالمركز، وجهّز حالك، وبعات الوردان اللي عندك يتفقدونا".

وهيدا اللي صار. وصلنا عبواب الرستن قبل الضهر بتلات ساعات، كان عبدو ومعو جحشين من الوردان، حيا الله، سلم الله، ناولو بو قاسم رطلين تتن لإلو خاص ناص، وناول الباقيين كل واحد رطل.

- قومي يا فريزة!

- قامت متل المضبوعة، وعليها ملاية ما مبين منها شي، إلا وبوصلة قاسم.

- شو؟
- متل ما بدك!
- خليك حدّ الجماعة، ما حدا يحطّ، بدنا نمشي عحمص دغري، عندي شغلة بدي اقضيها وارجع. خليكن واقفين. يا قاسم شفلي سعدو كيف صار؟ ردّت فتنة: "عاحالو".
- عبدو!
- امرك يا بو قاسم.
- ما تتحركش بالجماعة، خليك بعيد عنهن، أو رجاع عالمركز.
- الشاويش قال تا نبقى حواليكن.
- خليكن! امشي يا بنت الناس! لحقيني.

مشت فريزة خلفه، دون أن تنبس بحرف، طوال المسافة إلى المركز، وما أن أوشكا على بلوغه، حتى سمعها أبو قاسم تسأل بصوتٍ يصدر من حلاوة الروح المرتجّة:

- لوين ماخدني يا عم؟
- عالبيت يا بنت الناس!

فشهقت شهقة مفردة، ولم تثني، وتابعت سيرها كمن استسلم لمصيره المحتوم.

عندما وصلا إلى المركز، ركل أبو قاسم الباب برجله فانفتح على مصراع فيما سقط المصراع الآخر محدثاً ضجيجاً مرعباً، لم يبد الذعر

إلاّ على فريزة، أما الرجلان الآخران فكل منهما كان على إيقاع آخر لم يعكره شيء قط. كانت باحة المركز، نظيفةً، خالية إلا من حجارة الخفّان حول الموقد المطفأ، فيما اختفى السرير وراء ساترٍ من الجنفيص البالغ التملُّع. بدا أبو دعاس حليق اللحية على غير عادته، وذا شاربين مشذَّبين، مما لم يُعهد به من زمن بعيد، واقفاً بسرواله العسكري البالي والغدَّارة تتدلى على وسطه، تحت صدره العاري بشعره الكثيف المجعَّد، وشعر ذراعيه كقائمتي ضبع بل كان ضبعاً تامّ الصفات في حجرة خارج الزمن.

- وعدت ووفيت يا بو قاسم. والله انتِ قدها!

- وعد الحر دين يا بو دعاس!

أحسَّ أبو قاسم بخفق شديد وراءه، التفتَ، ليرى فريزة متحجرة مكانها عند الباب.

- قرّبي يا فريزة وانت يا بو دعاس استلم.

واستدار يريد الخروج، عندما سمع وقع قدمي أبي دعاس تقترب من المرأة الغائبة وراء جلبابها وخمارها، والتي تراجعت واستمسكت بذراع أبي قاسم، دون أن تتفوَّه بكلمة! تحلَّل أبو قاسم من قبضتيها بعنف، كمن لا يريد أن يعيد التفكير فيما رسمه، منذ كان آخر ليلة في الرستن، وفي هذه القاعة بالذات، فيما سمع أبا دعاس يقول لفريزة:

- شو مالك! قحبة وبتخاف؟

عندما اندفع أبو قاسم خارج الغرفة، لم يستطع أن يحبس دموعاً

قاتلة خضَّبت وجهه ولحيته، لقد كان حتى اللحظة في شكٍّ من حقيقة فريزة، وما إذا كانت هي نفسها البنت التي ظنّها، وسعى وراءها حتى عثر عليها، في متاهات حلب. أوجس مرات أنها هي التي يبحث عنها، وكلما ظهرت إشارة تعزِّز يقينه ارتاح، ولَعَمر القدر توالت مراراً إشارات صلبة تريحه، منها: لهجتها البدوية، وكونها كانت زوجةً مشلوفة، وعندما نال شالفها مأربه منها، تركها لغدر الزمان، وما كان لها أن تعود إلى بيت أبيها. وأكثر ما عزَّز يقينه اشتراطها أن لا تمرّ في الرستن، وعلى مضض رضيت أن تعبر فيها وهي منقَّبة. كل تلك الإشارات كانت تريح أبا قاسم، إلا أنه ظلّ في شك، حتى أحسّ بخفق فؤادها وهي على بعد خطوات من أبي دعَّاس، ولمّا تمسّكت به، وهو يغادر، تنزَّلت عليه صاعقةٌ قطعت الشكّ باليقين.

ودَّ أبو قاسم في تلك اللحظة، وهو ينزع ذراعه من كمّاشة كفيها، لو يكون حجراً، فلا يحسُّ، ولا يبكي، ولا يندم، ولا يموت وهو حيٌّ ألف ميتةٍ.

وقف أبو قاسم للحظة، تخامره لوثة الرجوع، لاستنقاذ فريزة من سطوة هذا الضبع الغادر، حين سمع أبا دعاس يقول:

- بأرضك يا قحبة!

عندما سمع أبو قاسم نبرة صوت أبي دعَّاس، استعاد عتوّه تلك الليلة الماطرة العاصفة في ذات الغرفة مع سعدو وفتنة، فغزَّ الخطى

مبتعداً، لكنه حين التفت عن بعد رأى أبا دعَّاس يمزِّق عنها ثيابها، وهي تخفي رأسها المنقَّب بذراعيها، دون أن تتزحزح قيد أنملة من حيث حطَّت قدميها، لحظة أدخلها أبو قاسم قبل برهةٍ.

- مستحيّة يا قحبة؟

ويداه تعبثان في كل مواطنها الخفية والظاهرة، تأبَّطها وقوفاً، كأنها نعجةٌ، وهي تشدُّ بذراعيها على نقابها ورأسها، فاستشاط غيظاً وهو يدفعها إلى الحائط المقابل للباب الوحيد المشرَّع في غرفة المركز، وراح يشدّ عليها شدَّ مغتصبٍ تمكَّنت منه لجّةُ الباه، آخذاً فخذها بين ساقيه، ممعناً في نهش صدرها المكشوف، دون أن يكف عن نزع خمارها، حتى إذا تحقَّق له ذلك، ندَّت عنه صرخة من أصيب بنوبة قلبية قاتلة:

- وطفة وطفففة!

أشاح أبو قاسم بوجهه في اللحظة التي سمع صرخةً مستعطفة:

- قتلتني يا بيي!

نظر أبو قاسم إلى شبرية أبي دعاس تمعن طعناً في صدر وطفة التي كانت فريزة قبل قليل. تناهى إليه صوت أبي دعاس:

- يا عاطلة! يا عاطلة! يا عاااااطلة.

وفيما كان أبو قاسم يسبحُ في دموعه وألمه، كانت وطفة تسبح بدمائها. سمع طلقة واحدة فكرَّ راجعاً إلى الغرفة، ليرى أبا دعَّاس

مضرجاً بدمه، إثر طلقةٍ من غدارته في الصدغ، بجانب طعينته ابنته وطفة، والشبرية ما تزال بين ثدييها مغروزة حيث الطعنة الأخيرة التي ختمت عشرات الطعنات في صدرها الفتيّ.

لم يستطع أبو قاسم أن يمنع نفسه من الجثو على ركبتيه، يقبِّل قدمي وطفة، ويغسلهما من جاري دمعه الصادق، ثم نهض متجرعاً كأس الهزيمة في جلابيب النصر المقيت والانتقام اللعين! نزعَ الجنفيصة البالية عن ذلك الحبل الذي يفصل سريرَ أبي دعاس عن بقية غرفة المركز، وغطّاهما، ومضى وهو يقرأ الفاتحة، ولا يكفّ عن طلب الاستغفار على وقع دمعه المدرار.

عندما انتهى أبو قاسم إلى محطّ الحملة وهو في حالة يرثى لها، تلقَّاه ولده قاسم

- خير يا بيي؟

صرفه بحركة من يده، مقترباً من عبدو، حيث تبادلا كلاماً قليلاً، بصوتٍ شديد الخفوت، وفي الوقت الذي أبدى فيه أبو قاسم مرارةً قاتلة، ظهر عبدو بغاية الارتياح، كمن تلقّى خبراً نذر له عمره.

امسك يا عبدو، هيدي عشرين مجيدية، روح بلّغ الجندرمة، ودبِّر الموضوع معن. اوعك تجيب سيرتي بالموضوع. بي وبنتو! هلقد وبس. خلِّي الحملة تتيسَّر. أنا رح اتأخر عنهن شوي، بمشي وراهن، خبرني شو بصير، وإلك عندي عشرين مجيدية بس تتضبضب القضية يا عبدو.

- بدي سلامتك يا بو قاسم، مكفِّي وموفِّي. بو دعاس وبنتو بحفض السرموجة!
- استغفر الله شاويش عبدو!
- الله يسمع منك! الله يسمع منك! والله إن حطوني محل بو دعاس، اعتبر الرستن وضواحيها وعبدو والوردان خدَّامك.

- تسلم يا عبدو! يا قاسم!
- يا اللا يا اللا.
- امشي قدَّام الحملة، نادى عليهن. أنا بدي اتأخر شوي بلحقكن بعد المغرب أو بعد شوي. قول الله!
- الله ما في غيره. يا اللا يا جماعة على حمص. إن ساعدنا الطقس بعد بكرا الصبح منكون بطرابلس إن شاء الله!
- إن شاء الله. إن شاء الله.

وانطلقت القافلة، على صوت الحداء والفرح، ولم يكن أحدٌ يعلم ما جرى لوطفة أو لأبي دعاس. فجأة اقترب عبدو من شخص تبين أنه أبو مايز.

- خيو! خيو!
- التفت أبو مايز إليه خائفاً: "عم تحكيني؟"
- اي، تفضل!
- شو هيدا؟
- مجيدية!
- ليش؟
- إلك بدمتي نص مجيدية! تتذكر؟ ما كان معي فكة.
- مسامح يا خيي مسامح!
- ولك امسك!

- يا سيدي إلي عندك نص مجيدية، وسامحتك.
- معليش. خود هالمجيدية، اعتبر حالك خريت عحساب الدولة.

تلقف أبو مايز المجيدية وسط ضحك رفاق الحملة، فيما مضى عبدو على ظهر بغلته كملك غير متوَّج، يتبعه رفيقاه اللذان لم يعرفا من أمر أبي دعاس شيئاً، ولا ما ينتظرهما في غرفة المركز.

عندما بلغ رجال الوردان المركز، أمر عبدو رفيقيه، أن يبقيا خارجاً، لأن الباب كان مفتوحاً وأحد مصراعيه منبطح أرضاً. سحب عبدو غدَّارته ودخل إلى المركز، ليرى ما كان أخبره به أبو قاسم، أزاح الجنفيصة، ليرى المشهد المريع، بركة من الدماء، ركل عبدو جثة أبي دعاس مرتين أو ثلاثاً، فلم يتحرك، والدم لا يزال يسيل من صدغه على كتفه ومسرى صدره العاري إلى سرَّته وصولاً إلى سرواله العسكري. أما وطفة فبدا وجهها بدون قسمات أصفر كزهر القندول، بخلاف صدرها المغطّى ببلوزة حمراء من نسج دمها الذي ما انفك ينزف حاراً طازجاً ولامعاً.

- الحقوني! الحقووني يا ولاد الكلب!

ولج العسكريان، ليريا ما سبق أن رآه عبدو، الذي رح يصرخ ويندب أبا دعّاس، كمن يندب غالياً في أداء تمثيليّ رائع.

- عجِّل يا فندي، لحقّني بالجندرمة! وانتِ يا مأمون، مدّ الجنفيصة وغطي بو دعَّاس، الله يلعن روحك وروحو، وغطي هالبنت، الله يرحم روحي وروحها.

غطيا الجثتين، وانتظرا غير قليل حتى وصل رجال الجندرمة، في هذه الأثناء كان عبدو يلف لفائف التبغ مما أحضره أبو قاسم، ولم يكفّ عن إبداء إعجابه بهذا التبغ الذي يفوق التبغ الحموي جودة، ويدعو لأبي قاسم بطول العمر فكان مأمون يشاطره الرأي بجودة التبغ والدعاء لأبي قاسم.

- والله بو قاسم شيخ شباب وكريم يا عبدو!
- ولك. حاسب عكلامك. اوعك تناديلي عبدو من اليوم وبالرايح، بخلع نيعك. بو خطّار. بووو خطار.
- عراسي يا مساعد عبدو!

صفع عبدو مأموناً صفعة محرزة:

- يا حمار قلتلك: بوووخطار. الشاويش بو خطار من اليوم وبالرايح.
- بأمرك شاويش بو خطّار! بس ما تضرب متل المحروق بو دعاس.
- سلامة عمري، ما تشبهني بهالكلب. ما تغلط ما بضرب.

تأمّل رجال الجندرمة المشهد بقرف. كما ركل أحدهم أبا دعاس.

- أخيراً احترق هالكلب الكافر! مين هالبنت؟
- هيدي بنتو يا افندي، راحت خطيفة من مدة.
- وشو جابها لعندو اليوم؟

- الله أعلم! سمعتو عم بيقول من مدة انو انعرف أراضيها بدو يروح ليها ويدبحها. مش هيك يا مأمون؟
- مزبوط يا بو خطّار!

لاحت على وجه فندي حيرة من قول مأمون: بو خطار، فغمزه هذا الأخير من طرف خفي، فانزاحت حيرته، وانتظر خروج رجال الجندرمة ليفهم ما قصة أبي خطَّار هذه. وإذْ تفهم الأمر بعد لأي وخمس مجيديات، مضى مع أحد رجال الجندرمة إلى قرية مراح الحبلى حيث تسكن أم دعّاس التي ما إن دخلت المركز، ورأت جثَّة أبي دعاس، حتى راحت تولول كمن استؤجرت لذلك، غير أنها، كفَّت عن الولولة عندما شاهدت تلك الصبية الممدَّدة شبه عارية بجواره، فانطلقت تقذف اللعنات على أبي دعَّاس:

- الله يحرقك يا خاين، الله لا يردَّك يا عرص يا ابن العرص يا عالم تعو شوفو، بغيب ست سبع شهور عني، وأنا صابرة وهو داير عالعكرتة.
- وحِّدي الله يا حرمة!
- عمهلك عليي! مش شايف اللي انا شايفتو، أنا وولادي قاعدين بلا أكل، وهو داير عا حل شعرو مع بنات الناس، يسلم ايد اللي قتلهن. دلوني وين أهلها لها الشرموطة.
- "روقي يا حرمة!" قال شاويش الجندرمة، بتعرفيها مين هيي؟

- شو بعرفني فيها؟ أنا ما بعرف هيك بضاعة. شو شايفني فلتانة متلها؟

اقترب عبدو منها، هزّها بعنف، ونظر إلى عينيها، كمن يذكرها بليالٍ عاصفة بينهما، شهراً فشهراً، يوم كان يرسله أبو دعاس مع بعض المال إليها. فأطرقت بصمتٍ، وانتظرت ما الذي سيقوله:

- قربي شوفيها وتعرفي عليها.

اقتربت مرغمة، وما أن رفع عبدو القتيلة عن الأرض، حتَّى انفجرت صائحةً تخمش خدها، وتشقّ ثيابها.

- وطففففة! يا بنتي، يا عمري، دخيلكن اقبروني اقتلوني.

وانكبَّت عليها تقبِّل وجهها، ثم وضعت رأس وطفة في حضنها، وراحت تندب بأسى وهي ساهمةٌ إلى حيث لا يعلم إلا الله:

"حبابي حبابي الكانو يعزون

صارو المرحبا عليي يعزّون

وبعد ما فنيت إجوني يعزّون

الدفين الصار تلتينو تراب"

- "ضهروها لبرا": أمر شاويش الجندرمة فأخرجها بجهد رجلان شديدان معه، ثم نادى الكاتب المرافق وأمره بالكتابة:

- حط الترويسة المعهودة، الوقت والتاريخ واذكر اليوم بالاسم، والمكان: الرستن، مركز الورداف. بس تجهز خبرني.

- جاهز سيدو!
- اكتب: "بتاريخه استدرج المدعو مطرود ابن عابس العنزي المعروف بأبي دعَّاس، شاويش الوردان بمنطقة الرستن، إلى مركز الوردان، ابنته وطفة بنت مطرود ابن عابس العنزي، أمها شملكان، وكانت وطفة قد راحت شليفة، مع الطافر فهد المشمِّر مجهول باقي الهوية.

وقد نجحت خطة أبي دعاس في استدراج ابنته وطفة إلى المركز، الذي لم يكن يوجد فيه سواه، بعد أن أمر مساعده عبدو والخفيرين فندي ومأمون بالقيام بدورية في ساحة الرستن، ليخلو له الجو وارتكاب ما خطَّط له، وتبيَّن أنه طعن ابنته ثلاثين طعنة كلها في الصدر ثم أطلق النار على نفسه من غدارته. ولقد تعرفت زوجة القاتل والقتيل إليه وإلى ابنتهما وطفة. اقفل المحضر.

الشهود: - زوجة الجاني والقتيل وأم القتيلة

- شملكان بنت عبود الناعس من مراح الحبلى
- المساعد عبدو ابن خير الناس من الرستن
- الخفير فندي ابن مرمور المزّي من خان شيخون
- الخفير مأمون ابن وحيد أمو من المعرَّة.

الكاتب: سليم ابن عبد الإله شيخ الأرض من الرستن

شاويش الجندرمة: فريد الدين بن مروان السمان الحموي".

- عبدو!
- أمرك شاويش!
- روح انت والكاتب عابيت شيخ الصلح خليه يوقع ويوافق عالمحضر. وانتو يا شباب، سلمو الجثث للحرمة.
- دخيلك يا سيدنا، حرقو المحروق الوالدين، وعطوني وطفة.
- خافي الله يا حرمة. وبطريقك نادي بالساحة يا عبدو العونة يا أهل النخوة، خلي حدن يساعدها عانقل الجثث. مفهوم.
- مفهوم.
- أنا بقول بو قاسم شريك بالجريمة.
- أنا بقول يا حجة انو بو قاسم نفَّذ حكم القدر بأبو دعاس.
- دخيلك يا وسيلة انت وتحليلاتك. أيا قدر أيا بلوط، جبلو بنتو عانص دين المركز. وهوي عارف شو بدو يصير. شو بسمّوها هيدي؟ جريمة. ما بدها تنين يحكو فيها!
- يا جماعة، تركو المحاكمة لرب العالمين، وعطي هالبنت لأمها تا ترضعها، الهيئة بلشت تفنعص.
- لأ يا عمي، مش جوعانة، بس يمكن فضِّت معدتها عالأُنس بحضن ستّها.

امتعضت الحاجة سهجنان من تعليق وسيلة الشائن، إلا أنها لم تقل شيئاً، مما أثار ريبة الجميع. واكتفت بحمل الرضيعة إلى أمها التي أخذتها إلى غرفة مجاورة لتنظيفها.

حاول الفضل أن يرطِّب الأجواء، فالتفت إلى أمه وسألها أن تكمل ما جرى لها بالحلم عندما رأت تفاحةً بحجم الشمامة في أعلى شجرة التفاح العملاقة. لكن الحاجة سهجنان اكتفت بالقول إن التفاحة المذكورة وقعت بين يديها وعليها اسم عبد الرسول، الذي لم يكن قد تقدّم لخطبتها بعد، فوقر هذا الاسم في عقلها، وعندما جاءت أم عبدالرسول سعدى الأورفلي تسمِّع بها، أدركت سهجنان، أن الحلم الذي رأته لم يكن أضغاث حلم، وإنما كان رؤيا سماوية. فصدعت للأمر، رغم اشتراطها أن تكون علامتها اسوارة لم يرَ مثلها أحد. بالطبع لم يرضِ ذلك سعدى الأورفلي، لأنها لم تكن ترى في سهجنان ملكة جمال، وإن كان ولدها عبد الرسول يراها حوريةً لا مثيل لها، وقد حاولت إقناعه بوضحة بنت أبي حمد اللبان، فهي أطول وأسمن، من أعلاها قضيب ومن أسفلها كثيب. إلاّ أن عبد الرسول ركب رأسه، ولم يرضَ بديلاً من سهجنان، وإلا فإنّه سيهجّ في بلاد الله، ولن يدع أحداً يعرف أراضيه، الأمر الذي جعل سعدى الأورفلي تخضع لمراد ولدها البكر الذي أضمرَ أن تكون لسهجنان مبرومة لا إسوارة فوق مخيلة الصبايا كلهن.

الذين قالوا إن الحبّ سرّ من أسرار الخالق في المخلوقين، لم يغلطوا. فالحب حجرٌ يقدحُ في الغياب ناراً، وفي الحضور يتفجّرُ زلالاً عذباً، والعاشق بين هذا وذاك يتقلّب بين ضفّتي الاحتراق والغرق.

وأعجب ما كان في علوق الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام بسهجنان، أنه ثابتٌ على زودٍ إلا ما ندر، فبعد أربعين عاماً إلا قليلاً من الزواج، لم يشتهِ الحاج عبد الرسول امرأةً سوى سهجنان، وما كان يرى بها عيباً، مهما كان واضحاً للعيان. أما سهجنان هذه فامرأة العجائب، فهي تصلي جلوساً، بادعاء أن ركبتيها لا تقويان على الوقوف طويلاً، وأن خرزاتٍ في عمودها الفقري معوجة تمنعهامن عن الانحناء، ورغم ذلك تراها في الدندانة القريبة من الدار، تنحني ساعاتٍ متواصلة تعشِّب كلّ ضارٍ من الأعشاب من مساكب البقدونس، وأثلام البندورة البلدية، ومعرِّشات اللوبياء، ونباتات البامية، وصحرة القثّاء والخيار. وعندما تنحني، تمدُّ ساقيها مستقيمتين على انفراج قليل، فيما متنها مستوٍ على استقامة لافتة، كأنها تقوم بتمارين سويدية، خصوصاً ذلك التمرين الذي ينحني فيه الجسم على شكل الرقم الهندي "٢" أما الذراعان فتلوّحان بالتعاقب المخالف، راحة اليد اليمنى تلامس ما يحاذي القدم اليسرى وما يحيط بها، وكذا راحة اليد اليسرى تلامس ما يحاذي القدم اليمنى وما يحاذيها.

وما عُرف مرةً عن الحاج عبد الرسول، بعد أن أصبح حاجاً، وقبل ذلك، أن امتعض من ذلك، أو أبدى ما يشبه الاعتراض على أداء فرائضها جلوساً، فيما هي في الحقلة كثور الفلاحة لا تشكو ألماً، أو تذكر شيئاً عن ضعف ركبتيها واعوجاج خرزات عمودها الفقري. وهي فوق ذلك

تعول إذا حملت ربطة الخبز، فيما تعود من الحاكورة القريبة والبعيدة بخيرات الأرض كأنها حمّالٌ فتيٌّ قوي الزندين والمتن والساقين دون أن تشكو بتاتاً.

ومن عجائبها أنها تأنسُ إلى وصلات الرقص في الأفلام العربية، وتسعى مراراً، إذ تكون وحيدة في البيت، إلى تقليد حركات الراقصات، فتفشل بالطبع، فليس في ما لديها من قامة شبه مربعة، لياقة الراقصات. ورغم ذلك، تراها، إذا حضرت عرساً، لا تترك من سهامها واحدة من أهل العريس والعروس اللواتي ينزلن إلى ساحة الرقص يبدين فرحهن بهذه المناسبة السعيدة أو تلك. ولا تكفّ عن استشهاد الحاج عبد الرسول ببطلان أفعالهن وسوء مآتيهن. والحاج يبصم لها موافقاً، تلافياً لغضبها، وإشارتها الخبيثة و تهديداتها له ببطلان حجته وإيمانه.

ولم تكن خشية الحاج عبد الرسول من غضبها هي السبب الأول، فأوّل الأسباب حبّه لها. والحبُّ أعمى كما يقال. وإلا فكيف تفسّر تبعية الحاج عبد الرسول للحاجة سهجنان في كل شيء، فهما إذا سارا معاً في الدرب تقدَّمته، وهو على مديد قامته، يحافظ على مسافة خطوتين خلفها، بعكس المعهود في المجتمعات الذكورية، حيث الرجل يتقدم امرأته، ويواظب على الالتفات وراءه بين الفينة والأخرى، ليتأكّد من حسن سيرها وتبعيتها.

أما هنا، فانقلبت الأدوار، سهجنان في المقدمة دائماً وهو في

الخلف، تفتقده كلما أحسَّت بتقصيره، فتستعجله، فيعجل وهو يسعل وعلى وجهه سيماء الجادِّين.

والأغرب من كل ذلك، أنه قد أسلم القياد لسهجنان في كل أمر، ولا سيما في المال، فهو ينتج، وهي تضب. والحاج لا يعرف مقدار ما لديهما من مال أبداً، بل إنّ جيوبه تصفر دائماً كصحراء فارغة. فإذا استوقفه جابي الكهرباء في الشارع، أو قرع بابه مأمور الماء يطالبه بالاشتراك السنوي، نادى، بعد أن يسعل مرتين أو ثلاثاً:

- يا حجة! يا حجة سهجنان!
- وطي صوتك، عزا بحنوتك، ليش بتضل تعيط؟ شو باك.
- ادفعيلو للزلمة، ادفعي للمأمور، ادفعي..

فتدس يدها تبعثر في صدارها الداخلي، بين ثدييها الشبيهين بجرابي لبنة متدليين يرتجّان تحت صفحة عنقها، فتخرج منديلاً مصروراً بإتقان، فتحاسب وتدفع، وتعترض، وتوافق، والحاج عبد الرسول، ينظر من وراء نظارتيه الطبيّتين، يسعل حيناً، وحيناً يعود إلى ما بين يديه من أوراق، وما كان لإحدٍ أن يعرف ما فيها، لولا أن بضعة منها، قد تسرَّبت في سحَّارة العنب التي أُرسلت إلى سهجنان الحفيدة ذات صيف بيروتي حار وفي صناديق أخرى لاحقة.

ولقد أجمع أكثر من عارف صادقٍ، أن الحاجة سهجنان تتردّد إلى مصرفين منفصلين في شارع عزمي بطرابلس ولا أحد يعرف سوى أنها

تختلي برئيس القسم بهذا المصرف، ورئيس القسم بذاك المصرف، فيقدمان لها شراب الكركدي الأحمر البارد صيفاً، وشراب الكركدي الأحمر الحار شتاءً. وإذْ تخرج، يلمح المدقّق انتفاخاً إضافياً مشوهاً في جرابي اللبنة المرتجين المتدليين من عنقها، بما يتلاءم ودفتري توفير تكاثرت أوراقهن، فازداد جرابا لبنتها انتفاخاً. كل ذلك ومثله والحاج عبد الرسول، لا يرى ولا يشكّ، ولا يسأل ولا يستفهم.

وما زال بعض الجيران يتساءلون عن علاقة موزّع الخبز والكعك الأورشلي بالحاجة سهجنان، فهو لا يأتيها إلا قبل شروق الشمس، وهي في الدندانة قرب المنزل، يعطيها ما تريد، ويقفان طويلاً يتحدثان، بما لا يعلمه إلا الله، حتى تشتهر الشمس في السماء، فيمضي سعيداً، وهي كذلك. قال البعض أنها كانت تقرض بالفايظ. وأن موزع الخبز والكعك الأورشلي هو سمسارها في هذا الشأن، وهو الوسيط بين المقترضين والمقرضة بحرفية ما تعنيه هذه الكلمة.

وقد قال البعض إن الإقراض بالفايظ حقيقة، فكثير من الجيران، قصدوها فلبتهم، بفائدة ثابتة ٣٥٪ تدفع سلفاً. وتحسم من أصل المبلغ المقترَض، ولو كان عشر ليرات، وهي لا تعترف بالسنة الشمسية، فسنتها هجرية، وهي بذلك تكسب عشرة أيام سنوياً. والجميع يعرف أنها تتقاضى فوق ال ٣٥٪ و ١٠٪ إضافية تسميها فك صُرّة، أو ما يسمى إقرار القرض في عالم المصارف. وكان لها في تقاضي الفائدة

- أي الربا في الاسلام وهو حرام قطعاً - حيلٌ شرعية لم تخطر في بال ابليس ولا روكفلر إمام المصرفيين في العالم، فإذا قصدها أحدٌ لاقتراض مبلغ من المال، يأتيها وهو على علم بما يجب عليه، من قيمة الفائدة المدفوعة سلفاً، ورسم فك الصرّة، والتوقيع على رهنية، أو ما تسميه حجة رهن، إن لم يكن المقترض صاحب عمل ثابت أو وظيفة مؤمنة. ولهذا الغرض اقتنت هرَّةً وحاكت لها خرجاً يلائم حجمها، تضعها على ظهرها، وتضع في كل جهة من الخرج لوح صابون من صابون الفنادق بحجم حبة الشوكولا، ولكن بسماكة مليمترين وطول ثلاثة سنتم وعرض سنتمترين، ثم تقول للمقترض:

- عندي شرط ومن دونه لا أقرضك!
- شرطك مقبول يا حجة، اتفضلي!
- شرطي تشتري حمل الصابون اللي عا هالبسين.
- قديش حقو يا حجة؟

عندئذٍ تستخرج الحاجة سهجنان النسبة المئوية من المبلغ المفترض إقراضه، وهي في ذلك حصيفة، تبزُّ الخوارزمي في كل حساباته وزيجه، فإذا تحصلت لها النتيجة، عرضتها كثمن لحمل الصابون، ولا يكون أمام المقترض إلا الموافقة. مع تذكيرها الدائم أن كسر الفائدة يدوَّر لمصالحها، لأنها تخشى الالتباس والخطأ.

وما مِن مرّة سئلت، عن حليّة ذلك وشرعيته، إلا أجابت بصوت عالٍ واثق:

- ولو! بدكن تغيروا شرع الرحمن، الفايظ حرام، والبيع حلال، والشرط سيد الأحكام مش هيك قال رسول الله؟ يوه! شو بدكن تعلمونا عادينا؟ ما تنسوا أنا مرت الحاج عبدالرسول محمد الكرام.

كل ذلك والحاج عبد الرسول محمد الكرام، لا في عير ذلك ولا نفيره. وإذا سئل عن فعل زوجته اكتفى بالقول:

- هيدا مالها وهيي حرَّة فيه. وبالآخير كل عنزة معلقة بكرعوبها. شو بدكن فيها.

ورغم ادعائها حبها البالغ لأولادها صبياناً وبنات، فإنها أبت أن تمدّ يدَ العون لأحد منهم، واكتفت بالقول إن سألتها ابنتها أو ابنها إقراضها بعض المال، بأعلى صوتها، كزبيدة في فيلم بياع الخواتم: «يا حسرتي منلّلي!». فإذا ذكروها بأنها تقرض الناس بالفائدة، أجابت وعينها لا تطرف:

- هيدا مش مالي، أنا مكلفة فيه يا جماعة لناس ما بدن يظهرو عالشاشة. أنا مأمنة عاهالمال دخيلكن ما تفوتوني عا جهنم.

وإذا تدخل الحاج عبد الرسول متوسطاً ومسترحماً، أجابته بصوتٍ ذكوري حاسم:

- انت ارتاح يا حاج!

فيرتاح أكثر مما يجب.

عندما عادت وسيلة تحمل الرضيعة التي بدت سعيدة تكاغي وتناغي، تصدَّت لها الحاجة سهجنان بالقول:

- هاتيها لهون! ليش تأخرتي؟ شو بدو تغيير الحفاض؟ واللا كنت عم تتبلعزي عا راحتك جوا؟

- الله يسامحك يا مرت عمي! اتبلعز؟ سمعتو؟

- يا جماعة يا جماعة! ما بصير هيك، نكوزة عاطول.

- ولو يا عمي، أنا كنت عم نكوز واللا هيي؟

تأخرت نتفة، غيرتلها حفاضها وغسلتها، وحطيت حفاض جديد، ورضعتها. يعني معقول ضهر بزي ورضعها بيناتكن؟

- أستغفر الله.. أكيد لأ.

تحركت شهوة فضلو، فاتسعت عيناه، وأراد أن يقول شيئاً عندما بادرت الحاجة سهجنان بالقول:

- ما علينا هلق! اعطيني هالبنت يا وسيلة!

عندما احتضنت الحاجة سهجنان حفيدتها الرضيعة، عادت سيرتها الأولى بشقلبتها بين يديها، ورفعها حيناً وحطِّها حيناً آخر تهدهدها والرضيعة تضحك كأنها تطلب المزيد، ولم تبخل الحاجة بالمزيد، فراحت تقذفها إلى الأعلى هوناً ما، ثم تتلقفها وتغدق عليها قبلاً حافلةً بالحبّ الصّرف الصادق الصافي، قُبَلٌ مستغرَبةٌ لبالغ صدقها من امرأة لا تحمل لأمِّ الرضيعة معشارَ هذا الوداد الغامر.

- عمهلك عليها يا مرت عمي. هلق بتقلب معدتها!
- سمعتو هالحكيات يا جماعة! إجا ابن مبارح يعلم ولاد عمنوّل وأوّل.

يا بنتي ويا بنتي	غاب القمر وين كنتي
قومو زيحو من دربي	بدي ضبك بقلبي
خبتلك ستِّك علبي	لا سمعتي ولأ ما شفتي
قولو لْ خالي ولْ عمي	ولْ أخواتي ولْ أمي
بدي أعطيك اسمي	بحياة الله شو قلتي

نظرت وسيلة بغضبٍ خفيٍّ إلى زوجها فضلو، الذي أشاح بوجهه، متهرباً مما تحاول دفعه إليه. فلم يكن أمام وسيلة إلا أن تتصدّى للمهمة بنفسها.

- تسلم الاسم وصاحبتو يا مرت عمي. وتعيشي وتحمليه.
- عيش واحملو، وتعيش وتحملو، وأشارت إلى الرضيعة.
- ييه! فكرتك عم تمزحي يا مرت عمي، ما تفهميني غلط والله اسمك عراسي وعيني، بس ما تواخذيني الاسم صار عتيق شوي.
- عتيق؟ ولك هيدا اسم ملوكي، ما حدا بيسترجي يحملو إلا ما يكون قدّو. الله يرحمك يا بيي. لما خلَّفت بنت خالتو أم رشيد بنت، بعتتلو أمها مع فرختين طيبين، تستأذنو إذا فيها تسمي

البنت سهجنان. قام بيي، الله يرحمو، دفشها برات البيت، ورمى جوز الفراخ وراها، وهي ويلها تلمّ حالها عن الأرض وويلها تلحق الفروجين. وبيي يكعكر وراها بالدكش. ويقول عما يجيب صوتو: فرختين قال! والله لو بتجيب قِنَّك وقِنّ أمك ما بقبل! هالإسم مش إلكن. ياللا من هون.

- عراسي يا مرات عمي، ما حدا قال شي عن الإسم!
- اسمعي لقلك يا وسيلة! وانت يا فضلو فتّح دينيك، وتفضل يا حاج عبد الرسول امسك هالبنت.

ثم وقفت وسط الغرفة وشمَّرت عن ساعديها، وراحت تلوّحُ بالساعد الذي تطوّق معصمه المبرومة الشهيرة ١٣٥ غرام، شغل آغوب الأرمني بحلب، وما أسرع أن نزعتها من يدها، لتقرّبها من شفتيها، فتقبّلها قبلةً حارة وعميقة، ثم تضعها على الرضيعة بين يدي الحاج عبد الرسول، وصاحت:

- سمّوها سهجنان وهالمبرومة مباركة عليها.

وبأسرع من نزول المبرومة على الرضيعة، كانت ردّة فعل وسيلة، مع جحوظ واضح في عينيها، وانشداه واضح على وجه فضلو، ودهشةٍ صامتة تربَّعت على حاجبي الحاج:

- قرينا الفاتحة على نية التوفيق والموافقة يا فضلو؟!
- ق ق قرينا يا حياتي.

- شو قلت يا عمي؟

- بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين...

صباح اليوم التالي قطع الفضل عبد الرسول محمد الكرام تذكرة هوية لابنته البكر باسم سهجنان. ومنذ تلك اللحظة لبست الرضيعة اسمها الذي تمقت وستمقته طويلاً طويلاً، وأحست الحاجة سهجنان أنها تقيم، ولو بالاسم، مع كنَّتها تنكِّد عيشها ليل نهار، وضمنت لاسمها الجليل جيلاً جديداً.

لم يشرح أحدٌ لسهجنان الصبية معنى اسمها، ولقد أعياها السؤال والبحث عبر محرك البحث غوغل، فلقد جوجلت كثيراً، واستفهمت طويلاً دون جدوى. ومن أين لها أن تهتدي إلى معنى هذا الاسم الذي يبدو للوهلة الأولى أنه بالٍ عتيق، وأنه تركي المنشأ، بحكم كون المنطقة كلها كانت عثمليةً تماماً قرابة نصف ألفية من السنوات. وأكثر ما كان يربك في الاسم ذانك الحرفان الأولان «سه» فلم يلتقط سامع هذا الاسم إلى حروفه الأربعة الأخيرة «جنان». وحدها سهجنان الصبية، على سطحيتها، وبرغبة الفرار من براثن الاسم نفسه، انقضّت على حرفيه الأولين، فقطّتهما واكتفت بما تبقى لتصبح «جناناً» حسب. وكان أكثر ما يغيظ الجدة سهجنان، أن تُنادى حفيدتها باسمها المبتور جنان، وتنشب المشادّات العائلية الصعبة والتي تمتد ساعاتٍ طويلةً، ويتخللها الصياحُ والعويلُ، والمطالبة باستعادة المبرومة إلى صاحبتها، ما لم تعد الأمور إلى نصابها تبعاً للاتفاق الموثّق بقراءة الفاتحة من تلك الليلة الباردة، في الأيام الأولى لولادة الطفلة التي نُكبت باسم سهجنان لقاء مبرومة وزنها ١٣٥ غراماً. وما كان ينتهي الصياح والعويل حتى يحضر الفضل والد سهجنان إخراج القيد العائلي، ويريه للحاجة

سهجنان إثباتاً لالتزامه بالاتفاق. ولأنَّ الحاجة سهجنان تجهل القراءة والكتابة، كان على الحاج عبد الرسول أن يؤكّد صدق المدوَّن على إخراج القيد الذي تصرُّ الحاجة على الاحتفاظ به، كما كانت تطالب كل ستة أشهر بإخراج قيد عائلي جديد لابنها الفضل، ومن ثم تعرضه على من تثق بهم من معارفها، ولا سيما مدير فرع مبكو وفرع سريدار بنك في شارع عزمي، وذلك قبل أن يُفلسا، أواسط الثمانينيات، وتصبح ثروة الحاجة أثراً بعد عين. وقد وقعت في حيص بيص. فهي من جهة لا تعرف ما الذي عليها فعله، وساسةُ المصرفين لم يكونوا راغبين في مساعدتها، فلقد تحملوا جهلها طويلاً ووقاحتها أيضاً، وقد آن أوان الانتقام، بعدما شربوا كأسه حتى الثمالة، كما أن الحاجة لم تكن قادرة على إعلان مصيبتها لأحد من أولادها، خشية الشماتة، فآثرت أن تتجرَّع الغصص المرّة، مما عجّل في أجلها لاحقاً، ولم تجدها زياراتها اليومية إلى المصرفين المقفلين نفعاً.

بعد سنوات عديدة، وعندما تنتقل روح الحاجة سهجنان إلى باريها، وكان لا بدّ من استحضار حصر إرث، تبين أنها تملك أسهماً كثيرة في المصرفين المذكورين، بحكم قاضي التفليسة؛ أسهمٌ تكشَّفت عن خداعٍ موصوف تعرضت له الحاجة سهجنان، حيث عُلِّقت هذه الأسهم إلى حين موافقة الحاجة عليها، ولم يجد قاضيا التفليسة وسيلة للوصول إلى الحاجة سهجنان، فهي لم تترك في أيٍ من المصرفين

عنواناً. لم يكن في ملفها إلا صورة عن هويتها. وما كان أحَدٌ مضطراً إلى البحث في سجلات قيود النفوس، للاستدلال على مكان إقامتها الفعلي، لا المسجل في سجل القيد. ولما كانت الحاجة بدون عنوان فعلي، اكتفى قاضيا التفليسة، بتبليغها لصقاً على بابي المصرفين، والحاجة كانت تأتي إلى المصرفين يومياً، ولكنها لم تكن تعرف القراءة والكتابة، فكانت كالأطرش بالزفة، وكان التبليغ على باب المصرف، شبيهاً بصحيفة المتلمس الشاعر وابن أخته طرفة بن العبد أحد شعراء المعلقات في الجاهلية، فكلاهما حملا صحيفة بقطع رأسه إلى والي الحيرة، فيما كانا يأملان الجائزة والمكافأة. وكذا الحاجة مع فرق أنها لم تحمل صحيفتها – تبليغها بل كان تبليغها تحت ناظريها، وهي لا تدري من الأمر شيئاً. ولأنها كانت قليلة الثقة بمن حولها، فلقد ضاعت ثروة، أفنى الحاج عبد الرسول ذاكرته ومخيلته ومبالغاته في جمعها حكاية إثر حكاية، ومما زاد في الطين بلَّة، أن موزِّع الخبز، وسمسار ديون الحاجة سهجنان بالفائدة للفقراء والمحتاجين، قد اختفى دون سابق إنذار، بكل سجلات الديون التي كان يجمع فوائدها للحاجة البائسة، ولم يتبق لها من ثروة العمر إلا ما كان بين أيدي معارفها وجيرانها، مما عجَّل بكآبتها ومن ثم موتها.

وإذْ لم يتم تبليغ الحاجة حسب الأصول، لجهلها وقلة ثقتها بمن حولها، ولعدم رغبة المصرفين في استفراغ الجهد للعثور عليها،

أحيلت صكوك أسهمها على الحفظ، وعندما اكتشف الورثة ذلك، بعد سنوات عديدة، تبيّن أن إحياء الحق، يستدعي عملاً قانونياً كبيراً ومعقداً، وامتنع معظم كنائن الورثة والأصهار، عن توكيل أحد ورثة الحاجة للمراجعة، كما امتنعوا عن دفع حصتهم من الرسوم الواجبة عليهم لإحياء المعاملة، وتحويل قيمة أموال الحاجة إلى أسهم محققة ذات قابلية لتحويلها مرّة أخرى إلى مال. وهكذا، وبين أخذ وردّ، ومناكفات، واتهامات الأصهار والكنائن بعضهم لبعض بتبييت الخديعة، بقي الأمر على حاله، والغريب، أن الورثة الفعليين من بنات وأبناء الحاجة، كانوا ينصاعون كلٌّ لزوجها أو زوجته، وهم ليسوا من الورثة أصلاً، فبقيت أوراق التبليغ ميتةً تنتظر من يحييها، أو مَنْ يضع عقل الرحمن في رؤوس الجميع لإحيائها وهذا ما لم يحدث بتاتاً.

وبات هذا الموضوع عامل شقاق في أسرةٍ كانت هانئة وادعة ذات مرّة، وتفرقت أيادي سبأ، حتى أن الحاج عبد الرسول، وقبل أن يفقد الحاجة سهجنان، قد بدأ يفقد مكانته كراوٍ طبقت شهرته الآفاق، ذلك أن انتشار التلفزيون قد حكم عليه بالصمت شيئاً فشيئاً، حتى أسكته نهائياً، فاكتفى بالانغلاق على نفسه في شيخوخته، يهذي، ويروي لنفسه القصص التي تطول وتمتد وتتعقد ولا تنتهي، وبدا أنّ الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام نفسه لم يعد يعرف الوقائع الحادثة من البدائع المتخيلة في معروضاته التي لا تنتهي.

بدأ الحاج الأريب عبد الرسول محمد الكرَّام يفقد السيطرة على أعضائه كلها، وباتّ يرتجف، ولا يضبط سائلاً يتسرّب من بين ساقيه، أو لعاباً يغسل لحيته الخفيفة وينحطّ على ملابسه. ناهيك بإفراغ أمعائه دون إنذار مسبق، وبدون ميقات محدد، حتى أن كنته وسيلة كانت تقول على سبيل الطرفة:

- صار بدنا ميقاتي لوضع زيجٍ ملائمة لانفلات أمعاء الحاج الدقيقة والغليظة.

وقد أثار ما نزل بالحاج عبد الرسول من تدهور في حالته مناكفاتٍ لا أوّل لها ولا آخر بين البنين والبنات، فكلّ كان يتذرع للتنصّل من مسؤولياته تجاه الحاج، بالإشارة إلى المبرومة وزن ١٣٥ غراماً.

- يتفضل يخدمو اللي أخذ مصرياتو!

ولقد تفاقم وضع الحاج عبد الرسول سوءاً وتدهوراً، إلى حدّ أنه بدأ يتقلَّص حجماً، وادعى البعض أنه قد خسر من طوله عدّة بوصات، فلم يعد ذلك الرجل الطويل القامة المهيوب، واستحال شيئاً فشيئاً بحجم خروف أعجف قائم على جذع الحياة الأجوف.

ولم يتفق الجميع إلا على أمر واحد هو نقل الوجيه الأريب الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام إلى مأوى دار العجزة، بعد أن ساءت حالته وباتت إقامته بينهم ويلاً حقيقياً للجميع، ووجعاً مذلاً للحاج وكرامته، وما عاد أحد من أولاده يلتزم ببرنامج إقامته الدوري بين الأبناء

والبنات. فإذا ما جاء دور هذا الإبن تخلَّف يومين لأخذه من دار أخيه أو أخته، بحجة أن السيارة معطَّلة، ولا يستطيع المجيء لنقله. وذاك يحتج بامتحانات الأولاد، وتيك تحتج بالحرص على صحة الحاج، لأن الانفلونزا قد ضربت أفراد الأسرة جميعاً!

ظنّ الجميع أن نقله إلى مأوى العجزة أمر سهل، لكن الأمر كان غير ذلك تماماً، أولى العقبات أن روضة المسنين في طرابلس كانت متخمة للغاية، فهي تتسع لعشرين سريراً وهي جميعها ملأى، ويجب وضع الاسم على لائحة الانتظار التي قد تطول سنين وسنين. اقترحت وسيلة على الفضل ليقترح على إدارة الروضة، أن يتكفَّل أبناء الحاج بإحضار سرير له. لكن إدارة الروضة كانت قاطعة، لا توجد غرفة لوضع سرير فيها.

- يحطُّو بالكوريدور! قالت وسيلة.

رفضت الإدارة هذا الاقتراح الجريء، وعقبت المديرة:

- حطو عندكن بالكوريدور. استحو هيدا ابوكن.

شعر الجميع بالخزي، ولكن الواقع كان أثقل من كل خزيٍ، فبلعَ كلٌّ الإهانة، وشرب بعدها ماء القحَّة، واستقروا على تبادل التهم بعضهم ضد بعض، وتطايرت فوق الرؤوس عروض الحال في الجلسات الطويلة لمناقشة الوضع، معلناً الجميع تنصُّلَهم من تحمل وضع الحاج عبد الرسول محمد الكرام الذي لم يعد محمولاً قط.

فليقل الناس ما يشاؤون، ولتلُك الألسنُ سمعتهم وكرامتهم، فكلاهما أهون من تنظيف إفرازات معدته التي تعمل دون توقيت محدّد، وأخفّ من سيلان لعابه المتواصل، حتى باتوا يطوقون عنقه بالأكياس النيلون المعدّة للخبز بعد أن تفرغ من الخبز. وهنا نشأت معضلة جديدة، فإذا كانت أكياس النيلون قد حفظت سترة الحاج عبد الرسول من بلل اللعاب السائل، فإنها لم تحمي بنطاله، وما زاد في الطين بلة أن اللعاب كان ينزلق دائماً على النيلون فيصل إلى السجادة بين قدميه. مما كان يثير الكثير من القرف في نفوس مَنْ يقيم بينهم الحاج تبعاً لنظام الدور بينهم. ولطالما، تعالى الصياح بين الكنَّة والابن، أو الصهر والابنة، وكلٌّ يريد لهذا النتن أن ينتهي، فكان إصرار الجميع على التواصل مع مأوى العجزة في بيروت. فتمَّ تكليف الفضل الذهاب إلى بيروت لمعرفة ما يجب عليهم إعداده من وثائق لإدخال الحاج عبد الرسول الكرام إلى مأوى العجزة. وتمّ الاتفاق على تقاسم نفقة ذهاب الفضل إلى بيروت.

ذهب الفضل إلى بيروت، واكتشف أن إدخال أبيه مأوى العجزة أصعب من تسجيله في الجامعة. فالأوراق التي تطلبها إدارة المأوى لها أولٌ وليس لها آخر. فهناك إخراج قيد فردي وآخر عائلي، وإفادة مختار تؤكد سوء حالة الحاج الاجتماعية، وإفادة طبيب تبين واقع حالته الصحية، وإفادات من الضمان الاجتماعي لكل فرد من أبناء وبنات الحاج والأصهرة والكنائن للتأكّد من أن أحداً منهم لا يستفيد

عن اسم الحاج. كذلك يجب إبراز إفادة من الدوائر العقارية تبين أن لا أملاك مسجلة على اسم الحاج عبد الرسول، وإفادات مصرفية، تظهر أن لا حسابات جارية أو توفير باسمه، وهذه أعقد الإفادات، لأنه من الصعوبة بمكان الركض من مصرف إلى مصرف لإحضار إفادات في هذا الشأن، وإدارة المأوى تركت هذا النوع من الإفادات ملتبساً لجعل الطلب ناقصاً، وبالتالي لا يمكن درسه والبتّ بشأنه، لأن الواقع يفترض، أن يوقع صاحب العلاقة أو مَن ينوب عنه على إفادة تفيد أنه لا توجد أية حسابات مصرفية باسم مقدم الطلب للانتساب إلى جامعة مأوى العجزة.

وفوق ذلك تطلب إدارة المأوى ثبتاً بعناوين الأبناء والبنات وذوي القربى، ويشترط أن يكونوا من المقيمين، كلهم أو بعضهم في شعاع لا يبعد عن المأوى أكثر من عشرة كيلومترات. ولا بدّ من مرجعية سياسية ضامنة لقبول الطلب ودعمه لإنفاذه.

تدارس الجميع الأمر، وأبدوا أسفهم لعجزهم عن قذف أبيهم بعيداً إلى المأوى من دون كل هذه التعقيدات وتكاليفها. وبالطبع، اختلفوا عندما وصلوا إلى دفع ما يتوجّب عليهم للفضل مما أنفقه ذهاباً وإياباً. فجرى نقاش عقيم حول النقليات من طرابلس إلى بيروت والعكس. واتهموا أخاهم الفضل بتحقيق المكاسب والأرباح من وراء هذا المشوار، واعترضوا على ذهابه بنقليات الأحدب، بدلاً من الفان، كما

اعترضوا على تنقله في بيروت بالسرفيس بدلاً من الفان أيضاً. وأبوا أن يحتسبوا أي بدل انتقال للفضل من منزله إلى ساحة التل، ومن ساحة التل إلى منزله. أما الاعتراض الأكبر فكان على صحن الحمص بطحينة مع اللحمة المفرومة المقلية، واحتج أحدهم: «ليش فلافل خليفة من شو بتشكي». وأثار فنجان القهوة زوبعة من الرفض بحجة أن القهوة مشروب منزلي، والفضل في مهمة رسمية لا في نزهة على حساب الآخرين. فانفضّ الاجتماع إلى لا شيء، وأبى الجميع إلا احتساب المصاريف على أساس الفان والفلافل - ساندوتش واحد ومن دون أية مرطبات مرافقة - مع الرفض الباتّ للقهوة وبدل الانتقال من بيت الفضل إلى ساحة التل، ومن ساحة التل إلى البيت.

ستمضي أسابيع عديدة، قبل أن ينفلق الجميع من وضع الحاج عبد الرسول المتدهور. ففوق سيلان الفم والفقحة والدندولة، بدأ الحاج عبد الرسول يصدح في ساعات الليل والنهار بتمثيل حكاياته بصوت جهوري متقطع، ولم يتمكن أحدٌ من إسكاته. فتداعوا إلى اجتماع جديد، أبى أن يحضره الفضل وزوجته، كما أبيا استقبال أحد منهم، حتى يسددوا له ما أنفقه في رحلته المشهورة إلى بيروت بناءً على حساباته ولم يجد هؤلاء بداً من الموافقة. فجاؤوه بخمسة وعشرين ألف ليرة فرق الاختلاف بينهم. إلاّ أن وسيلة، حدست بضعف موقفهم، ففرضت عليهم دفع ثلاثين ألف ليرة بدل عطالة الفضل،

فتمنعوا بضعة أيام لكنهم عادوا صاغرين، بعد أن فشلت مفاوضاتهم لتخفيض المبلغ إلى الثلث أو النصف أو الثلاثة أرباع. وكان مما زاد في قوة موقف الفضل ووسيلة أنه ما زال أمامهم لاستقبال الحاج عبد الرسول في منزلهم، أربع بنات وابنان، تبعاً للدور المتفق عليه بينهم، أي ما مقداره ثلاثة أشهر ونيف، حيث كان الاتفاق، أن يعيش الحاج عبد الرسول أسبوعين عند البنت وثلاثة أسابيع عند الصبي من عقب الحاج عبد الرسول.

واجتمعوا أخيراً في منزل الفضل، فجرت مماحكات ولياقات فارغة، قبل أن يبدأ الكلام الجاد، وزبدته، تحت إصرار وسيلة، تكليف الفضل إيجاد السبيل الناجع لإدخال الحاج عبد الرسول مأوى العجزة في بيروت، وبناءً عليه، اقترحت وسيلة، أن يدفع كل ولد من أبناء الحاج عبد الرسول للفضل مئة دولار، وكل بنت مئة ألف ليرة، ما مجموعه خمسماية دولار وستماية ألف ليرة، خمسة صبيان وست بنات، والمهلة اسبوعان لنقل الحاج إلى المأوى في بيروت.

امتعض الجميع من عرض وسيلة، كما استغربه الفضل نفسه، وما كان يدري ما الذي يدور في رأسها. وقد حاولوا مراراً تخفيض المبلغ، فأبت وعصَّبت: «ادفعوا متل ما عم قلكن، أو متل ما بدكن! خليكن قحطوا خرا لتقوم الساعة».

فكان أوّل الموافقين الكنائن والأصهار، ثم تلاهم الأبناء والبنات،

بعد أن اشترطوا أن تُعاد إليهم أموالهم، إذا لم يوفق الفضل إلى إدخال الحاج عبد الرسول المأوى خلال المدة المحددة.

تم الاتفاق وتليت الفاتحة بعد أن سدَّد كلٌّ ما عليه دون زيادة أو نقصان.

نظر الفضل إلى وسيلة بعد أن انصرف الجميع، بغرابة مستفهماً خطتها فاكتفت بأن قالت له:

- الصباح رباح.

مضى الفضل إلى النوم، فيما كانت وسيلة تضع المال الذي جمعته من بنات وأبناء الحاج عبد الرسول في محفظة يدها التي تخفيها في خزانتها الخاصة، ثم راحت تكوي قميص الفضل الأبيض الملائم لبذلته الرمادية.

أيقظت وسيلة الفضل عند السادسة صباحاً، ودفعته إلى الحمَّام ليغتسل وليحلق ذقنه، ففعل دون تردُّد. وعندما خرج وجد قميصه الأبيض المكوي وبذلته الرمادية على السرير وفوق القميص ربطة عنق سوداء. فارتداهما، وما أسرع أن جاءته بحذائه الأسود ملمعاً على غير عادته، وقد فركته بقماشة مغمسة بزيت غندور دوار الشمس، ومعه جوربان أبيضان نظيفان، وحزام أسود لُمّعَ أيضاً بزيت غندور دوار الشمس.

استدعت وسيلة الفضل، فوقف بين يديها كالطفل الصغير، وهي

تسرِّح شعره، ليبدو رجلاً محترماً، كما قالت له، ثم رشَّت عليه من قنينة oldspies رشّةً خفيفة، وأمرته أن ينتظرها في غرفة الجلوس، فصدع لأمرها، لكنه، بعد أن سار خطوات، عاد يسترق النظر إليها وهي تضع ملابسها، فأماته عُريُها، وإتقانها في شدِّ جواربها وحمالة صدرها، قبل أن تضع فستانها المزهَّر الأزرق الذي يصل إلى منتصف ساقيها. حاول الفضل الدخول ليحظى بنظرة عن قرب، أو لمسة تشدُّ رجولته، فنظرت إليه بعتبٍ، فأطرق، فحنَّت له:

- شدِّلي السحَّاب يا فضلو!

طار إليها كعصفور على أغصان شجرة توت ناضجة الثمر. قبَّل بحنان ولطف خرزات ظهرها، فاقشعرا كلاهما.

- بس! روح عا اوضة القعدة!

ففعل، فيما أكملت وسيلة لبسها، وإتمام زينتها، فوضعت قرطيها الذهبيين، وعقدها الأزرق الغامق من الخرز الممتاز، ثم اختارت خاتماً فيه حص فيروزج، وأخيراً وضعت مبرومة المرحومة الحاجة سهجنان في معصمها الأيسر. وأزلقت قدميها في سكربينتها الزرقاء. قبل أن تضع على كتفيها وشاحاً من الساتان الأزرق الزلق. وسارت إلى غرفة الجلوس لتجد فضلو يتابع عرض أزياء عبر محطة Fashion.

«متل العادة يا سعادة، ما بتركك تالاقيك نقلت التلفزيون عامحطة الفخاد. وقاف».

فوقف. وضعت لمستها الأخيرة على إطلالته، فأعادت تسريح شعره بأناملها، ودقَّقت في إحداثية عقدة ربطة عنقه، وركّزتها في نقطة الوسط بين المثلثين المقلوبين لياقة قميصه الأبيض، ثم زرَّرت سترته تماماً.

- الحقني!
- لوين يا وسيلة؟
- هلأ بتعرف.

عندما استقرا في عربته، ماركة داتسون موديل ١٩٧٥.

- دربك بوجك عابيت الرئيس كرامي.
- خافي الله يا مرا. الساعة سبعة إلا ربع الصبح!
- بدي ضل علِّم فيك. الرئيس كرامي بيستقبل صحاب الحوايج الساعة سبعة.
- والله! مش عارف. بس شو بدنا نعمل عندو، نفضح حالنا قدَّامو؟
- لأ يا نور عيني، بعدكن مش مفضوحين انت واخواتك؟! سوق، وهونيك ما تفتح تمَّك إلاّ بالسلام، واترك الباقي عليي.
- حاضر.

وصلا إلى صالون دولة الرئيس، فانتظرا قليلاً، قبل أن يأتي من يسألهما عن الاسم والحاجة. أجابت وسيلة:

- قوللو لدولة الرئيس انو الفضل ابن عبد الرسول محمد الكرّام هو ومدامتو قاصدينو بخدمة زغيرة.

بدأ صالون دولة الرئيس يكتظ بذوي الحاجات. وفي حدود الساعة الثامنة، أدخلهم أحد العاملين إلى مكتب دولة الرئيس الذي استقبلهم بترحاب ظاهر، ومودة حارة.

- يا أهلاً، يا أهلاً: كيفو الحاج عبد الرسول شيخ الحكواتية بلبنان مش بطرابلس بس.
- بيسأل خاطرك، يا دولة الرئيس.
- سلمولي عليه، كيفو، بعد منيح، وبعدو بهالشغلة؟

بالطبع كانت وسيلة ترد، والفضل، يصغي، ويبتسم ويهزّ رأسه موافقاً على كل ما تقوله، وكان الأفندي دائماً يتوجه بالكلام إلى الفضل، وكانت وسيلة تجيب، مما لفت نظر دولة الرئيس، فعلّق بطرافته المعهودة:

- شو قصتك يا فضلو، تمّك محمًا، تارك الرد للمدام، فتلقفت وسيلة تعليق الأفندي لتقول:
- ما تواخذو يا دولة الرئيس، مخجول، ومش عارف كيف بدو يطلب منك هالطلب.
- خير! احكوا ما تستحو.
- القصة وما فيها أن الحاج عبد الرسول ضيَّع، وصار عم يهرهر من فوق ومن تحت، أجلَّك الله.

- بيبه بيبه! شو هالحكي. زعلتوني والله، وأنا شو فيني اعمل تا ساعد؟
- معلومك يا دولة الرئيس أن الحجة سهجنان مرتو للحاج، عطتك عمرها من ثلاث سنين، وانت شرفتنا وكبرتنا وجيت وأخدت بخاطرنا.
- أقل الواجب. أقل الواجب. ولو.

وبتعرف الوضع، ما حدا قدران يخدمو، بدو شخص مفرَّغ لإلو. والكل بأشغالن، وولاد ومدارس.. وشو بدي قلّك.

ثم شرعت في النحيب الخافت، وتابعت:

- والله، والله حالتو بتفتفت القلب، وأنا محروقة عليه، عم يتبهدل يا دولة الرئيس.
- لا حول ولا قوة إلا بالله. ما بصير هيك يا جماعة.
- بعرف يا دولة الرئيس، والله ما حدا قدران يخدمو بدو اختصاصية.
- مزبوط.

حاولنا نفوتو عا روضة المسنين هون، ما عندن محلات، رحنا عا مأوى العجزة ببيروت، طلع انو أهون نفوتو عالأمم المتحدة من انو نفوتو عالمأوى. فقصدنا الله وقصدناك.

- عا راسي والله! وين بتحبو تفوتو عالروضة أو عالمأوى. أنا حاضر!

حاول الفضل أن يفتح فمه، فسبقته وسيلة:

- والله يا دولة الرئيس، منشان وضعو، المأوى ببيروت أحلن.
- ما بصير بعيد عليكن بالزيارات؟
- والله عذاب الزيارات يا دولة الرئيس أهون من كل شي، بتعرف المأوى ببيروت في عندن حكما وممرضات ورعاية كل الناس بتحكي عنها.
- صحيح. إذا بدكن المأوى. يا اللا. خلدون طلبلي مدير مأوى العجزة ببيروت.

عندما تحدث دولة الرئيس مع مدير الدار، كان واضحاً أن الحاج عبد الرسول محمد الكرام أبو الفضل بفوت بكرا عالمأوى، وأوضح للمدير، ليس المطلوب من الحاج عبد الرسول إلا تذكرة هويته، وأن يكتب على ملفه، خاص دولة الرئيس «بهمني أمرو كتير».

بعدها وقف دولة الرئيس ليصافحهما، وسار معهما إلى الباب، ولم يتخل عن طرافته اللمَّاحة المعهودة، حيث نظر إلى وسيلة وهو يمسك كفها براحتيه:

- نزلو بكرا، واسألو عن عبد الرحمن بمكتب الدخول. محلولة إن شاء الله.
- تبقي سلميلي على فضلو هههه.
- فضحكت كما ضحك الفضل كغلام لا يرعوي.

لم يكن في بال الفضل، عندما غادرا مكتب دولة الرئيس في الطبقة الأرضية من منزله، سوى سؤال واحد:

- مش احسنلنا الروضة من المأوى ياحياتي؟
- الله يساعدك يا فضلو، ما بتشوف أبعد من منخارك! بالروضة كل ما دق الكوز بالجرّة، بيتصلو فينا. ولو ما عطيناهن عناوينا وتلفوناتنا. بيكفي يسألوا عن أهل الحاج عبدالرسول محمد الكرَّام، مية ألف واحد بدلن عليك وعلى إخوتك. وبتبلّش المطالب: كيس حفاضات، قناني مي للشرب، دوا للقلب، دوا للإسهال. الروضة ما فيها مصاري. جيبو.. جيبو.. أما تعو خدو بيكن! شو منعمل؟ منرجع لعند دولة الرئيس؟ ويمكن يجي رئيس حكومة غيرو ما منعرفو، ولو ضلّ دولتو بالحكومة، يعني معقولة نروح كل يومين نراجعو بكيس حفاضات؟
- والله معك حق، ما فكرت هيك، تسلميلي ما أذكاكِ! يا اللا، خلينا نروح نبرم على اخواتي، ونبلغهن شو صار.
- يبيه عليك، وعلى هالذكا. ولك بعدنا قابضين خمسمية دولار وستمية ألف. شو بدك ياهن يفتحو بواجيقن علينا، صبور، هالجمعة منقضيها نزلة عابيروت، منشم الهوا، ومنفرفش، ومنتسوق، وآخر الجمعة منقلهن تعقدت، اللي عم بعملنا واسطة تايفوت الحاج عالمأوى، بدو ألف ومية دولار، غير

اللي دفعناهن. منشان يعبيلو ملفو وراق وإفادات مطلوبة، خصوصي إفادات الضمان الاجتماعي، نحنا مندفع مية دولار والباقي عليهن، ألف دولار نقداً وعداً.

- معقول يدفعو يا حياتي؟
- بيدفعو، لا تخاف تركها عليي.
- بس دولة الرئيس قال لمدير المأوى. انو يفوتو بكرا.
- مزبوط! ونحنا بكرا نازلين عبيروت، نعطيهن صورة الهوية. ونحجزلو لبعد اسبوعين. بدي فصفصلك عضامن لأخواتك، كل يوم يهتوني بالمبرومة تاعت امك.
- الله يرحمها!
- الله يرحمنا نحنا، شو بدها امك بالرحمة هلق!

أيقظت وسيلة، كالعادة، الفضل عند الخامسة والنصف صباحاً، فقام سريعاً ليجدها في ملابس البيت العادية:

- فوت عالحمام أقضي حاجتك، وصوبن ايديك ووجك، وحطّ عليك جلاجيئك وامشي ورايي!

عندما خرج من الحمام سألها: أيَّا جلاجيء يا حياتي؟

- اللي بتلبسهن كل يوم لما ما بكون فاضيي هندسك يا شبشول!

قالت ذلك وهي تحمل كيساً كبيراً من محلات أوكسجين بيدها.

- ولَو يا حياتي!
- ولوين وتلاتي. خلصني يا للا!

في السيارة سأل الفضل وسيلة: لوين يا حياتي؟

- عبيروت.
- كنا رحنا ببوسطات الأحدب يا حياتي!
- يا نوري! معنا ستمية ألف ليرة وخمسمية دولار، تعلّم عالنعمة نتفة. بوجّك لعند قصر الحلو تبع الجلاّب.
- توكلنا على الله!

تحلّيا بحلاوة الأرز مع القشطة، بعد أن تناولا نصف دزينة من اللحم بعجين برقائق البقلاوة.

- والله ما كنت عارف انو لحم بعجين الحلاب طيبة هلقد وخفيفة عالمعدة.
- بعد بتعرف اكثر. اعطي إشارة عاليمين، وفوت عا محطة توتال. فوَّل يا معلّم.
- بتؤمري مدام، ٩٥ أو ٩٨.
- أيّا أحلا؟
- الـ ٩٨ أوكتان أنعم عالموتير.
- حطّ ٩٨.

ملأت خزان الوقود لسيارة الداتسن موديل ١٩٧٥ بخمسة وخمسين ألف ليرة لبنانية.

- يا ويلي! خمسة وخمسين ألف ليرة لبنانية. كتير هلقد.
- اسكوت! شو دافع من جيبتك. يا للا عا بيروت سحبة وحدة.

بلغا محيط مأوى العجزة عند الساعة التاسعة إلا ربع صباحاً، تدبرا مكاناً قريباً نسبياً من المأوى. سارت وسيلة في المقدمة، يتبعها الفضل باستسلام مطلق. لم يبحثا طويلاً للعثور على عبد الرحمن الدَّقة، الموظف المسؤول الذي كان ينتظرهما. عرّفته وسيلة بنفسها، وقدَّمت له صورة عن تذكرة هوية الحاج عبد الرسول. قلَّبها بين يديه، ثم سأل بامتعاض:

- بس؟
- اي بس، هيدي أوامر ابن خالتي!
- مين ابن خالتك من غير شر؟
- دولة الرئيس، حكي مع المدير مبارح، وقال خدولو صورة عن الهوية، واكتبو عالملف: خاص دولة الرئيس.

نظر عبدالرحمن الدقة بحذر وخشية، ثم راح يملأ بعض الفراغات أمامه على الأوراق، ثم كتب على غلاف الملف: خاص دولة الرئيس.. وأصرَّت وسيلة أن يضيف عبارة: يراجع دولة الرئيس في كل صغيرة وكبيرة فيما يختص بالحاج عبد الرسول محمد الكرَّام. لم يوافق عبد الرحمن، فرفعت صوتها، وطلبت منه أن تكلِّم المدير فوراً. تردَّد الموظف، ثم رفع سمَّاعة الهاتف، وطلب، ما اتضح أنه الدكتور محمد

- مدير المأوى - واختصر له الموضوع. فكانت النتيجة احمرار وجه عبد الرحمن ومن ثم اخضراره واصفراره، مكتفياً بالقول:

- حاضر.. حاضر.. ما تواخذني.

وانتهى الأمر بكتابة العبارة التي أرادتها وسيلة، كما حجزت للحاج عبد الرسول محمد الكرَّام الغرفة رقم (٣) من الطبقة الثالثة المطلة على حديقة المأوى في قسم العجزة حيث الاهتمام بنزلاء هذا الطابق على مدى الساعة.

- يا اللا وينو؟ قال عبد الرحمن الدقة.

- مين الحاج؟

- اي.

- بطرابلس!

ارتبك عبد الرحمن الدقة، ولم يعرف ماذا يفعل. فأعانته وسيلة بالإدعاء أن دولة الرئيس، طلب منهم التأكد من تسجيله وحفظ غرفته في المأوى، وهو بانتظار سيارة الإسعاف التي سيرسلها المأوى إلى طرابلس لإحضاره إلى بيروت، لأن حالته صعبة. فزاد ارتباك عبد الرحمن، ولم يعرف ماذا سيفعل. فكر قليلاً، ثم اتصل بالطبيب المناوب في المأوى، واختصر له القضية، مركزاً على أن الشخص المذكور من أنسباء دولة الرئيس، وأن سعادة مدير الدار، قد أمره بتأمين وضع الحاج تماماً، ومن دون مراجعة. أبلغه الطبيب المناوب أن توفير

سيارة إسعاف سيستغرق وقتاً طويلاً، بسبب استصدار أمر مهمة مع ممرض مختص.

قديش يعني وقت طويل؟ قالت وسيلة.

أعاد عبد الرحمن السؤال على مسامع الطبيب المناوب، فجاءه الردّ: مش أقل من أسبوعين.

- ولوه! معقول هالقد؟ طيب نحن اليوم الخميس ١٠ الشهر، يعني الخميس ٢٤ الشهر، بتبعتو الإسعاف؟

أعاد عبد الرحمن الدقة ما قالته وسيلة على مسامع الطبيب المناوب،والظاهر أن الطبيب قد تأكد من بعض التواريخ في جدولٍ أمامه ليقرِّر أن ذلك سيكون ممكناً نهار الأربعاء ٢٣ الشهر.

انفرجت أسارير وسيلة إلى أن طلب منها عبد الرحمن الدقة العنوان الذي سينقل منه المريض إلى المأوى في بيروت. حاول الفضل أن يقول شيئاً، إلاّ أنَّ وسيلة سارعت إلى إسكاته، وقد تفتَّقت شياطينها عن خطة محكمة:

- ما في لزوم للعنوان أستاذ عبد. نحنا منكون عندكن هون الأربعاء بثلاثا وعشرين الشهر الساعة سبعة الصبح، ومنروح سوا عطرابلس.

- يا مدام!

- لا مدام ولا شي. نحنا طريقنا معقدة، هيك منضمن الوصلة بدون عذاب.
- بس النزلة عذاب عليكن...
- عذاب الحاج راحة، الله يعافيه.
- طيب تلفون. إذا جدّ شي أو صار تغيير بالدليفري.
- شو دليفري. شو الحاج بضاعة. لهون وبس! طلبلي المدير بدي احكي معو!
- يا مدام. نحنا هون منستخدم هالكلمة لما نكون عم ننقل مريض. ما تواخذيني! الله يخليك!
- طيب! عطيني تلفونك. بحكيك أنا قبل موعد الدليفري بيومين.

فضحك الجميع ولا سيما عبد الرحمن الدقة الذي أعطاها رقم هاتفه الخلوي، ورقم المأوى مع الاكستنشن الموصل بمكتبه.

كانت السعادة تغمر الجميع عندما ودّعا الأستاذ عبد الرحمن الذي قال لوسيلة: «فيني نحكيكي إذا احتجنا شي من دولة الرئيس؟»

- اوعك تفكّر بشي قبل ما يقعد الحاج عبد الرسول بأوضتو ويمد اجريه.
- أكيد أكيد.

واندفعت وسيلة خارج المكتب، بعد أن أخذت إيصال الدخول وتاريخه: الأربعاء ٢٣ من الشهر الجاري، وبطاقة عليها اسم الحاج

عبد الرسول ورقم غرفته والقسم الذي سيكون فيه. مع مذكرة صغيرة تؤكد إحضار نصف دزينة صور شمسية للحاج عبد الرسول، لضمها إلى الملف، ولإلصاق واحدة على بطاقة انتسابه المأوى، وأخرى توضع على البطاقة التي يعلقها كل مريض في عنقه.

في طريق الرجوع توقفت وسيلة في ABC الأشرفية، حيث دخلت إلى حمام النساء واستبدلت ملابسها بما كانت قد أخفته في كيس اوكسجين الذي أحضرته من المنزل في طرابلس. عندما خرجت من حمام النساء، فوجئ الفضل، ولكنه لم يسأل، فهو يعرف أن أكياسها كعصا موسى تفعل الأعاجيب. تناولا الغداء في المطعم الطلياني، وشربا القهوة عند نجار كوفي، وتسوقت بعض الملابس الداخلية. ثم أكلا البوظة عند هاغندايز. قال الفضل إن «بوظة الدق بطرابلس أطيب وأرخص».

- كوول واشكور – ليش عمتدفع من جيبتك؟
- لأ! على فوقا. شو رأيك نطلّ عالبنات ما زالنا ببيروت، إلنا شهرين ما شفناهن.
- ارتاح، واترك البنات بحالن، هلا مشغولة بولادها وجوزها. وهويدا بشكًّا وما إلها خلاق عحدا، وجنان غيَّرت شغلها، ونقلت عاشقة جديدة.
- مين جنان؟

- الله عليك! شو مين جنان؟ بنتك.
- قصدك سهجنان.
- يا عمي هي بتكره هالاسم. احترم رأيها شي مرّة، كل مرة منقلك اسمها جنان، بترجعني عالاسم العتيق.
- هيدا اسم أمي الله يرحمها.
- امك. دخيل امك. كمان بنتك بتستاهل تدعيلها، خلِّصنا قوم عطرابلس!

قام دون أن يعلق، وإن كان ممتعضاً وحزيناً في قرارة نفسه.

وصلا إلى طرابلس بعيد الخامسة عصراً بقليل، ولجت من فورها إلى الحمَّام، واسترخت تحت رشاش الماء الدافئ، عندما انتهت خرجت بملابسها الداخلية الجديدة التي اشترتها من ABC الأشرفية، نظر إليها الفضل فانْشَدَهَ، واشتهى، وتلوّى على الأريكة، اقتربت منه، فحاول أن يلمسها:

- إياك! عالحمام بسرعة.
- بأمرك، بس خليك هيك ما تلبسي تيابك.
- تحرّك.

هرول إلى الحمام، وما أسرع أن سمع صوتها:

- فرفك حالك منيح وإلاّ.

عندما خرج من الحمام نظيفاً سعيداً غارقاً في أحلامٍ لازوردية، رأى

وسيلة حاملة الهاتف، فانتظرها ريثما تفرغ، وهي تضع رجلاً على رجلٍ بملابسها الداخلية الخمرية، فطاشَ، واقترب منها زحفاً، فأشارت بإصبعها التي وضعتها على فمها أن لا تتكلم، فراح يمرِّر يديه على ساقيها، وهي تفسح له، فتفرجهما قليلاً قليلاً، حتى إذا أوشك أن يبلغ المرتجى، أطبقتهما على يديه، فأصابته حرارة لذيذة، فاكتفى بتقبيل ما تيسَّر إلى أن دفعته برفق.

- اجمد! هلق حكيت مع اخوتك واحد واحد، وخبرتن انو خمسين بالمية من الأوراق أمَّناهن، بعد في الدوائر العقارية، والسمسار طلب ستمية دولار، وإفادات الضمان، كل واحد يجيب افادتو بنفسو، وإلا كل واحد بدو يدفع مية دولار، والسمسار بأمنهن. بقبرك إذا فتحت تمك بكلمة. خليهن يروحو يسألو بالضمان. بدن يجو زحف وكل واحد حامل مية دولار. وبعد بدي دفعهن أجار الإسعاف.

ثم وقفت ومضت باتجاه غرفة النوم قائلةً:

طفّي الضو والحقني.

مضى الأسبوع الأول، ووسيلة تلعب بأعصاب إخوة وأخوات الفضل الذين لم يكفوا عن الاتصال بها لاستعجالها إنجاز ما وعدت به، وهم أجمعون أبصعون قد وافقو على دفع مئة دولار إضافية لإنجاز المعاملات، ولا سيما إفادات الضمان، فلقد حاولوا، على ما يبدو، أفراداً وجماعات الاستحصال على الإفادات المطلوبة، فبدا أن دون ذلك خرط القتاد، فثمة بين الأصهار مَن يعمل في شكا بمعمل الترابة الوطنية، وبعضهم يعمل في بريد البترون، وآخر في معمل لذيذة للبيرة في الدورة ببيروت، وكل إفادة ينبغي أن تخرج من صندوق الضمان الذي يتبع له المضمون. وثمة بين البنات من تعلِّم في تكميلية المنية، وأخرى كاتبة في بلدية طرابلس، كما أن بين الإخوة من يعمل شرطياً بلدياً في القلمون، وآخر في مفرزة درك سبعل. ولم يكن بقدرة أحد معرفة طبيعة الإفادة التي تريدها الست وسيلة، فكلما أحضر أحدهم إفادة أخذتها منه، ثم انتظرت حتى صبيحة اليوم التالي لتبلغه عدم صلاحيتها، وأنها ليست الإفادة المطلوبة، أو أن العبارة المطلوب ذكرها غير متوافرة، تبعاً لإدارة المأوى، بحسب مصادر الست وسيلة التي كانت تتأفف، نفاقاً، من أنها تكابد الإتصال بإدارة المأوى للتأكد من صلاحية الإفادة،

وتدعي أنها تواصل إرسال هذه الإفادات «الفشنك» بالفاكس إلى إدارة المأوى التي ترفضها. فترميها الست وسيلة في وجوههم وهي تمثل حالة الغضب الشديد وتقول بصوت عالٍ:

شو مفكريني ما عندي شغلة غيركن. طالعة نازلة عبيروت وتلفونات وفاكسات، إلي جمعة مش حاملة مكنسة، بيتي صار متل المزبلة، بحلف يمين من جمعة مش حاطة طنجرة عالغاز. فلقتوني. تفضلو كل واحد يجيب مية دولار بكرا الصبح، وإلاّ أنا مش مسؤولة. بسحب ايدي.

بالطبع كانت وسيلة صادقة، فهي لم تكنس بيتها خلال ذلك الأسبوع، ولم تطبخ طبخة واحدة، فهي لم تترك في نفسها مطعماً لم تزره، أو متنزهاً لم تحط رحالها فيه، أو مركز تسوقٍ لم تفتك به غزواً.. إلا أن الذي يده في النار ليس كالذي يده في الماء. فلم يكن أمام الإخوة والأخوات إلاّ الصدوع لأوامر الست وسيلة، فدفع كل منهم حصته المحددة: مئة دولار، في تلك الليلة ولم ينتظر أحدٌ منهم صبيحة اليوم التالي.

وفي مساء الحادي والعشرين من الشهر جاء الإخوة والأخوات إلى منزل الست وسيلة وزوجها الفضل لسماع الأخبار السارَّة. ومما يجرح القلب، ويسيل دمع العيون أن ترى أولاد مَنْ أفنى عمره من أجلهم، يفرحون ويحتفلون لأن أباهم سيُرمى في مأوى للعجزة، وما كان ينقصهم سوى الرقص والغناء، ما أن علموا أن الأوراق قد قبلت، فكلها صحيحة ولا غبار عليها.

لو كان الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام يعي ما يجري في دارة الست وسيلة زوجة ابنه البكر الفضل، لفضَّل لو أنَّه كان بين الشاويش أبي دعاس وابنته وطفة لتصبيه الطعنات. فما أحرى هذه الحياة بالموت إذا كان هذا مآلها مذلة وتخلياً! ومن نعم الله أحياناً على الإنسان أن يردَّه (إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علمٍ شيئا) وإلاّ فما الذي كان سيفعله الحاج عبد الرسول محمد الكرّام لو كان يعي ما يدور حوله، لقد قضى هذا الرجل الطيب الذكي عمره يكدُّ بيده طوراً، وبلسانه أطواراً كثيرة ليؤمِّن هذه العائلة الكبيرة المؤلفة من ست بنات وخمسة صبيان فضلاً عنه وعن زوجته المرحومة الحاجة سهجنان، ثلاثة عشر نفراً عاشوا مكرمين كأحسن ما يعيش أواسط الناس، بل كانوا في الطبقة الأقرب إلى ما فوق الوسط؛ وما كان أحدٌ يرد للحاج عبد الرسول محمد الكرام طلباً، فوظفهم جميعاً صبياناً وبنات، حتى الفضل ابنه البكر، وظفه في دائرة الأحراج التابعة لوزارة الزراعة، حيث يقبض ولا يداوم ولو ساعة واحدة في الشهر، اللهم إلا تلك الساعة التي يلتقي فيها معتمد القبض في سرايا طرابلس لتقاضي راتبه، وماذا كانت النتيجة؟ لا شيء. يُرمى الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام كمتاعٍ بالٍ قديم، على بعد عشرات الكيلومترات من مسقط رأسه، كي يتسنى للجميع الاحتجاج بالظروف الأمنية في بلد مرتجٍّ أمنياً دائماً، فلا يزورونه، ناهيك بادعاء ضغوط العمل، والمشاكل العائلية، والإنسان عموماً يبتكر المسوِّغات

حين يشاء، ويبرزها صلبةً متينةً، كلَّما تجرَّد من التزاماته الأخلاقية والإنسانية. فهو، والحق يُقال، بارعٌ فنَّان في التخلّي عن التزاماته، وفي عينيه دمعة، وفي صوته حشرجةٌ عاطفية، يتوخّى منهما إقناع نفسه لإراحة ضميره، قبل إقناع المستمعين إلى أعذاره الكاذبة.

بعد أقل من ست وثلاثين ساعة سيُحمل الأريب الأديب الحاج عبد الرسول محمد الكرّام في سيارة إسعاف تابعة لمأوى العجزة في بيروت، ولن يكون في وداعه أحد إلاّ وسيلة والفضل وشهدا معلمة المدرسة ابنته الرقم أربعة من سلسلة أبنائه وبناته. شهدا التي أضيف اسمها إلى مرسوم تعيين المعلمين سنة ١٩٨٧ بقلم أحد الوزراء المطلوب توقيعهم على المرسوم، بطلب شخصي من الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام. شهدا هذه التي تشهَّدت ما إن مُدِّد الحاج في الإسعاف وأُطبق بابُها الخلفي.

- أشهد أن لا إله إلا الله.

وانكبت على وسيلة زوجة أخيها البكر الفضل تقبّلها وتشكرها، لأنها أنقذتها من باقي مدة إقامة والدها الحاج عبد الرسول في بيتها.

قبل أن تستقر الست وسيلة إلى جانب سائق الإسعاف، التفتت إلى الفضل وقالت بسعادة غامرة.

اسبقنا عالمأوى. بشوفك تحت، بمكتب الأستاذ عبد الرحمن، الذي أنهكته وسيلة اتصالاتٍ وتلميحات تهديدية، إلى أن تحقق من

تثبيت موعد انطلاق الإسعاف مع الممرض والسائق صبيحة يوم الأربعاء في الثالث والعشرين من الشهر الجاري، ولا بأس في الإشارة إلى اتصالين أجرتهما بالسيد عبد الرحمن، وأمرت الفضل بالتكلّم معه بصفته رئيس مكتب دولة الرئيس، مما كان يرعب ذلك الموظف البائس بمكتب الدخول في المأوى.

ومن المناسب هنا ذكر مجريات الاجتماع العائلي في دارة الست وسيلة، عشية الثالث والعشرين من الشهر، حيث أبلغتهم وسيلة أن صباح الغد ينبغي نقل الحاج إلى المأوى.

- تفضلو مين بدو ينزّل بيو، أنا والفضل تكرسحنا وتكسَّروا اجرينا وسيارتنا طلعة ونزلة عبيروت! فلم ينبس أحد ببنت شفة.
- شو بكن تخرستو. سيارتنا صار بدها غيار اماسورات، وكوليه، شو الحاج بي فضلو لحالو؟ ما في قدامكن إلاّ طريقة وحدة، نستأجر إسعاف، المشوار عبيروت مش فشخة وفشختين!
- عال عال! منستأجر اسعاف. بس بقولو الصليب الأحمر بينقل مرضى ببلاش. قال شرطي البلدية الابن الأصغر للحاج عبد الرسول.
- تفضل يا بدري! حكيلنا مع الصليب الأحمر!
- مش قصدي، بس يعني.
- طيب! طلبت الرقم ١١٢ للصليب الأحمر، وأجرت حواراً

مصطنعاً على مسمع الجميع، أبدت فيه كل حنكتها أمامهم، ولكن النتيجة كانت سلبية، فهذه ليست مهمة الصليب الأحمر، ومركز طرابلس يتحرك في نطاق طرابلس فقط وفي الحالات الطارئة جداً فقط.

- شو أمرتو يا ولاد الحاج عبد الرسول؟ هيدا بيكن مش بيي!
- الرأي رأيك!
- همممم، بتدفعو تا اتصرَّف؟

لم يتحمس الجميع للدفع! عندئذ وقفت وسيلة وقالت بحزم:

- خلصنا! دبرو حالكن. أنا ما إلي خصة. واللي بيو عندو مسؤول عن نقلو للمأوى. لو كان عندي كنت تصرفت.
- دخيلك! صرخت شهدا. استحو يا جماعة اللي شرب النهر ما بغص بالساقية. دخل جريكي اتصرفي يا وسيلة!
- شو قلتو؟
- تصرفي.. تصرفي.. تصرفي..
- بتدفعو؟
- مندفع.. مندفع.. مندفع.

عندئذ أخذت التلفون وطلبت رقمها الخاص، ثم أمرتهم بالسكوت بإشارةٍ من يدها، ووقفت على مبعدة منهم، تبتكر حواراً، وتأخذ وتعطي، ترفع صوتها ليسمع الجميع ما تريد لهم أن يسمعوه، بعد أن شرحت القضية بطريقة تمثيلية موفقة.

- المهم شو بكلفنا؟ قالت وسيلة عبر الهاتف حيث لا أحد في الجهة المقابلة.
- سبعمية دولار! مستحيل!

جحظت العيون وبلغت الأرواح التراقي. كما حُبست الأنفاس وهم يستمعون إلى حنكة وسيلة في التفاوض المفترض.

- ليش يا خيي. شو رح تنقلو باللموزين عا اوتيل فينيسيا؟

آه معك حق يا خيي. إسعاف وفيها ممرض مختص وشوفير، وبدو يجي سكارسا من بيروت لطرابلس روحة رجعة؟

يعني المشوار ٣٥٠ دولار؟

لا حول ولا قوة إلا بالله!

يا ابن الحلال. نحن جماعة فقراوية، وهيدا الحاج ما إلو حدا وأنا عم إحكي عن قرايبينو، ببوس ايدك.

يا ابن الأوادم، والله العظيم عم نعملو لمّيّة، خلي النص عليك والنص علينا، الله يخلي ولادك.

يطول عمرك! الله يخلي ولادك! ممنون عينك، إن شاء الله منكافيك بفرحة ولادك.

بعدك عزابي؟ إن شاء الله منفرح منك.

عندما أقفلت السماعة، منهيةً هذا الحوار الافتراضي، التفتت إليهم:

- تفضلو. كل واحد ثلاثين دولار، وشهدا بتدفع خمسين.

- ليش يا مرت خيي؟
- لأنو بيك عندك والزلمة، مثل ما شفتي بسنالو بيضاتو تا قبل ينزّل من السبعمية للثلاثمية وخمسين، نحن حداعش كل واحد عليه ٣٠ دولار بيطلعو ٣٣٠ بضل ناقصنا عشرين دولار. شو بدك يعني ندفع كل واحد دولار وخمسة وتسعين سنت، استحي واحمدي ربك.
- خلصنا! خلصنا. بدفع خمسين تكرمي.

بلغ مجموع ما تقاضته وسيلة من أبناء وبنات الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام ألفاً وتسعماية وخمسين دولاراً وستماية ألف ليرة لبنانية، ولم يكلفها ذلك سوى زيارة واحدة لدارة دولة رئيس الحكومة الطرابلسي، وتمّ لها النجاح ببركات الحاج عبد الرسول نفسه، فشهرته في طرابلس والشمال قد طبقت الآفاق على مدى أربعة عقود، وها هي آخذة بالضمور والنسيان منذ أربع سنوات، ولن يمضي وقتٌ طويلٌ قبل أن يصبح الحاج عبد الرسول وأخباره أثراً بعد عين، عما قليل سيطوي الزمانُ كل الذين عرفوا الحاج عبد الرسول، وتعلقوا به وبحكاياته ودماثة أخلاقه، ورقّة ألفاظه.

«فثمة في الحياة نهايات جائرة، بل لعل نهايات الحياة كلها جائرة. نهاياتٌ تقتصُّ من أبطالها بمثل البساطة التي يراكمون فيها ذكرياتهم التي ما انفكّت تستحيل من حدثٍ إلى ذكرى. وما أبشع الزمان وأخفّه في العبور على ثِقَلٍ مرير. فبينما تتمدَّدُ الهنيهات ونحن نعيشها، إذا بالسنين والعقود تتفلّتُ كالماء من بين الأنامل، كلما التفتنا إلى الماضي فتسقط في القلب وتنهك شرايينه، وليس من قوة تستطيع أن تُرجعها أو تدفعها بعيداً.

هذا الزمانُ البشعُ المرير، العابر بخفَّةٍ ورشاقة لا تُدرك إلا عقيب انقضائه. فترى المرء، رغم عبور الزمان الرشيق، مترهلاً منهكاً بثقلين: أوان اللحظة وانقضائها. والسعيدُ من نجا من إدراك ذلك، وحبَّذا الجنونُ، ونعم الغافلون من غير العاقلين.

عندما شرب سقراط السمّ، إنما أراد أن ينهي مهزلة الزمن، لا الخضوع لحكم قضائي، وهو إذ أبى الفرار من سجنه، فلأنه أدرك أن الفرار الكليّ مستحيلٌ، فهو لن ينجو من سجن إلاّ ليقع في آخر أشدّ وأمرّ وأرحب. وما عاد النوم منجاةً، فلا بدّ من مغادرة الحافلة التي لا تني تمعنُ نهباً في فضاءاتٍ عقيمة. حافلةٌ دون كوابح، وسائقها غافلٌ عمّا يجري، وليس لها مقود للانعطاف أو الرجوع، ولا جهة إلا إلى المجهول.

لهذا تجرَّع سقراط السم، وترك لأفلاطون فذلكة ذلك. وليس ما ادعاه أفلاطون صحيحاً من أنّ سقراط أراد احترام القانون وطاعة النظام، وهو الذي قضى عمره يهدم قواعد ونُظُم السوفسطائية وسواها. فالحقيقة بالنسبة إليه توهّم نسبي، وتبدّل دائم، الحقيقة بالنسبة إليه تغيُّر، مما أحاله إلى الذريّة وفلسفة طاليس من أن الإنسان لا يستطيع السباحة في النهر نفسه مرتين. أخافه هذا الكشف، فارتدَّ إلى ثبات متوهَّم بالنكوص إلى محيط الدائرة العدمي، فيتجَرَّع السمَّ أمام هذا الجدار الصلب الذي اسمه الزمن.

نام سقراط على حوافي كأسه المسموم، ولم يطل ارتباك أفلاطون، ففذلك النسبية المدّلاة من حقيقة مطلقةٍ يستحيل قطافها، فحقائق الأرض ظلال زائفة لحقيقة مجهولة. ولقد توخّى أفلاطون إرعابنا بتصويرنا كائنات في كهف فُرجتُه إلى الضوء، فيما ظهورنا له، وأبصارنا منصبَّة على الحائط الداخلي للكهف، لا ترى إلاّ انعكاس الصور، تماماً كروَّاد السينما ظهورهم لمشغِّل بكرة الأفلام وعيونهم على الشاشة. فما أتفه هذا التقريب للحقائق التي تحزُّنا وتنحرنا، ثم يأتي من يقول لك إنها ظلال الحقائق المطلقة! فإذا كانت انعكاسات الحقائق وظلالها جارحةً إلى هذا الحد، فما بالُ الحقائق بجوهرها؟»

تلك كانت وريقات عثر عليها الفضل بخط أبيه الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام، فلم يفقه منها شيئاً، ولم يهتدِ إلى مقاصد أبيه من أسماء مجهولة كسقراط وأفلاطون، فحكم على أبيه بالجنون. بل جزم أن مثل هذه الأفكار هي ما أودت بأبيه إلى ما حلَّ به من ذهول وتفلُّت في غدده اللعابية، وتفلُّت في فقحته وذكَره. كما أن الفضل قد توجَّس خيفة من اسمي سقراط وأفلاطون فظنَّهما من الجن، وخدَّام طلسمٍ ما. فذُعر واقشعر لذلك بدنه، فمضى إلى زوجته وسيلة، وأسرَّ لها بما يظن، فاقشعرت هي أيضاً، وتفتقت أفكارها عن حلٍّ مثالي، يقضي برمي هذه الأوراق في أتون القازان لحرقها، وباعتقادها أن الجن من نارٍ، فإذا أحرقت الأوراق بالنار، عادت الأسماء إلى ذواتها، وارتاحا من شرِّها.

فوافقها الفضل على ذلك، وهرعا إلى القازان يقذفان في أتونه هذه الوريقات- التي عُثر عليها منسوخةً في كراس للحاج عبد الرسول. وأصَّرت سهجنان على الاحتفاظ بها، فيما بعد- وقبل أن تضرم وسيلة النار فيها رمت قبضةً من بخور، دون أن تنفث فيها:

- شخُور بخور. شخّور بخّور، دستور يا خدام هاالأسماء. دستور يا سئراط، دستور يا فلطون.

ولقد أبدت وسيلة حنكة غير عادية، عندما ذوى لهيب الوريقات في القازان، ففتحت صنبور الماء الساخن وتركتها تجري في المصرف، وهي لا تكفّ عن البسملة والتبخير، إلى أن اطمأنت إلى خروج الماء المسحور كلّه من القازان. واتفق أن شخر الماء في قسطل الماء لنفاذها، ففرَّت من الحمام وسقطت على الفضل، وطفقا يصرخان مذعورين، إلى أن لمحت وسيلة قطاً أسود يعبر على شرفة الجيران، فعادت إليها الروح، وقامت تولول بفرح:

- قوم يا فضلو، زمطنا. ضهر الجن اللي جمعو بيك. هلق قطع قدامي بسين أسود عابرندة الجيران، راح الله لا يردو.

عندما نهض الفضل، كانت كدمةٌ في مقدم رأسه تنزف دماً من أثر السقطة. استبشرت وسيلة لمرآها فراحت تزغرد.

- ليليليليليش ليليليليليش!

- ليش عم تزلغطي يا وسيلة.

- الحمد لله نزل دم.. يعني فسق السحر وزمطنا.

- دم؟ وين.

- الله يعيني عليك. مش حاسس بالدم عميكرج عاوجك من جبينك؟

- فكرتن مي!

بعد أن أُلقي بالحاج عبد الرسول محمد الكرَّام في مأوى العجزة ببيروت، بعيداً جداً عن مسقط رأسه، ومراتع صباه، ومرابع كهولته، لم يعد معروفاً بصفاته التي عُهد بها، تساقطت كل صفاته البهية، لم يعد ذلك الأب الطيب، ولا ذلك الأديب الأريب، لم يعد ذلك المحدِّث اللبق الذي تتشنَّف الآذان بالإصغاء إليه، أصبح مجرد نزيلٍ في الغرفة رقم (٣) من الطبقة الثالثة المفترض أنها مخصصة للنزلاء المحظوظين، إلاّ أن الأمر استحال غير ذلك بعد بضعة أسابيع، ولا سيما أن أحداً لم يسأل عن نزيل الغرفة رقم (٣) لا رئيس الحكومة، ولا أحد من أولاده. فبدأ الممرضون والممرضات يبدون انزعاجاً يتصاعد يوماً فيوماً من هذا النزيل السقيم، وتطوَّر الأمر إلى سوء معاملة تبلغ حدَّ العنف اللفظي والسلوكي واليدوي، فلقد صُفع نزيل الغرفة رقم (٣) مراراً، كما كُمَّ فمه بشريط لاصق، كلما راح يروي حكاياته في ساعاتِ الليل والنهار، مما عطَّل على ممرضي الطبقة الثالثة جلساتهم، ومغازلات بعضهم بعضاً أحياناً. وذات مرة كاد نزيل الغرفة رقم (٣) يموت، بسبب الشريط اللاصق على فمه. لا بسبب عدم قدرته على التنفس بحرية، بل لأنه شَرِق بلعابه السيَّال، وهو العاجز عن ردِّه بسلاسة إلى بلعومه.

فتفتّقت عبقرية إحدى الممرضات عن شدِّ كوب من البلاستيك واسع الفوّهة إلى فم نزيل الغرفة رقم (٣)، لكنها لم تكن ذات نفع أو جدوى فعالة، فتُرك يتحمم بلعابه النهار بطوله، كما كان يُترك بالحفاضة إياها على مدى أربع وعشرين ساعة.

لقد بات الحاج الأديب عبد الرسول محمد الكرّام مجرد رقم، وهو في كل لحظة عرضة لتلقّي كل أنواع الاضطهاد المباشر من أولئك الممرضين والممرضات الغاضبين من سوء ظروفهم في مؤسسة يفترض أن تكون عنواناً للرحمة، فنزلاء المأوى هم الحلقة الأضعف في هذه السلسلة، وأضعف هؤلاء النزلاء هم أولئك الذين لا أهل لهم يزورونهم، ويدسون بعض المال في جيوب الممرضين والممرضات لرعايتهم، كما يفترض في أصل نشوء مأوى كهذا.

ولما كان النزيل رقم (٣) ليس له من يسأل عنه، أو يتفقد أحواله ولو في الشهر مرّة، أصبح من الواضح أنه مكسر عصا الجميع، ومنفِّس غضبهم، وبات نقله من الغرفة رقم (٣) في الطبقة الثالثة، إلى المساحة المفتوحة في الطابقة الأولة مسألة وقت، حيث يكتظ فقراء النزلاء وأسوأهم حالاً، يقاقون ويبيضون ويسلمون بعضهم على بعض ما طاب لهم، ولن يكون لهم ملابس نظيفة ولا استحمام أسبوعي، بل في المناسبات فقط، كلَّما تبلغوا زيارة وفد أوروبي يهتم بالمسنين والعجزة، ويريد الاطلاع على ظروف هؤلاء قبل دعم المأوى بمبلغ مقدر، أو عشية عيدي الفطر

والأضحى حيث يتوقع القائمون على المأوى زيارة الآل ومن شاء من ذوي الشأن للتبرع، أو أحد السياسيين الذي يتوخى إظهار إنسانيته وعطفه وإحسانه، ونكايةً بخصومه ومنافسيه في الوزارة أو النيابة.

يحاول الإنسان نظرياً أن يضع نفسه مكان الآخرين، وقد يدَّعي ذلك، ولكنه لن يستمر في ذلك طويلاً، وستكون لديه المسوِّغات القوية للتجرّد من هذا التعاطف النظري، أو الاستقامة المدَّعاة، وإنه لأسهل على الإنسان، أن تدمع عينه، وهو على الأريكة المريحة في غرفة الجلوس، أمام أطباق الفاكهة وأنواع المكسَّرات والمرطبات، فيما يتابع مشهداً درامياً من فيلم سينمائي. وإنه لمن الصعب على ذلك الإنسان أن يسفح مثل هذه الدمعة عندما يكون في صلب المشهد، فتراه متلبِّساً بشخصية الجلاد، فيؤدي الدور كأبدع ما يكون، ببساطة لأنه سينبع من تحرّر مطلق من فتنة الإخراج السينمائي، إنه الأداء الطازج الحار بتجلياته الانفعالية الذاتية الحرَّة.

لعلّ الذي قال: «إن العالم خشبةُ مسرح والناس كلهم ممثلون» لم يخطئ الحقيقة. فما أنجح اللاإنسان في إتقان دوره، سواء أكان زبالاً أم رئيس جمهورية، على أننا نرصد دائماً في ملامح هذا بقايا ذاك، وفي أداء ذاك طموحات هذا.

حاول مرَّة أن تصغي إلى لصٍ، وستجد نفسك متضامناً معه، وتوشك أن تصفق لنزاهته.

ولو تعمَّقت في سِيَرِ الأنبياء، أيقنت أنهم شخصيات مختلفة، ولا تنتمي إلى طينة البشر، كأنما اختُلقت هذه الشخصيات لإقناعك باستحالة كونها أو أن تدانيها، فترتاح لأنك لن تكون كذلك، وأن الأنبياء صنيعة الوهم، أما نحن فخثارة الطين. فلا بأس إذاً بتمجيد الأنبياء وتقديسهم، لأن في ذلك إقراراً بحقنا في أن نكون على ما نحن عليه من حقد، ومن ظلم، ومن غش ومن اعتداء، وغياب فعلي للرحمة والنزاهة.

لم تكن عبثية ولا عابرة تلك الحكمة التي أترعتنا وشغلتنا حول بلاغة القحبة وهي تحاضر في الفضيلة. فالقحبة تدرك مواطن العهر عملياً، فتتلافى ذلك في التعبير والخطابة.

يروى أن أحدَ الشعراء أنشد هارون الرشيد، أبياتاً في وصف الخمرة دون ذكرها، فعلَّق الرشيد:

لقد شربتها يا ابن الفاعلة، فوصفك وصفُ عارفٍ معاقرٍ لها. ووجب الحدّ عليك.

فردّ الشاعر: عفوك يا أمير المؤمنين، لئن رابك وصفي لها، فلقد رابني إدراكك لِكنه ما أقول!

فما زاد الرشيد على أن قال: قبَّحك الله! أغرب عن وجهي.

تلك هي فرادة الإنسان الوحيدة، حيث يبالغ في العهر، مع امتلاك القدرة على نفي ذلك بفداحة التعبير.

تأمَّل كتب الأخلاق تجدها عناوين نقيضة لما فُطر عليه الإنسان من سلوك، وما المبالغة في تقديس الأمانة إلا لأنّها العَرَض الكلامي لجوهر الخيانة الواقع الفعلي والممارَس في تصرفات الكائن البشري الذي تراه خائناً زانياً قاتلاً نمَّاماً فاجراً وعاهراً بالفعل، ثم تراه، وما أبدعه في عدم الإقرار بذلك، بل يزيد مجاهرةً في نفي ذلك، والاعتراض عليه، والحطّ من قدر مَن سقطت عنه المآزر التي كانت تخفي عهره. وإلا فمن يستطع أن يمرّ على سيرة الحاج عبد الرسول محمد الكرّام، والمآل الذي انتهى إليه كرقمٍ في مأوى عاثرٍ بعيدٍ من أحبابه الذين من أجلهم جدّ واجتهدَ دون أن يُقرَّ له بذلك؟

ففي الوقت الذي كان نزيل الغرفة رقم ثلاثة يُدفَع إلى قاعة الأسرَّة المفتوحة في الطبقة الأولى، ويتعرض للصفع، وكمّ الفم، ويُترك في حفاضه أربعاً وعشرين أو خمساً وعشرين ساعة، كان الفضلُ بِكْر الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام، يبيحُ ظهرَه، وهو يحبو على أربع، لحفيده، ابن بنته هلا، ولطالما بال هذا على ظهره، أو سال لعابه على أمّ رأس جده الفضل. وما بدا مرّة أن الفضل قد امتعض أو أبدى أي نوعٍ من القرف، بل شاهده الجميع وهو يقبل حفيده في «هبورته»، بينما أبوه الجليل متروك لرحمة العاملين في مأوى العجزة، ولم يخطر بباله ولا ببال أحدٍ من اخوته وإخواته أن يتفقدوا أباهم ولو عبر اتصال هاتفي.

فتأمَّل بجاحة هذا الحب لحفيده، وقابله بحقارة ذاك المتجاهل

لأبيه، فمَن غير الإنسان يستطع أن يحمل هذا القدر من الحب، وذاك القدر من التجاهل الذي لا مضمون له إلا الكراهية، والأعجب من ذلك أن الفضل لا ينفك يؤنِّب بناته كلما تأخرن عن زيارته، محتجاً ببرِّ الوالدين.

- أنا أبوكن يا ولاد الكلب، كيف بدكن تواجهو ربَّكن، إلكن جمعتين ما طليتو؟!

ذلك هو الإنسان بعهره البليغ، ومهارته في مواجهة الوقائع العاطفية، أنوية بلا حدود، ففيما يستنكر الفضل فعل بناته لتخلفهنّ عن زيارته وهو أبوهن، يتعامى هو تماماً عن نسيانه المطلق، أو تناسيه المتعمَّد لأبيه الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام.

لا شكَّ أنَّ الإنسان رِمَّةٌ من التناقضات، جميع أنواع التناقضات: جبن وشجاعة، حب وكراهية، صدق وكذب، أمانة وخيانة، وفاء ونكث، كرم وبخل، طاعة ومعصية. ولو رحتُ أحصي لما انتهيت، فالتناقضات لا عدَّ لها ولا حصر. وكذلك الإنسان في تنقّله كدوريٍّ أخرق على أغصان علّيقة المتناقضات تلك التي نسميها الحياة اختصاراً، حيث تطَّردُ كبوشها وأشواكها أيضاً، فبين حلاوة الثمار ووخز الأشواك تميع الحياة إلى أن تنكفئ قدور الأعمار على أفواهها، ولاتَ ساعة امتلاء. فإذا انكفأت القدرُ انتهى كل شيء، وسيان إن انكفأت قدرُك على تلأَّعِ بُورك، أو حقول زهرك. فمآل كل شيء إلى زوال، كما الحياة إلى نهاية.

وليس للإنسان كَرَّةً أخرى ليتَّعظ، بل يندمُ المرءُ قبيلَ انطواء صفحته، ويعجز عن إيقاف انزلاقه الرهيب، وهو أعجز عن نقل مرارته إلى أحبائه والمحيطين به، فتستمر دورة الانطواء وطعم المآسي من جيل إلى جيل من دون جدوى.

ومن أعجب حماقات البشري اعتقاده أنه سينجح حيث فشل سواه. فيستمر في سبيل مَن سبقه حذوَ النعل بالنعل، ويتوقع لنفسه أن يفوز حيث فشل الذين سبقوه، وهو في ذلك بالغ السَّفه ككل بني البشر من قبله ومن بعده أيضاً.

عندما دَهَسَتْ سيارةٌ مسرعةٌ الست وسيلة على حين غرّة، وتحطَّمت أضلاعها وساقاها وذراعايها، وأقاموها في عشرين جبيرة من أدنى عنقها إلى قدميها، لم تجد أحداً يعتني بها إلاّ الفضل. أما هلا وهويدا وسهجنان، فكان لكلٍ عذرُها في عدم القدوم من بيروت إلى طرابلس لمؤازرة أبيهن في تحمُّل أعباء العناية بأمهنّ.

فهلا لديها أسرتها زوجاً وأولاداً، ولا يمكنها أن تقدِّم شيئاً سوى الدعاء والتوجّع لوضع أمها، ومكالمة أبيها مرة في الأسبوع للاطمئنان إليهما، وإذا أطال أبوها الكلام فوق الخمس دقائق شاكياً باكياً، أقفلت الخط معلِّلة، في الاتصال اللاحق بعد أسبوع، ذلك بسوء الاتصالات والخدمات الهاتفية أرضيةً وخلويةً. أما هويدا التي تقيم في شكا، فكانت أعذارها واضحة النفاق، لادعائها أن زوجها الذي يعمل في مصنع للسيراميك، لا يصل إلى البيت قبل الخامسة مساءً، وعليها الاهتمام به «فالوحدة مش كل يوم بتلاقي رجال» وعليها تدريس أولادها. «اتركوني بحالي وكل واحد يقبع شوكو بإيديه». تقول ذلك عبر الهاتف وهي تشهق شهقات تفتّت الصخر. «والله ما معنا أجار سيارة تانروح نطل عليكن يا بيي! وكل اللي فيني اعملو اني ادعي لأمي بالصحة وإلك بالعافية». ولا تنسى أن تختم بالقول: «ما في معي وحدات يا بابا، دخلت بالاستقبال، بس بدك تحكيني تلفنلي. أهيء إهيء أهيء» ثم تغلق الخط. وقد يمضي شهر فإذا لم يتصل الفضل بها، لا تكلف نفسها عناء الاتصال أبداً. فهاتفها بلا رصيد دائماً كما تدّعي باستمرار.

ولا شك أن سهجنان، أشدهنّ جرأة في التعبير المباشر، دون لفٍّ أو دوران: «ليك يا بابا، أنا مش مسامحتك ولا مسامحة الماما، حملتوني اسم مبيّنة فيه متل اللي لابسة فستان ستها ورايحة على عرس هيفا وهبة بالفور سيزون.

اتفضلوا انت والماما اعطوني المبرومة اللي منشانها جرستوني بهالاسم!»

- يا بنتي، مش وقتو هالحكي هيدا!

هلق وقتو، وكل يوم وقتو. هلا تجوزت، وهويدا تجوزت وهني أزغر مني، وأنا لأ. بتعرف ليش؟ لأنو الرجال بيهرب من اسمي، عيشتوني كل عمري مجرَّسه. وأنا من لما تركت طرابلس، حلفت يمين ما ارجع عليها. كل ما أمرق بالحي: اهلاً يا سهجنان! كيفك يا سهجنان؟ شو عاملة يا سهجنان؟ تجووزتي واللا بعد يا سهجنان؟ وأنا عارفة انهن بضلهن يعيدو الاسم تا يقهروني، ضحكن بدينيَّ.. مش مسامحتكن انت وامي وجدي وستي.

- يا بنتي أنا والله كنت بدي سميكي هبة..
- خلص، خلص، خلِّي المبرومة تفيدها لأمي، واللا ليك، بيعها وجبلك خادمة تخدمها. وهيك يكون اسمي ساعدك بهالورطة.
- يا سهجنان، يا بنتي.
- حاجي تعيد هالاسم، صاير متل الجيران، بتعيطلي باسمي منشان تغيظني. روح لهلا ولهويدا يساعدوك.

- يا بنتي...
- لا بنتي ولا شي. ما فاضية لحدا، وضعي بالشغل مقلقز، وهلق تلفنلي المدير، بدي روح شوفو الله بيعلم شو بدو مني هلق. والله إذا زعبني من الشغل بدي زت حالي عن صخرة الروشة.

وأقفلت الخط تاركةً الفضل يتلوى على مرارةٍ يلوكها ولا يستطيع بلعها.

عندما نادته الست وسيلة، هرع إليها بلا حول ولا قوة

- جبلي الزحّافة! بدي اخرج!
- عراسي!
- مع مين كنت عم تحكي؟
- مع البنات.
- كيفن، شو أخبارن، ليش ما خليتني احكيهن، ما بدن يجو يطلو عليي؟
- يا حياتي. الله يعينهون، كل وحدة همها أكبر منها.
- ولو ليش في أكبر من همي هلق! يا ضيعان الحليب اللي رضعو.
- يا حياتي، طولي بالك.
- أيا بال يا فضلو. إلي شهر مكرسحة ومجبَّرة من فوق لتحت، وما في وحدة منهن إجت تطل عليي. شو يهودية أنا؟ يا ويلن من الله ومن كلام الناس، وين برّ الوالدين؟

لم يستطع الفضل إلاّ أن يتذكر أباه الحاج عبد الرسول محمد الكرام الذي رُمي في مأوى العجزة منذ أحد عشر شهراً، ولم يكلف نفسه عناء زيارته ولو مرّة واحدة، كما لم يجر اتصالاً هاتفياً واحداً بالمأوى للاستفسار عن حاله.

أحضر الفضل الزحافة ودسها تحت مقعدة الست وسيلة لتفرغ أمعاءها، ثم مضى إلى المطبخ محتجاً بالجلي، وفي عينيه دمعة حرّى، وفي قلبه جمرة تتلظّى.

تذكّر كيف كان يتصل ببناته كل يوم، فحزَّ في نفسه أنهن لا يتصلن به مرةً واحدة، كأنه وأمهنَّ غير موجودَيْن في الحياة. بكى في المطبخ بحرقة، ثم بكى بحرقة أكبر عندما أقامته ذكرياته على الحد بين تقصير بناته تجاهه، وتقصيره تجاه أبيه.

كاد يغشى عليه من شدة بكائه إذ أدرك معنى الحسرة التي سكنت روح أبيه الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام، بعيد موت الحاجة سهجنان المفاجئ إثر ضياع ثروتها، وقبيل أن يصيبه ذلك الفالج الرهيب وضياع وعيه، وتصوَّر للفضل لحظتئذ، أن ما نزل بأبيه إنما كان جرَّاء حسرته من عقوق أبنائه وبناته.

فالفضل الآن يستشعر طعم الخيانة من بناته، والحسرة تفتك به بأنيابها.

خرَّ على ركبتيه يشهق شهقات مكتومة، وأحس أنه سينفلج فذعر،

تحسس ركبتيه، حرَّك ساقيه، تمدَّد على أرضية المطبخ، وتلوى على بلاطه مرات كثيرة، وهو يتأوَّه بصمت قبل أن يجيئه صوت وسيلة:

- فضلووو!

- جايي يا حياتي.

مسح دموعه، غسل وجهه، ثم حجل إلى غرفة الجلوس حيث استحدث سريراً طبياً أمام التلفزيون تتمدَّد عليه وسيلة. كانت ما تزال المنشفة بيده عندما وصل إيها.

- أمر يا حياتي!

- شيل الزحافة، وقاف شوي! اتطلع فيي! نظر إليها بعين كسيرة.

- شو كاين عم تبكي يا فضلو؟

- شو أبكي ما أبكي!

- لكن ليش عيونك حمر؟

- يمكن نوزلت.

- نوزلت هاه؟ عم تستثقل من خدمتي يا فضلو؟

- أعوذ بالله يا حياتي.

- احلف بالله!

- وحياة الله!

- فإذن شيل الزحّافة! وغسِّل ايدك واعملي كباية شراب الورد.

وصلت سهجنان إلى المكتب لتجد مديرها فهد وحده مرتدياً الروب دي شامبر الحريريّ النيليّ، ذلك الروب الذي يتباهى به، ويدعي أنه حصل عليه هديةً من سكرتير سفير كوريا الشمالية في السعودية، يوم كان يعمل هناك مندوباً لشركة الشحن أوف شور. والحقيقة، أنه استخلصه من شحنة كورية إلى الإمارات عبر مرفأ جدة بطريقة غير مشروعة. وكان أكثر ما يعجب فهد في روب الكارتيه هذا، وخطأً يسميه صاحبنا روب دي شامبر، هو صورة التنين المطرَّزة بخيطان الحرير البنية النافرة على الظهر، وكان يطيب له أن يدير ظهره لمحدثه ليريه صورة التنين الذي ينفث ناراً يتداخل فيها البرتقالي مع الأصفر بدقة متناهية وبخمسة ألسنةٍ من اللهب محدَّدة بالأحمر.

- خير شو في، ضهرتني من الحمام؟
- قلت منتحمم سوا!
- ليش نوال بالعادة؟
- شو جاب سيرة نوال هلق؟
- اسما الله عليك، ليش هي عم تضهر من مكتبك إلاّ آخر الدوام؟!
- بلشنا نغار؟ تعي لقلبي!

ثم فكّ زنار روب الكارتييه، الذي يسميه روب دي شامبر، فبدا في البوكسر الطحيني كمصارع أكثر منه لاعب كارتييه. لم تبدي سهجنان أي حركة، فاقترب منها وأخذ يفكفك أزرار بلوزتها الفستقية، ولم تمانع كالعادة، بل تركته ينزع عنها بلوزتها، ويشدّ بنطالها الأخضر الحشيشي إلى الأسفل، وفي لحظة لم تعد يداه متَّسقتين، واحدة تدفع البنطال نزولاً وقد علق عند عقبة وركيها، وأخرى توازن تحت الصدار بين نهديها، يضيع بين حبّتَيْ عنّابٍ صلبتين منتصبتين، يدور بأنملتين حول هذه وثلاث حول تلك، وهو ينفث روحه ناراً، ويفحُّ فحيح ثعبان في ذروة الحرّ. تهالكت سهجنان على الأريكة نصف مغمضةٍ، ونصف واعيةٍ. نصف حيّة ونصف ميتة، وانفلتت في لحظة، من رباط الجمود، واندفعت تشدّ على عريه، وهي تتمدَّدُ لتتحرَّر من بنطالها الذي تهافت عند قدميها. فمدّ يداً إلى علاّقة صدارها لينفجر نهداها بالغين شهيين، وإذْ لم يوفق فهد في ذلك، جُنَّ لإحساسه بنزيز مثير يسيل من عنَّابتيها على أنامل يده اليمنى الخمس، فشدّ باليسرى حتى خلع علاقة الصدار الخلفية، وانتزعها نزعاً عنيفاً، حتى بديا جامين من مسك يموجان على انتفاض شهيٍّ متين، فأكبّ ينهلُ كمن لم يرتوِ من ألف عام.

لم يعد على الأريكة شيءٌ يفصلهما، جسدان ملتهبان يغليان، ولو قيض لهما القول آنذاك، لاستقلاّ أن يكون لهما معاً أربع أيادٍ ومكحلة واحدة وميل واحد. فما تحطّ يدٌ على مهوىً حتى تهب إلى مرتفع، ومن

سفحٍ إلى تلةٍ، والفحيحُ استحال نخيراً وشخيراً، حتى إذا تمكَّنت من عصب رجولته أخفته في جوفها السريّ لحيظات قليلة، لتسكن جذوة النار المشتعلة، وتستحيل رماداً تنهلّ فوقه حبيبات عرق لا تنتهي.

سكنا لحظةً، فاستغرقا في نوم عميق وطويل، وعندما انتبها، كانا قد ناما ثلاث ساعاتٍ، وإذ أدرك فهد ذلك، هب إلى الحمام يبترد، دلفت سهجنان خلفه، فرأته يبصق، ويفرك بالليفة على مرامي جسده كمن يريد أن ينزع كل أثرٍ لها عن خلاياه.

كانت سهجنان قد اعتادت ذلك منه، فانتظرت حتى انتهى، ناولته المنشفة، وقفزت تحت رشاش الماء، الذي راح ينحدر على جسدها انحدارَ ألف جدولٍ فضيّ على وهدةٍ برية.

أطالت سهجنان حمّامها، فلقد وجدت في برودة الماء لذةً فوق التي حصَّلتها من حرث فهد فيها، أوشكت على الانتهاء عندما سمعت جلبة خارج الحمام، مدَّت رأسها، فرأت فهد ينظم بعض الطعام، الذي طلبه من مطعم سقراط، على الطاولة الصغيرة الواطئة بجوار الأريكة.

خرجت من مستحمها عاريةً، ومشت بضع خطوات إلى الكيس الذي تركته قرب باب المكتب، وفيه ملابسها الداخلية، بدأت تستخرجها لتستر عريها عندما سمعت فهد يقول:

- الله يلعن شيطانك، خليك بالزلط، بركي جدّ شي بعد الأكل.

رمت الكيس من يدها، وجلست بجانبه على الأريكة، فاعترض:

- اقعدي بوجي، خليني اتصبَّب عليكي.

ففعلت، منفرجة الساقين، منتصبة النهدين تلامسهما أطراف شعرها الذي لم يعد أحد يعرف حتى هي لونه الأصلي، كل ما يُعرف أنه الآن نبيذي شفاف، وكان كلما حركت رأسها، تحركت أطراف شعرها على قبَّتي نهديها، فتقشعر لذلك وتنتصب عنَّابتاهما، فيحضر الشيطان شريكاً لا منازع له.

بطشا بأطباق «سقراط» بطش جبارَيْن، لم يلقمها مرّة ولم تلقمه لقمة واحدة، منتهى الاستغراق الأناني بالطعام بين اثنين رفثا بجنون حيوان قبل قليل، وهما أكثر ما يكونان بُعداً عن الحبّ.

ما الذي كان سيقوله سقراط الفيلسوف عن ذلك في حديث «المأدبة» كما نقل عنه أفلاطون، لو كان حاضراً بدلاً من «سقراط» المطعم؟

عندما عصفت بنا رياح المراهقة، كان الفراش وحده يتحمل تقلبنا على أطرافه، ونحن نحلم بلحظة لقاء عابر بمن نحب، وما كانت القبلة أو اللمسة تمر في المخيلة أبداً. بكى عماد مرّة، عندما سأله أخوه الأكبر والأكثر خبرة منه:

- قرطتها واللا بعد؟

أحسّ عماد كأن سكيناً نفذت في جوفه، بهذه الكلمة، فالتي يحب

أسمى وأطهر وأنقى من أن يلج الخيال الدنيء إلى صورتها ليشوه نقاءها.

كان يحبها، ويودّ أن تعرف أنه طاهر في حبه لها، لكنه أضاعها في مفارق الحياة عشرين عاماً، حتى إذا التقاها، وقد بات زير نساءٍ، ارتبك، وعاد ذلك المراهق البريء، دعته ذات مساءٍ إلى بيتها، ليفاجأ أنها وحدها فيه، استنشدته أشعاره فيها، فأنشدها وأبكاها.

- عنجد انت بتشوفني هيك يا عماد؟
- بشوفك طهر يسير على قدمين، نقاء بجسد امرأة.
- بس أنا مش هيك، ما في رجال زمط مني، جوزي ما بيهتم، وأنا ما بشبع.

بكى عماد من أعماق روحه، اقتربت منه لتحتضنه، فنفر، كشفت عن صدرها، وقالت: مدّ إيدك!

لم يفعل. رجف قلبه فقط، وجحظت عيناه. ثم مضى نحو الباب، يغادر بيتها عند الثانية عشرة ليلاً، تحت دوي المدافع في بيروت العقيمة.

قالت له في لقاءٍ عابر آخر في مكتبة أنطوان بشارع الحمرا:

أنت مفكّر انو التقينا بالصدفة؟ أبداً. أكيد عرفت أنو جوزي صار وزير، وأنا تسجلت بالجامعة اللبنانية تا التقي فيك. ما في حدا ببيروت ما بيعرف قصيدتك فيِّ: «انتِ يا امرأة أخلدها...».

لم يقل عماد شيئاً، بل نظر إليها بعينَي مراهق، وهو في منتصف ثلاثينياته، ما انفكّ يشفُّ بصفاء فريد، ثم أخذ يدها وقبلها:

- وقاف! ليش بست ايدي؟

- عم بوس وجودك بالحياة. بول ايلوار استبطنني عندما قال: «وإنما انطلاقاً منك قلت نعم للعالم».

ما كان عماد نبياً، ولا قديساً، وما رغب في أن يكون أحدهما، لكنه كان ذلك المراهق، الذي عانق الخمسين وما استطاع تفلُّتاً من ذلك الولد الذي كانه قبل أربعة وثلاثين عاماً، أوَ يكون الحب إلا استجابة لنزوع عاطفي صافٍ مجردٍ من كل ميل حيواني؟ والجنس في حالة النزوع العاطفي إنما هو طقس للذوبان، أتون للتبخّر، وانصهار اثنين حتى تمتزج روحٌ بأختها. نفشل؟ نعم، ولكننا لا نرتكب جناية الغريزة لذاتها، بل رغبة التوحّد في النفاذ. محاولة النفاذ للتوحّد تفتح باب الغريزة لا العكس.

ذلك ما أوشك سقراط الفيلسوف، لو وُجدَ، أن يقوله، أما سقراط المطعم فلا يلبي سوى مقتضيات الشهوة لذاتها، فشتان ما بينهما!

بلغ الكامخُ بينهما مبلغه، وهما عاريان يبديان ما ينبغي ستره، دون احتشام كأتانٍ وعشيرها، يُقبلان على الطعام ببهيمية مطلقة، ولم يتورَّع فهد عن إطلاق ما في أمعائه من ريح، وهو يحسو شوربة البصل مباشرة من الوعاء، وفي ذلك مبالغة في الاستخفاف بأتانه أو سهجنانه، أما هي

فلم تعلّق بشيء، تصرَّفت كأنما خسّة فعله لم تحدث، وبدا عليها أنها صدقته حينما قال:

- هيدا صوت الكنباية!

واضح!

قومي ساويلنا فنجان قهوة!

نهضت عن الكرسي قبالته، وسارت بعريها الكامل، وردفاها المكوران يرتجّانِ أحدهما صعوداً والآخر نزولاً، فأرفقها بنظرة وهو يلعق شفتيه، ويتشحم أصابعه من أثر الشيش كباب.

- ما في بن؟

- معقول؟ شاي؟

- يوجد.

- اعملي شاي.

جاءت بعد قليل تحجل بعريها، فيرتجّ لذلك نهداها، وضعت الشاي على الطاولة الصغيرة بينهما، فوق بقايا الطعام.

- وين السُّكَّر؟

- ما في سكَّر.

- يا عمي شو هالمكتب هيدا؟

- هيدا مكتبك - أنا ما إلي خصة.. اسأل نوال قاعدة معك فيه من الفجر للنجر! إلي جمعتين مش داعسة بأرض المكتب.

- خلصنا بقا! مش حارقلك قلبك إلا نوال.
- فشرِت! والله مش قاريتها.
- طيب تعي لحدِّي.

تساقطت من فورها فوق عريه، وعادت الشهوةُ سيرتها الأولى، فتأجَّجا ثم انطفآ. ومضيا إلى الحمام يغتسلان، هو أولاً وهي ثانياً.

قال لها وهما في المصعد:

- فيك تعطلي بكرا. جاهدتي كتير اليوم، يعطيك العافية! بدك وصلك لمحل؟
- لأ.
- يه! ليش؟
- بدي كزدر شوي بالحمرا.
- شو ما شبعتي بعد؟ منرجع منطلع إذا بدّك؟

لم تقل شيئاً، فيما ضحكته تجلجل في أذنيها، تركها تسير مبتعدةً حتى إذا انعطفت، حرَّك عربته ومضى في الاتجاه الآخر.

بدا أن فهد، يستدعيها بين الحين والآخر، ليجد مسوِّغاً لما تتقاضاه من أجر دون مردودٍ. في السيارة قال فهد لنفسه: «عالقليلة بتلبيني ساعة اللي بدي. بس والله كثير، عشرة تنعشر مرة بالشهر بألف دولار! شو هالغلا ولووه».

أما سهجنان فحدست بالخطر، وداخلتها خشية من أن يطردها،

مضت شهورٌ، منذ جاءت نوال، وهي تخشى الطرد، لكنه لم يفعل. وها هو يستدعيها الليلة، وكانت تحسب أنه سيبلغها ما تخاف منه، فإذا به يستبيحها مرتين، ويتعشيان معاً، ثم يمضي دون أن يعلمها بما تخاف إعلامها به.

تمنَّت تلك اللحظة، أن تجد عملاً آخر، وفكَّرت لو أنها وُفِّقت بعمل جديد، فستطالب فهد بشهرين سلفاً، ثم تختفي دون أثر.

- يا الله ساعدني!

قالت ذلك، عندما اتخذت لها طاولة في وسط مقهى Lina's آخر شارع الحمرا. لم يكن هناك أحد تعرفه، فطلبت فنجان قهوة وقنينة ماء صغيرة. لم يكن لديها ما تفعله، فراحت تراقب مرتادي المقهى، بعينين ذابلتين؛ وما زال شعرها مبتلاً من أثر الحمام، وخداها متوردين، فبدت بذلك تفاحة سقطت من فورها على طاولة المقهى.

أنهت سهجنان قهوتها بسرعة، فنادتِ النادلَ لتدفع له، ففاجأها بقوله:

- واصل.

نظرت إليه متعجبةً، فأشار إلى رجل ضخم أنيق، جعد الشعر، أشقره، كثيفه، حليق اللحية، صغير العينين، مستدق الأنف، غليظ الشفة العليا رقيق الشفة السفلى، ولو كان أنفه طويلاً معقوفاً لحكمت بيهوديته، كما ورد في وصف هؤلاء في كتابات المسرحيين والكتاب منذ القرن السادس عشر في أوروبا.

نظرت سهجنان إلى ذلك الرجل بحياد، فرفع يده محيياً، فأومأت برأسها مستجيبةً لتحيته، اقترب من طاولتها وقال بأدبٍ جمٍ وبصوتٍ باردٍ وقحٍ:

- بتسمحي مدام؟
- مدموزيل.
- بتسمحي مدموزيل؟
- تفضل!
- وليد المفتي!
- تشرفنا! جنان الفضل.
- بيت الفضل البكوات؟
- لا والله. بيت الفضل لألله.
- هههههه. حلوة هيدي.
- شو بتشتغلي حضرتك؟
- بشركة تأمين.
- تأمين شو؟
- كل شي. حياة، سيارات، ممتلكات شو ما بدك.
- أكيد بتبيعي باليوم عشرين بوليصة!
- يا ريت!
- ليش ما حدا عم يشتري تأمين؟

- بيشترو من غيري.
- وانت؟
- أنا ما إلي بالبيع. علاقات عامة وبس.
- بيلبقلك.

وطال بينهما الحديث، وتشعَّب طويلاً، ولقلة كلامها، وحسن منظرها وما تكتنزه من إثارة في إهابها. أحسَّ وليد المفتي أن عليه أن يشدّها إلى عالمه، فسألها عن معرفتها بميدان الصحافة، فاكتفت بضحكةٍ باهتة، وعلَّقت:

- بتعلمني؟
- قديش بتدفعي؟
- والله؟ انت قديش بتدفع؟
- قديش عم تقبضي هلق؟
- الف دولار وعشرين بالماية عا كل بوليصة ببيعها.
- يعني ألف دولار. لأنو ما إلك بالبيع مثل ما قلتي.
- ههههه.
- بتشتغلي عندي؟
- شو بدي اشتغل؟
- فيي. هههههه
- هيدي هينة، قديش بتدفع؟

- الف دولار.
- والله؟
- الف ومية!
- ولا ممكن.
- طيب يا ستي. الف وثلاثمية؟
- الف وأربعمية، وسبت وأحد عطلة.

لقد بدت سهجنان بعد خمس سنوات في شركة التأمين ذات خبرة، وقدرة على المناورة، على أن قلبها كان يخفق خوفاً، كانت تخشى أن يغيِّر وليد رأيه، لكنه فاجأها بقوله:

- ألف واربعمية وخمسين، والعطلة نهار الجمعة. لأنو أنا مدير مكتب «فتاة الخليج، بيروت». وبالخليج بعطلو نهار الجمعة، ونحن متلن.
- أعوذ بالله أنا عندي الأحد بالدنيا، شو إذا كانو بصلّو الجمعة بالخليج، المطلوب مني انطرهن تايخلصو. ما بقدر.
- ههههه.

تأملها وليد، تأمل خديها، شعرها النبيذي المبتلّ، نهديها النافرين، وقامتها الفارعة، وبدا كمن يجري حساباته جيداً قبل أن يقدم عرضه النهائي، فيما هي كانت تضرب أخماساً بأسداسٍ خائفة من تراجعه. أوشكت أن تقول شيئاً، أن تتراجع، أن ترضى بألف دولار، بتسعماية

دولار، فقط لأجل الخروج من شركة التأمين، فراراً من يوم يقول لها فيه فهد: «الله معك!» فإلى متى ستبقى تعتاش من كدِّ فخذيها في شركة التأمين، وفي كل مرة تجيء بعد الدوام إلى الشركة أو تغادرها متأخرة، ينظر إليها ناطور المبنى نظرات أشقَّ عليها من كلماته المغرقة في العروض الدنيئة: «أنا بدفع كمان، لما بدِّك يا مدام».

أوشكت أن تقول شيئاً، فسبقها وليد الذي لم يستطع صموداً أمام حضورها الوفير المثير، فهو نفسه، أرادها أن لا تفرَّ من بين يديه، والمكتب يحتاج إلى سكرتيرة بجمالها، وفي النهاية ستدفع المجلة ضعفي ما سيدفعه لها، وسيزوّد إدارة المجلة معلومات وهمية حول مهاراتها وقدراتها واختصاصها، وهي لن تعرف شيئاً، ويستطيع أن يتخلى عنها ساعة يشاء:

- طيب. ألف وأربعمية وخمسين والعطلة جمعة والأحد نص نهار.
- شو عم تحكي انت؟ وقبضت على محفظتها، كمن يستعد للنهوض والمغادرة.
- عمهلك. عمهلك. ألف وأربعمية وخمسين والعطلة جمعة وأحد. بس إذا احتجتك الأحد بتجي.
- الف وخمسمية والجمعة والأحد عطلة. وإذا بدك ياني الأحد للضهرة أنا جاهزة. ههههه. غير هيك لأ.

عندما قالت «للضهرة» سرت قشعريرة في عموده الفقري، وأحسّ بجفاف في حلقه. فاكتفى بالإيماء موافقاً، وفي وجهه أمارات الهياج الواضح.

- شو قلت؟
- اتكلنا عا الله. إيمتين منبلِّش؟ قال ذلك بتلعثم كمن يخشى أن يفتضح ما يضمره.
- متل ما بدّك!
- بدك تعطي الشغل شهر إنذار؟ أنا ما فيني انطر.
- هيك صعبتها! معقول اتركهن دغري إلي خمس سنين معهن.
- يا ستي اتركيهن وإذا طالبوك بشيء، منشوف كيف مندبرها.
- بكرا بشوف، امهلني لبكرا.
- اعطيني رقم تلفونك.
- ما بينفعك! هلق أنا فايتة بالاستقبال، اليوم الساعة تنعش بالليل بيحترق الخط. اعطيني رقمك وأنا بحكيك بكرا.

ظنها وليد المفتي، على حرفيته البالغة، أنها تتهرب منه، وهذا دأب الرجل إذا وقع في هوى امرأة، يفقد عقله وقدرته على التحليل والمناورة. وبينما يكون الرجل صياداً ماهراً إذا به يستحيل فريسة سهلة. لقد وقع وليد في هوى سهجنان، ففقد كل حصونه، بدا مرتبكاً، ضائعاً. هذا الذئب أصبح أرنباً، حرَّك كل مجسَّاته، وفي لحظة أخذ

منديلاً ورقياً من العلبة المخصصة لذلك على طاولة المقهى، وأخرج قلمه المذهَّب من جيب قميصه وبدأ بالكتابة تحت دهشة سهجنان:

«اتفاقية عمل

الفريق الأول: وليد المفتي - مدير مكتب بيروت لمجلة «فتاة الخليج»

الفريق الثاني: جنان الفضل

اتفق الفريق الأول مع الفريق الثاني على أن تعمل عنده بصفة سكرتيرة علاقات عامة بمبلغ وقدره ألف وخمسماية دولار أميركي شهرياً مع عطلة أسبوعية محددة بنهاري الجمعة والأحد من كل أسبوع، وذلك ابتداءً من هذه الساعة، على أن تبدأ العمل بعد يومين من تاريخه. وقد دفع الفريق الأول خمسماية دولار سلفة على الراتب.

بيروت – مقهى ليناس – الحمرا

الساعة التاسعة والنصف مساءً

التاريخ:......................

الفريق الأول: وليد المفتي توقيعه

الفريق الثاني: جنان الفضل توقيعها»

- وين الخمسمية دولار؟

وسرعان ما أخرج من محفظته خمس وريقات خضراء من فئة المئة دولار، ودفعها إليها، تحت أنظار رواد المقهى ودهشتهم، من دون وجل أو اهتمام.

أخذت الأوراق الخضراء، ودستها في محفظتها مع اتفاقية العمل وعليها رقم هاتف وليد المفتي الشخصي.

- يا اللا، بدي أمشي!

بدا الارتباك على وليد، خاف أن يكون قد وقع ضحية خديعة حاكها بنفسه، فأمسى كالباحث عن حتفه بظُلفه.

- معقول؟ لا معي رقم تلفونك، ولا بعرف عنوانك..

كاد يقول: «وقد دفعت لك خمسمية دولار». ثم تراجع.

- طيب قوم تانشتري خط جديد، وهيك بتتطمن.
- وين بدنا نلاقي حدا فاتح.
- كلاس! ولو!
- اي والله. هيّا بنا.
- وهكذا استجاب الله لدعوات سهجنان الفضل في لحظة واحدة، عمل جديد وخط جديد وهاتف أندرويد جديد، فيما بدا الذئب الأرنب بدون براثن. إنه ربّ عملها الجديد، النصَّاب على نساء الطبقة الأرستقراطية في بيروت، يصنع منهن مفكِّرات وشاعرات ورائدات اجتماعيات، ها هو الآن مصنوع به، مشدود إلى سهجنان إلى أن تتكرَّر اللقاءات في العمل وخارجه، وسيكتشف عندئذ أنه كان بإمكانه الحصول عليها بأقل مما أنفق بكثير. غير أن ذلك لن يحدث بتاتاً. فثمة وقائع في الحياة تنسج فرادتها وتضمُّنا طيّها قبل أن ندرك ذلك.

لم يقلق أحد، في شركة التأمين، صبيحة اليوم التالي لغياب سهجنان، إلا أن فهد بدا متفاجئاً لظهورها على باب المكتب، قبيل انتهاء الدوام بقليل. كانت ضرّتها نوال في المكتب مستلقيةً على الأريكة، ذات الأريكة التي شهدت نشاطها الفاحش وفهد غروب أمس. سرعان ما عدَّلت نوال من جلستها، وأصلحت من مظهرها، وشدَّت ثيابها نزولاً، والخجل يعتري وجهها كالطفح الجلدي.

- أستاذ! معايزتك بكلمتين.
- نوال، تركينا لوحدنا شوي.

خرجت نوال تتعثر بإحراجها، وعيناها بين قدميها تعانقان سجادة المكتب. وما أن أغلقت الباب خلفها، حتى بادر فهد سهجنان:

- خير! إجا عابالك ماتش مبارح؟
- خبرتك من جمعتين، انو امي هرستها سيارة، وتكسَّرت تكسير.
- إي مزبوط، كيف صارت؟
- بدها عملية لوركها، وبدن دفعة سلف بالمستشفى إذا فيك تعطيني شهرين سلف، انو يعني تا نعمل العملية.
- طيب ليش ما حكيتي من الصبح؟

- هلق حكيني البابا.
- ممم... خليني شوف شو معي كاش!

فتح فهد درج المكتب وراح يعبث بداخله، وكانت سهجنان تسمع حفيف الأوراق النقدية، وهو يحصيها، فكان لهذا الحفيف في أذنيها نغم لا تفهم سواه في الحياة.

- حظك منيح يا جنان. هيدي ألفين دولار، وفوق منهم عشرينتين. صحتين عاقلبك. وسلامة إمك.
- الله يسلمك أستاذ.
- بلاها «استاذ» هيدي.
- ما بعرف. هيك طلعت معي.
- ما تطلع معك إلا لما يكون في ناس.
- اوكي. على فوقا بكرا مش راح اقدر اجي، لأني طالعة اليوم عاطرابلس لعند أهلي.
- ولا يهمك. بكرا وبعد بكرا. وإذا احتجتي لكم يوم غيرن خبرينا.
- مرسي.
- بس ما تطولي. يمكن اعتازك.
- اوكي، يا الله بخاطرك.

استدارت لتمضي، فنادها، فارتعبت، والتفتت، كانت تخاف أن يكون قد شك في خطتها. وهذا دأب المذنب دائماً.

- شو بخاطرك؟ هيك حاف؟! تعي لهون!

- خطت باتجاهه، فجذبها إليه، وأسقطها في حضنه وهو على كرسي المكتب، وراح يعبث بها من أعلى ومن أسفل، بهوس مريع، وما أوقفه، وهي بين يَدَيْ عبثه كدمية، إلاّ رنين هاتفها.

- شو مغيِّرة رنة التلفون؟

- لأ، هول ولاد اختي لعبولي فيه.

- ممنوع حدا غيري يلعب فيه! ههه.

- نيتك شو عاطلة. قصدي التلفون.

- «أنا قصدي شي تاني» ودفع يده عميقاً في حيائها، «قصدي هيدا».

- خليني امشي، يمكن هيدا البابا عم يتلفن، تايشوف شو صار معي، دبر حالك هلق مع نوال، يومين ثلاثة بس.

- نوال هاه! طيب، ما تطولي عليي. الله معك، قوليلها تفوت.

تنفَّست الصعداء عندما خرجت من مكتب فهد، ودَّت لحظتئذ لو تطير إلى مقلب آخر من الأرض. تنازعها شعوران متناقضان، وهي في المصعد: شعور التفلُّت من ربقة هذه العبودية التي عاشتها خمس

سنوات، تهب جسدها إلى رجل لقاء ألف دولار في الشهر فقط، وشعور كراهية الذات، لأنها تخدع رجلاً لا يبدو عليه أنه سيتخلى عنها.

لكنَّ الإنسان يهوى الفتك دون سبب، بخلاف كل الكائنات، فها هي سهجنان تتكشَّف عن عاهرة متجردة من شهامة العاهرات، لأنَّ العاهرة الحقيقية، تفعل ما تفعله وهي تدركه، بمعزل عن الظروف، أما سهجنان فتعهر، وهي منكرة، بعهرٍ له نصلٌ يطعن عميقاً، وينفذ بعيداً في المخدوع، وفي ما تبقى لها من حرمةٍ لذاتها واحترام لمبادئها التي باتت هباءً منذُ زمان بعيد، ومن دون أن تدرك ذلك.

كانت سهجنان تحلم بالوردة، وتعشق أن تكونها لولا شوكها، وها هي، تخضُّها الأيام ليخرج مخيضُ بؤسها شوكاً حادّاً جارحاً، لا تراه العيون وراء وردة مظهرها الملتبس، أشواكها الخفية هذه، لم تكن تدري أنها كانت دفينة فيها، وأنها باتت تدرك ذلك، فأمعنت في إخفاء أشواكها لتكون أكثر نفاذاً.

كانت عشرات الاتصالات التي لم تردّ عليها تشير على شاشة هاتفها إلى متصل واحد: وليد المفتي، لم تفكِّر في الردّ عليه، قبل أن تنجز ما عليها فعله، دفعت باب المصعد، فتلقاها ناطور المبنى:

- شو يا مدام مبكرة بالضهرة اليوم، المعلم مشغول؟ أنا جاهز!

- سكِّر بوزك!

واندفعت بعيداً عن المبنى، متعجلة إلى صالون التزيين، حيث قصَّت شعرها، ولونته أشقر فاقعاً، كما زجَّجت حاجبيها، ورفعت رموشها وأزالت شعر قدميها ويديها، وشعيرات ما خفي منها، وهاتفها لا يكف عن الرنين.

وهي غير عابئة، خرجت من الصالون امرأة أخرى أقرب إلى جنان منها إلى سهجنان. ولم يعد أمامها إلا الوصول إلى محلات أوكسجين، حيث اشترت طقمين، وفستاناً ارتدته على الفور؛ وإذْ تأملت نفسها في المرآة، بدت شديدة الرضى، فقرَّرت أن تجيب على اتصالات وليد.

- لاقيني بليناس الحمرا.

أعادت الهاتف إلى محفظتها، ولم تنتظر رده، ثم سارت بخطىً واثقة باتجاه المقهى.

دخلت سهجنان المقهى بفستانها الكلوش الجديد، ذلك الفستان الذي اشترته في الحال من محلات أوكسجين، بلونه المسكيِّ والمعرَّق بزهور الخزامى السماوية البنفسجية، فلم يبق في المقهى أحدٌ لم يلتفت إليها، حتى وليد المفتي، تملاها وأوشك أن يندم على موعده مع سهجنان، قبل أن يدرك أنَّ الأميرة تلك ليست سوى سهجنان نفسها. وما أنْ أيقن ذلك حتى اقتربت منه، واتخذت كرسياً قبالته، فبدت عليه ملامح الشاكرين الممتنين. ولقد كرَّر في ذاته مراراً: «الحمد لله الحمد لله».

- شو هالحلو هيدا؟ ما عرفتك!
- هيدا الفستان حقو ميتين دولار، وبدك تتكُّن متل الله واحد!

لم يقل شيئاً، واكتفى، كما لو أنه مسحورٌ، بإخراج محفظته، ونقدها ورقتين خضراوين. تلقَّفتهما، بفرح، فهي وحدها تعلم أنها لم تدفع ثمن الفستان سوى ثلاثين ألف ليرة لبنانية، وإذْ رأته يدفع لها ما تطلب، قرَّرت أن «تضرب الحديد وهو حامٍ».

- شو بدك تشربي؟
- شو قصتك انت! ما في عشا.
- عشا وأحلى عشا.

وما أن نهضت حتى استقام كجندي في حضرتها، وسارت فتبعها، وعندما باتا خارج المقهى، تقدمها باتجاه سيارته الإنفنتي، فتح لها الباب بجوار السائق، فتلكأت حتى أخذ مكانه في مقعد السائق، فدلفت متعمدةً أن ترتفع أطراف فستانها، لتكشف عن ساقيها وأدنى فخذيها الناعمين، فأتلفته، ولو لم يدر محرك السيارة لسُمع وجيب قلبه عالياً جداً.

- ليك مرَّقني عالـ Red shoe. البابوج مش لابق عالفستان.
- عراسي.

لم تكتفي سهجنان باختيار حذاءٍ واحد، بل تعمدت شراء ثلاثةٍ دفعةً واحدة بما يتناسب وما اشترته من ملابس جديدة، وكما هو متوقع دفع

وليد المفتي الثمن بطيب خاطر. وانطلقا باتجاه مطعم المندلون على عنق البحر وسط بيروت، حتى إذا اتخذت مقعدها على الطاولة، وأراد أن يجلس قبالتها، دعته للجلوس قربها، وفسحت له بحركة متقنة، أباحت لناظرَيه خبايا زلزلت كيان وليد.

لم يفكر في ما سيترتب عليه دفعه، وهي تختار من لائحة الطعام ما طاب لها من أطباق بحرية باهظة الثمن: القريدس، واللابستر، والسلطان ابراهيم وكل أنواع المقبلات. بالطبع كان وليد يفكر في أمرين اثنين: أولهما: كيفية استرداد ما ينفقه اليوم، وما أنفقه أمس من مالية المجلة. ثانيهما: انتظار اللحظة المؤاتية ليعبث بهذا الجسد المثير. أما سهجنان، فلم تتورع من محاولة إطعامه بيدها حيناً بعد آخر، وهي تمرِّر أناملها برقةٍ على أطراف شفتيه الغليظة منهما والرقيقة. فاشتعل وأوشك أن يترمَّد وهو يعبُّ من عرق كسارك.

أنهيا وجبتهما قرابة السادسة مساءً، فغادرا المقهى باتجاه Zaitonabay، حيث تناولا القهوة، وسارا قليلاً حذاء البحر، وهي تتعمَّد أن تأخذ ذراعه بين الحين والآخر، فيقعشر ويكاد يغشى عليه، حتى إذا أحست أنه بات ثمرة ناضجة قالت له بغنج هادفٍ:

- خدني عالمكتب، تا اتعرّف عليه.

وافق وليد دون أن يتردَّد، وانطلق بالسيارة إلى شارع سبيرز في الحمرا، وفي تلك البناية المجاورة لمطعم لا روج، استقلا المصعد

إلى الطبقة التاسعة، وهناك أخرج وليد علاقة المفاتيح، وفتح باب المصعد، فالمصعد لا يفتح في الطبقة التاسعة إلا بالمفتاح، لأن مكتب المجلة يحتل الطبقة برمتها.

- خدي هيدا مفتاحك، صبيتلك ياه اليوم.

دخلا مكاتب المجلة الفارهة، وسارا باتجاه مكتب وليد الذي يقوم على مساحة مئتي متر تقريباً، وفيه قواطع غير ثابتة، تفصل هذا الركن عن ذاك، لم يفاجئها وجود سرير وراء أحد هذه القواطع.

تأمَّل وليد وجهها وهي تتأمَّل السرير، فأوجعه أنها لم تبدي أية ردّة فعل مفهومة. إلا أنها سرعان ما سألت ببراءة مصطنعة:

- بتنام هون؟

- لأ. بس برتاح من الشغل أحياناً، فبتسطّح شوي!

- أنا والله جايي عبالي اتسطح!

وقفزت على السرير الوثير، فقفز قلب وليد، ودَّ لو تدعوه إلى جانبها، فهو معها لم يعد ذلك الذئب الفاتك الذي يعرف كيف يدوِّخ سيدات الصف الأول في بيروت وضواحيها والأطراف كلها. أصبح وليد أبكمَ، ولم يعد يتكلم فيه غير الشهوة في عينيه، وذلك الجفاف الحاد في فمه، وانتبهت سهجنان لذلك، فأمرته أن يختفي وراء الفاصل، لتخلع فستانها فلا تُهان جِدَّته وهي تتقلب على السرير. أراد أن يقول شيئاً فلم يستطع. فآثر الخروج، أمّا هي، فنضَّت عنها

ثوبها، وتمدَّدت على السرير قطعة من رخام حيٍّ، ولمّا لم يبد على وليد أية نباهة ذكورية، راحت تدَّعي النوم بتنظيم أنفاسها، ولم يطل الوقت حتى تسلَّل وليد حبواً بملابسه الداخلية، واقترب منها، تمدَّد بجانبها، وراح يقبِّل كتفها وجانبي عنقها، وهي على حالها من إدعاء النوم، فبالغ في تقبيلها حتى باطن قدميها، وتحت إبطيها. ثم أوغل عبثاً بيديه في كل مواضعها المحمودة والمذمومة، وهي على ادعاء غفلتها تصدر تأوهاتٍ مشجِّعةً؛ فخطر له أن يُغرق في ما يفعل، فأغرق، وهي تعينه، فإذا باعد بين ساقيها، باعدتهما، وإذا أنزل سروالها الداخلي، أعانته برفع مؤخرتها، ثمّ أولجَ وأمعن دفعاً وأمعنت رهزاً، حتى إذا بلغ وتهالك فوقها، فتحت عينيها متعجبة:

- يه يه شو عم تساوي؟

لم يكن قادراً على الإجابة، إذ سقط في دوامة النوم الحقيقي. فقنينة كاملة من عرق كسارك وسهجنان تكفّلتا بإذابته فذاب، فيما كانت سهجنان تتقصَّى دربها داخل هذا الجناح، لتجد الحمام، فاستحمت، ووضعت عليها ملابسها، وتسلَّلت خارج المبنى باتجاه مقهى الـ star bucks في شارع الحمرا، حيث كانت تركن سيارتها في موقف قريب هناك.

اتخذت سهجنان لها طاولة على رصيف المقهى، تتأمَّل الجالسين والعابرين، لم يكن بودها أن تشرب شيئاً سوى الماء، واستكثرت على

نفسها إنفاق ألف ليرة ثمن قنينة ماء صغيرة، فاكتفت بالعبث بهاتفها الخلوي الجديد، تنبهت إلى أنها تستطيع أن تطلب الـ password من نادل المقهى للاتصال بشبكة الإنترنت، وراحت تنزل التطبيقات المختلفة من واتس أب، وفايبر، وفيسبوك، وألعاب عديدة، ويو تيوب، وشرعت تشاهد ما طاب لها من مقاطع وأغانٍ، والسماعات في أذنيها، وهي في ذلك لا تعير انتباهاً لأحد من حولها.

عندما قرَّرت أن تغادر المقهى، لفتها رجل في مطلع أربعينياته يجلس منفرداً إلى طاولة قبالتها، لم يغرها فيه شيء إطلاقاً. فهو قصير القامة، مربوعٌ على سمنة لافتة، له لحية مشذَّبة، تحت شعره القصير الأملس، يرتدي قميصاً خاكياً ذا جيبين كبيرين وبنطلون جينز، وفي يده مسبحة صلاة، وهو لا يكف عن توزيع نظراته بينها وبين هواتفه الخلوية، فاشمأزت وأبدت ذلك بعبسة واضحة.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً، عندما بدأ هاتفها يرن رنيناً متواصلاً، نظرت إلى الرقم المرسوم على شاشة الهاتف، لتعرف به رقم وليد. قررت أن لا تردّ عليه. أما وليد فقد واظب على طلب رقمها بشكل متواصل، حتى خطر لها إطفاء هاتفها وهكذا فعلت.

في طريقها إلى موقف السيارات، سمعت رجلاً يناديها: «مدموزيل» التفتت لترى ذلك الرجل المربوع الذي كان يتأملها قبل قليل في المقهى.

- شو بدك؟
- بدي أعطيك كرتي.
- كرت شو؟ سينما؟
- لأ. بزنس كارت.

تناولت منه الكرت لتقرأ فيه:

شاهين بيُّوض

تجارة عامة وسمسرة

وفي أسفل الكارت بضعة أرقام تلفونات، ثلاثة خلوية، واثنان أرضيان واحد للمكتب وواحد للمنزل، والعنوان: الأوزاعي: بناية الأزهار، قرب أفران وملحمة الاستقلال.

فهمت لحظتئذ سبب وجود ثلاثة هواتف خلوية بين يديه. أخذت منه الكارت، وقالت بسرعة خاطفة:

- يسلمو.
- عندك كرت لإلك؟
- لأ.
- رقم تلفون؟
- شو بدك برقمي. إذا بدي شي بحكيك.

ومضت في بسبيلها، فتبعها وسألها:

- ممكن اسمك؟
- سهجنان.

لم تدري، لماذا ذكرت له اسمها الحقيقي، لعلها كانت تستخف بمظهره، وأن سهجنان أكثر ملاءمة له من جنان. أما هو، فوقف مشدوهاً لا يصدق أن سهجنان هو اسمها الحقيقي لأنه اسم لا يلائم أناقتها.

قرّرت سهجنان أن تمضي الليل في منزل أختها هلا، فقادت السيارة باتجاه الأوزاعي، حيث تقيم شقيقتها. لم تضع وقتاً في إيجاد ركنٍ لسيارتها، فثمة بورة في جوار المبنى يتخذها أبناء المنطقة موقفاً لسياراتهم، كما يتخفَّى فيها المراهقون الذين يدخنون بعيداً عن أعين ذويهم، وكذلك الحشّاشون والسكّيرون واللواطيون، يساعدهم على التخفي أن المكان ليس مضاءً، وفي حدوده لجهة الغرب منفذ إلى الشاطئ بين خرضة السيارات التي لا عدَّ لها ولا حصر، مما شكل أماناً للمحتمين خلفها كلّ بحسب حاجته ورغبته.

غادرت سهجنان سيارتها بسرعة بعد أن ركنتها، وسارت باتجاه المبنى الذي تسكنه شقيقتها هلا، وهو على مبعدة بنايتين من البورة. وقد استرعى انتباهها لافتة مضاءة كتب عليها «أفران وملحمة الاستقلال» حاولت أن تتذكَّر متى سمعت بهذا الاسم أخيراً، ولا سيما أنها لم تنتبه إلى هذا المحل من قبل، رغم إقامتها، قبل أربع سنوات، في بيت أختها سنة كاملة، فضلاً عن تردُّدها الأسبوعي، ونصف الأسبوعي بعد ذلك. لذلك كان أوّل ما بادرت أختها حين فتحت لها الباب هو سؤالها عن أفران وملحمة الاستقلال.

- هلَّلا هلّلا يا دنيا، عاش مين شافك يا سهجنان! قولي مرحبا بالأول.
- مرحباً بس عنجد قوليلي من ايمتين هالمحل هون؟
- من شهرين بس. كان اسمو «أفران وملحمة فلسطين» غيرو الديكور والآرمة والاسم. مدري ليش؟
- آ. وأنا قول، كان في فرن وملحمة هون، بس الاسم غير.
- ولك شو هالحلو هيدا، تياب وشعر ومدري شو، خبريني شو في؟
- شفتي ما أحلاني، باركيلي!
- خير! في عريس؟
- يا ريت. بس نقلت عشغل جديد ومعاش أكبر.
- مبروك. شغل شو؟
- شي بالصحافة. مجلة خليجية، مدري شو اسمها؟
- وانت شو بعرفك بالصحافة والمجلات يا مضروبة؟
- لأ. ما رح اشتغل بالصحافة، أنا مسؤولة العلاقات العامة.
- آ. وهيدا اللوك خاص بالعلاقات العامة؟
- اي. شو أخبار أمك؟
- والله ما بعرف. مش عم أحكيها، بنطر بيك تا يتلفن، بحكي كلمتين معو، بوجعلي قلبي، بقللو: بابا رح تفضا البطارية

والكهربا مقطوعة، حكيني بعدان. انتي شو؟ عم تحكيهن؟

- لا بدي احكيهن ولا شي. يدبرو حالن. بعدان ما حدا يقللي: امك وبيك، وبرّ الوالدين.. هيدا بيك وعمومتك زتو بيّهن بالمأوى وما حدا تعنّى يسأل عنو من سنة.
- بتجي نروح نسأل عنو بكرا لجدِّك؟
- فشر! شو هبلة انتي؟ يمكن يكون بدن شي، يمكن يكون مات، ويقعدو يتكمشو فينا، ومين بعود يخلصنا. اهتمي بحالك وبعيلتك.
- عندك حق. الله يستر.
- وينو جوزك؟
- نايم!
- ولك كيف بتخلي ينام، ما يكون عم يهرب من واجباتو الزوجية؟
- عم يهرب، معك حق، بس كمان الولاد ما بينامو من دونو.
- دخيلك أريح.
- بسخنلك الأكل؟
- لأ. فنجان شاي وعروسة لبنة بس.
- ما في لبنة في جبنة بيكون.
- بيكون منيح، ما بيشكي من شي.

تحدثتا طويلاً، ثم ذهبتا إلى النوم، وقد فرغت جعبتهما من الكلام، لم تستيقظ سهجنان قبل العاشرة صباحاً. كان المنزل هادئاً، ارتدت ملابسها سريعاً وأوشكت على الخروج عندما وصلت هلا التي أعدَّت مناقيش الزعتر، بملحمة وفرن الاستقلال.

- لوين لوين. تروقي وبتروحي.
- اي والله، إلي سنة مش ماكلة منقوشة، وين جوزك والولاد؟ اشتقتلن.
- جوزي بالشغل، ضهر الساعة ستة، والولاد بالمدرسة.

تناولتا الفطور معاً، ثم استعدت للخروج:

- بوسيلي ياهن. ولادك وجوزك. الولاد بوسيهن لما يوصلو من المدرسة، وجوزك بالليل بركي بحس عدمُّو.
- لا تخافي عليي.

عندما هبطت السلالم نزولاً وانتهت إلى الشارع، لفتتها من جديد لافتة أفران وملحمة الاستقلال، فحاولت أن تتذكر دون جدوى. إلا أنها تذكرت أن هاتفها مطفأ. فشغلته لتصلها عشرات الرسائل كلها تشير إلى أن وليد لم ينم لحظة واحدة وهو يحاول الاتصال بها، وها هو هاتفها يرن من جديد.

- ولك شو باك نازل فيي طرق.
- عم عم عم اطَّمن عليك!

- عم تطمن عليي؟ شو عملت فيي مبارح أنا ونايمة؟
- أنا؟
- لأ أنا؟ نطرني جايي لعندك.

لم تصل سهجنان إلى المكتب إلا عند الساعة الثانية عشرة، فاجأها أن المكتب خالٍ تقريباً من الموظفين والموظفات، باستثناء سكرتيرة تجلس قبالة المدخل الرئيسي، وستكتشف أن في المطبخ عاملة واحدة تهتم بالقهوة والنظافة، ثم لاح لها موظفان خلف مكتبين متجاورين في أقصى المكان، وبدا أنهما منكبَّان على أوراق يدقّقان فيها. حيَّت سهجنان السكرتيرة بحركة من يدها، ثم توجهت من فورها إلى جناح وليد المغلق، فتحت الباب دون أن تقرعه، تحت أنظار السكرتيرة الحائرة، كان وليد يشاهد على التلفزيون فيلماً عربياً بالأبيض والأسود. وقف وليد حالما رآها وهو يحاول أن يخفي ارتباكه وسعادته.

- نوَّرت. نوَّرت. يا عمي وين اختفيتي مبارح؟ شغلتيلي بالي.
- الله لا يشغل بال! انو معقول انت، بتخليني لنام وتعمل عملتك!
- وطّي صوتك بلا جرسة.
- بدّي قلك، مبارح كان يوم خطر!
- ما فهمت!
- يعني، يمكن كون حامل.
- حااامل؟

- شو خفت؟
- لأ. بس...
- بس شو؟
- بركي مش مني.
- شو مفكرني بنت داشرة، ولك أنا ما باس تمي إلا أمي.
- مش قصدي. بس.. بس ما حسيت أنك بنت، كل شي كان مسهَّل.
- يا ويلك من الله!
- يا عمي ما نزل دم ولا شي. فكَّرت..
- لأ يا حبيبي، هون ما نزل دم، بس بالبيت كل الليل وأنا نضِّف حالي. بعدان أنتَ شربت قنينة عرق شو بدّك تعرف تا تعرف!
- معقول؟
- ليك يا وليد، ما تبلش تتهرَّب خليك رجال. أنا ما بدي ولاد بس الله يعينك إذا طلعت حامل. وبقولو في فحص ببيِّن الولد مين بيو..
- قصدك فحص الـ دي. أن. أي؟

فجأة قامت سهجنان بحركة تمثيلية، فهرعت إلى الحمَّام، تدعي أنها تستفرغ أمعاءها. لم يجرؤ وليد على اللحاق بها، وعندما عادت بعد دقائق تهالكت على الأريكة المقابلة وقالت بصوت أبح ضعيف ومصطنع:

- طلبلي ليموناضة!
- حاضر.

لا أحد يدري من أين أتت سهجنان بهذه الفكرة الجهنمية، حتى هي نفسها تعجّبت من ابتكارها الشيطاني هذا. وقد راقها لها ذلك فتماهت مع الدور إلى أن أبرمت اتفاقاً جديداً مع وليد يتمّ بمقتضاه مراعاة ظروف احتمال الحمل، وعليه فستأتي إلى العمل حين تستطيع، وفي الأوقات التي تلائم تغيّرات هرموناتها حتى انقضاء ثلاثة أشهر، فإذا تأكد الحمل أجهضت، على نفقة وليد، وإذا تبيَّن عدم حملها، فيكون عندئذ «يا دار ما دخلك شر» حسب تعبير سهجنان، وعلى وليد أن يتكفَّل بالمصاريف كافة، ويستمر في دفع راتبها شهراً فشهراً. وافق وليد على ذلك من دون تردّد. ولما طلبت منه سهجنان أن يوثّق ذلك كتابةً، تمنَّع «فأنا كلمتي كلمة».

- بسيطة ما تكتب شي، بس تذكر مبارح كيف عملت الاتفاقية بسرعة البرق. على كلٍ اسمع!
- شو بدي اسمع؟
- تسجيل الحكي اللي صار بيناتنا هلق.

ثم كبست بضعة أزرار على لوحة مفاتيح الهاتف الذي اشتراه وليد لها، وراحا يستمعان معاً إلى إعادة للحوار الذي جرى بينهما مذ وطئت قدماها أرض المكتب قبل قليل، فبدا الارتباك على وجه وليد، والارتياح على وجه سهجنان.

- بس ما تخاف. سجلت حوارنا على سبيل الاحتياط.

لم يعلق وليد بكلمة، واكتفى بأن أطرق بحزن، بينما كانت سهجنان تسترخي على الأريكة بسعادة مطلقة، وهي شديدة الإعجاب بإبداعاتها التي تفتَّقت فجأة هذه الظهيرة.

- وين الليموناضة، شو راحو يضمنو بستان حامض من شان كباية ليموناضة؟

ضحك وليد فيما كان يرفع سماعة الهاتف، ويسأل عن مصير الليموناضة، فأتاه الجواب، أن عاملة المطبخ نزلت تشتري الحامض من البقالة المجاورة وحالما تصل، ستكون الليموناضة جاهزة.

لم يكن ما يقلق وليد المفتي احتمال حمل سهجنان، بل إن قلقه الأكبر أن يكون قد استحال هو نفسه بقدرة قادر من رجلٍ عقيم، كما ثبت له من زواج سابق، إلى فحلٍ ضرابٍ يُلقح فيصيب. وكان كل همه منصباً أن يمضي، حالما تخرج سهجنان، إلى مختبر الجامعة الأميركية القريب، ليجري فحص بذرة. وقد وعد الله فيما بينه وبين نفسه، أنه إن جاء فحص البذرة إيجابياً، أن يتزوج سهجنان مهما كان ماضيها.

أما سهجنان، فكانت، وهي متكئة على الأريكة كامرأةٍ حامل في شهرها الثامن، تفكِّر في حجج لا بدَّ منها بعد مضيّ الأشهر الثلاثة القادمة، وقد استعادت، وهي مغمضة العينين، حركات أختيها هلا وهويدا وسلوكهما إبّان حملهما، فكانت تبادر بين الفينة والأخرى إلى

التأوّه، دون أن تدري أن مثل هذه التوجعات لا تصدر عن حاملٍ في الساعات الأولى للحمل المفترض.

قُرِع الباب، وسهجنان ما زالت مستلقية على الأريكة منفرجة الساقين، قبالة وليد الذي بدا، من وراء مكتبه مستلباً تماماً. دخلت روضة الخادمة، تحمل كوباً من الليموناضة المثقل بمكعبات الثلج، ولم تغيِّر سهجنان من جلستها. وقفت روضة حائرة، تنتظر أمراً لتعرف أين تضع كوب الليموناضة. استدرك وليد سريعاً:

- حطيه قدام المدام!

تركت روضة كوب الليموناضة أمام سهجنان على الطاولة، وخرجت، وما أن أغلقت الباب خلفها، حتى سمع وليد سهجنان تقول:

- مدام هاه؟ اعترفت بجريمتك؟

ارتبك وليد، فلم يقل شيئاً، إلا أنه نهض من وراء المكتب ودنا من الأريكة، حيث سهجنان، واندس بقربها كطفل سعيد بوجودها في حياته، وراح يعبث بخصلات شعرها، وأحياناً تنزلق كفّاه إلى فخذيها، فتتركه مغمضة العينين شأنها يوم أمس، وأوشك في استغراقه أن يبلغ مبلغاً إشكالياً حين تعالى رنين الهاتف، فهبَّ مذعوراً باتجاه المكتب متلقفاً سماعة الهاتف:

- آلو؟ أهلاً بأديبتنا الكبيرة؟ شو أخبارك...

أكيد أكيد.. تقريباً رح نخلص الحوار معاك متل ما بليق فيك،..

صدقيني عم شغّل تنين كتّاب من أرفع درجة بالموضوع، بكرة أو اليوم بعد الضهر بتكون المقابلة خالصة.. الصور؟ ما تشغلي بالك، بكرا منتفق وين مناخد الصور... بالمناسبة بدي عرفك على مديرة العلاقات الاجتماعية بكرا... اي اي.. اجت جديد من الدوحة، من الإدارة المركزية للمجلة.. لا لا الست جنان بتعجب خاطرك، بدنا نهتم فيها كثير، وبدك تاخديها عاشي كم محل ببيروت بيضيلي وجي، لأنو بإيدها تقريباً كل شي، أوكي أوكي.. بعرفك قدها وزيادة.. عالتنعش بكرا كثير منيح، منتغدى ومنحكي. الله معك. الله معك.

كانت سهجنان، تصغي بانتباه وتعجُّب شديدين، ولم يبد عليها الاستغراب، وإن تحركت في عروقها شياطين الفضول، وما أسرع أن بادرته بالقول حال انتهائه من المكالمة:

- شو يا سيد وليد بلشت تشغلني من دون علمي، ولك كيف بتقول اني جايي من الدوحة، وأنا مش ضاهرة برات بيروت..
- روقي، روقي شوي، هيدي الست دبية مراة أكبر مقاول بالبلد، عم اعمل منها أديبة...
- شووو؟ ليش انت بتصنع أديبات؟
- شو مفكرتيني حبة وحبتين؟ جوزها بيسرق البلد، ونحنا منسترجع شوي من حرمتو. شو بدك ياني عيش عالمعاش؟ بعدان إذا كنتي حامل، منين بدي أمّنك؟

لم تفهم سهجنان كثيراً مما قاله وليد، ولكنها اكتفت بالإصغاء إلى عباراته وأفكاره التي لم تعي منها أبعد من أنهما سيستفيدان معاً فوق المتوقع.

كل المطلوب منك، لما تلتقي فيها بكرا إنك تحكي كلام عام، وأوعك تبيني أنك راضية، بدي زلّطها، هيدي وحدي مشحمة.

- ليش هيدا مكتب مجلة أو ملحمة؟
- ملحمة! هههه.

وستعرف لاحقاً سهجنان أن مكتب مجلة «فتاة الخليج» ملحمة تسفك فيها الدولارات التي استلّت من دماء العاملين في شركات المقاولات والبنوك والوزارات يغتصبها رجال الطبقات العليا من الناس والمجتمع، وتنحرها نساؤهن على كل عتبةٍ، وهوس البروز عندهن إحدى أغلى هذه العتبات.

- ما علينا شو اسمها هالمخلوقة؟
- دية الخانجي. بس هي بتكره اسم دية، قالت أنو بيها سمّاها على اسم ستها.

جَرَضت سهجنان بريقها، وهو يكمل: بس أنا أقنعتها باسم أديبة، بتعرفي، جنَّت لما اقترحت عليها الاسم، قالتلي: «إلي ثلاثين سنة ما فكرت بهالشي» مع أنها بتكره اسمها.

- اوف. في ناس هيك؟

- اي اي في ناس هبل كتير بيستحو بأسمائن.
- «معقول؟» وأسرَّتها في نفسها ولم تبدها له.
- معقول ونص.

راحت سهجنان تحتسي الليموناضة بتلذذٍ، وعيناها ذابلتان، انسجاماً مع دور الحامل، فيما كان وليد مغموراً بسعادة غير مفهومة لسهجنان، بل غير مفهومةٍ له هو نفسه، فهو لا يدري ما إذا كان سعيداً لحمل سهجنان منه، أو أنه سعيدٌ لأنَّ الست ديبة ستهتم بسهجنان غداً وفي قابل الأيام. فضلاً عن الدفعات التي سيستلّها منها لقاء المقابلة التي ستكون جاهزة قبل هذا المساء، فالمحرران عاكفان منذ الصباح على صنع هذه المقابلة، وقد أوصاهما أن تجيء في حدود ألف ومئتين كلمة، ناهيك بالصور والترويسات.

فجأةً، خطرت في بال وليد فكرة، بدت له خارقة، لما ستدرّه عليه من مالٍ إضافي غداً عندما يلتقي الست ديبة، واستعداداً لمقابلات قادمة، وربما السمسرة على نشر مجموعة شعرية لها.

خطا مباشرة إلى مكتبه، واستلَّ أوراقاً بيضاء وانتضى قلماً، ثم التفت إلى سهجنانه التي ما انفكّت تذبِّل عينيها تمثيلاً، وتنخر إذا نسيت.

- قولي جملة مفيدة!
- شو؟
- قولي أي شي!
- اي شي.

فكتب على الورقة أمامه: أيّ شيءٍ.

وأضاف: في فؤادي.

ثم تلا عبارته، وأعاد العبارتين معاً، وقبل أن يشرح وليد لسهجنان أصول اللعبة، قاطعته:

- مين فؤاد؟

نظر وليد مستغرباً: «فؤادي.. فؤادي. يعني قلبي».

- اي قول: قلبي، فرد مرَّة!

- يا حياتي، عم نكتب قصيدة، لازم الكلمات تكون غريبة عجيبة، تاتبيّن فصيحة.

- حياتك؟ من ايمتين يا روح أمّك؟

- من لمَّن خبرتيني إنك حامل، وإذا طلعتي حامل عن جد، بتصيري عمري والدنيا كلها.

لم تعلق سهجنان على ذلك، سوى بدهشةٍ أنستها تماماً تذبيل عينيها. بينما انصرف وليد ببراعة مطلقة يشرح لها طريقته في تدبيج القصائد الفارغة لديبة وأمثال ديبة، حيث يجتمع اثنان أو أكثر، ويقول كلٌّ عبارة، تطلق على السجية، ومع بعض أدوات الوصل والعطف يصبح لدينا قصيدة «ونقبض كم ألف دولار نحنا وعم ناكل هوا».

لم تفهم سهجنان ما يقول لكنها ظلَّت مصغية وعيناها تحدقان باتساع عظيم، إلى أن تنبَّهت، فأذبلتهما وتأوهت.

- عطيني جملة ثانية!
- دخيلك خلص! ما إلي خلق. شوف غيري.

على الفور رفع وليد سماعة الهاتف الداخلي:

- سعدى، عيطيلي لشادي وجبور وفوتي معاهن.

وسرعان ما دخل الشابان اللذان رأتهما سهجنان من قبل منكبين على الكتابة، ومعهما السكرتيرة التي ما انفكت مندهشة من جرأة سهجنان باقتحام مكتب وليد من دون استئذان.

يا اللا يا شباب، عالسريع، بدنا نكتب قصيدة، متل ما إلنا بالعادة. رح مدّ الفرشة للقصيدة اسمعو:

«أي شيء

في فؤادي

جبور: لا أعرفه

شادي: ويعرفني

سعدى: اسمه الحبُّ

علَّقت سهجنان من خارج السياق: تضربو

جبور: اسمه الحنين

سهجنان: يا مساكين!

شادي: واسمه تعاستي

وليد: انتظارا

جبور: تمرُّ بصارة

سهجنان: بالحارة

شادي: وتخبرني

سعدى: بأني

سهجنان: يا عيني يا عيني

وليد وهو ينظر إلى سهجنان بشهوة: أشتاقُ إليك

سهجنان: دخل عينيك

جبور: فمتى تعلم

شادي: أنني أتألَّمَ

- خلص! هيدي هيي ما بق حدا يزيد شي. قال وليد بسعادة. ثم نظر إلى شادي وجبور، وهو يمدُّ إليهما بالورقة التي كان يدون عليها القصيدة:
- زبطوها ورجعولي ياها هلق. اتكلو عا الله. سعاد خلّي روضة تجيب قهوة.
- حاضر.

بعد أن انصرف الجميع واختلى وليد بسهجنان، راح يفيض عليها من لواعج قلبه مشاعر لم تعتدها سهجنان من أحد، بعد الاضطجاع الأول، الأمر الذي أربكها كثيراً، ولم تعرف ما عليها فعله، فلجأت إلى الحمّام، تدعي استفراغ ما في أمعائها، وقد تبعها وليد، فأقفلت الباب

وراءها، أما هو فانتظر خارجاً، وقد ضمّ كفيه ضمّاً شديداً، رافعاً ناظريه إلى السماء، يتوسل إليها أن تكون سهجنانه حاملاً. وكان على وشك الركوع على ركبتيه، عندما فتحت سهجنان باب الحمَّام:

- شو باك؟ بدَّك تتنقوز عليي من بخواش الباب؟ هيدي زعرنة.
- لأ يا حياتي! كنت بدي صلّي الله يهونها عليك.

وقبل أن تجيب، دخلت روضة تحمل صينية القهوة، يتبعها شادي وجبور، قدَّم جبور ورقة إلى وليد، وانتظرا رأيه فيها:

- رائع. رائع، بس وين مشاركة سهجنان؟
- قالتهن بالعامية! منزبطهن بالفصحى، قال شادي؟
- لأ. يا ذكي. خليهن بالعامية. هيدا شعر ما بعد الحداثة. تركهن بالعامية. شو بعرفك بالشعر أنت. يا اللا عالسريع..

هرع شادي وجبور خارجاً، أما سهجنان فعادت إلى جلستها على الأريكة قبالة المكتب، وهي نصف متمددة تبدي ساقيها وما بينهما، كأنها وحدها في المكان. واكتفى وليد بالاسترخاء على كرسي المكتب، وهو يمنّي النفس بأن تكون سهجنان ملكه إلى الأبد.

لم يجد وليد يوماً نفسه بهذه السعادة، والسعادة كما يبدو مجرد وهمٍ. تطلقه لحظة عابرة، أو فهم خاطئ، ليصبح هذا الوهم ظلّ حقيقة نقتات بها طويلاً طويلاً، وهذا ما جرى لوليد، فيوم أمس، كان قلقاً بشأن ما أنفقه من مالٍ لإغراء سهجنان والحصول عليها، واستحوذت

طوال الليلة الماضية على وليد فكرة استعادة ما أنفقه من مال على سهجنان بعد أن ذاق عسيلتها، لكنها ما إن أخبرته بحملها حتى لم يعد يفكِّر في غير أن تكون حاملاً حقاً. ودَّ وليد لحظتئذ لو ينفق كل ما لديه عليها إن كانت حاملاً، وهو الحريص على النهب والتلاعب بحسابات المجلة، ويضع على جدول القبض لمكتب بيروت ما يزيد على عشرين موظفاً وموظفة، بينما في الواقع لا يوجد على جدول القبض فعلياً غير شادي وجبور وسعدى وروضة، أما الأسماء الأخرى، فكانت تُستكتب على القطعة، وإذا ما وصل من إدارة المجلة في الدوحة أحد، استدعى الكتَّاب والكاتبات بالقطعة، وكلفهم موضوعات مختلفة، ليؤكد حقيقة توظيفهم، وليدافع عن فواتير يبتكرها ومصاريف يخترعها، فضلاً عن أنه لم يجرِ مقابلةً مع أحداهن أو أحدهم، دون أن يبتز منهن ومنهم ما استطاع. أما الفنَّانات والفنانون فكان يتقصّى أخبارهم من الصحف والمجلات اللبنانية الأخرى، فإذا فرضت عليه إدارة المجلة مقابلة مع فنانة شهيرة، تولى الأمر بحنكته وثعلبيته المعروفة، فيتقاضى ما استطاع من هدايا ومال، كأن اللقاء قد جاء خدمةً اختصّ بها هذه الفنانة أو تلك.

كان لديه كل ما يشتهي، إلا الولد، فزواجه بدنيا عزوز قبل سبعة عشر عاماً، لم ينتج عقباً يشتهيه، وكان يتردَّد ودنيا، تحت إصرار أهليهما، إلى طبيب مختص بالعقم، إلاّ أنّ ذلك كان دون جدوى، ليس لأنه كان عقيماً، بل لأنَّ دنيا عزوز، ابنة مدير ذلك المصرف الشهير في بيروت،

اكتشفت بعد الزيارة الأولى للطبيب من دون وليد، احتمال أن تكون عقيماً، لأن فحص الطبيب السريري، قد بيَّن له أن أنابيب مبيضها تبدو ضيقة جداً، ولقد ثبت للطبيب أن أية عملية جراحية لن تستطيع تغيير واقع الحال، ناهيك بخطرها.

عاشت دنيا عزوز في قلق وخوفٍ شديدين، إلى أن تفتق ذهنها عن فكرة إبليسية، فقصدت سكرتيرة طبيب العقم، وأغرتها ببطاقة ائتمان مصرفية، من مصرف أبيها، تضع فيها مئتي دولار شهرياً، صحيح أن البطاقة كانت باسم دنيا عزوز، إلاّ أن الرقم السري والبطاقة كانا بحوزة السكرتيرة، فضلاً عن بعض الهدايا بين الحين والآخر، شرط أن تزودها السكرتيرة بنتائج فحوصات مخبرية لرجالٍ عقيمين، وليس عليها إلا أن تطبع اسم وليد مطرود المفتي، بدلاً من اسم الرجل العقيم صاحب الفحص الأصيل. وما كان على دنيا عزوز، إلا أن تقنع وليد كل ستة أشهر، بإفراغ بذرته في أنبوب تزودها إياه سكرتيرة طبيب العقم، ويفعل وليد ذلك مرغماً، ويترك الأمر لزوجته دنيا التي كانت تلقي بما في أنبوب المختبر في بالوعة الحمام حالما يخرج وليد إلى عمله، ثم تخفي الأنبوب بعد تنظيفه ستة أشهر أخرى، وفي أثناء ذلك، كانت سكرتيرة طبيب العقم تزود دنيا نتائج فحص رجل عقيم حقاً، واضعةً اسم وليد مكان اسم العقيم الأصيل، كما تحرِّر لها وصفةً طبية بفيتامين أو اثنين، يتغيران أيضاً كل ستة أشهر، تقدم دنيا لوليد منهما حبتَين واحدة صباحاً وأخرى مساءً، حتى غدا كالطبل المنفوخ.

ولـم يعتنِ وليد مرَّةً بمعرفة طبيعة هذه الأدوية، وما كان يفكِّر في طلاق دنيا، لولا إصرار والديه اللذين كانا يلحّان عليه بأن يسعدهما بتكحيل أعينهما بأولاده، لم يشأ وليد إخبارهما بأنه عقيم إلا أنه اضطر إلى إخبارهما أخيراً بذلك، فأشارا عليه بطلاقها والتجربة مع أخرى، فالله على كل شيء قدير، فصدع وليد قبل ثلاثة أشهر، وانفصل عن دنيا التي كان والداها يعرفان منها عقمها، فسكتا على مضض. ولقد أشرقت سهجنان على وليد في هذه اللحظة بالذات، تلك اللحظة المؤاتية. وكان يمكنها أن تكون كأمثالها من الموظفات أو الكاتبات بالقطعة، وغيرهن من الراغبات في أن يعملن في مجلة «فتاة الخليج»، حيث يأتين بآمال عريضة قبل أن يبحن لوليد أجسادهن أسابيع تقل أو تزيد إلى أن يكتشفن عدم جدوى المراهنة عليه. ولولا ما أجراه الشيطان أو الحظ على لسان سهجنان من أنها حاملٌ. لربما كان مصيرها أشبه بمصير سابقاتها، وقد أصاب ذلك من وليد مكامن الأمل فيه، فباتت سهجنان بعينيه حاملة سعادة أبويه العجوزين، لا ولي العهد فحسب.

أفاق وليد من غفلته، وهو مفتح العينين متملياً سهجنان، إذ سمعها تسأله:

- وين صرت؟

- بتتجوزيني يا جنان؟

صدمها قوله. ولم تدري بماذا تجيب. كما لم تدري ما إذا كان جاداً أو هازلاً، ولم تدري أتقبل فوراً أم تتأنى.

لكن المرأة، كما هو معروف، مزودة بقدرة غير عادية على الإجابات غير الدقيقة، استمهالاً للتأكد حيناً، وأحياناً كثيرة للحصول على أكبر قدر من الفوائد.

- مش تانشوف شو صاير فيي بالأوَّل؟
- شو بدنا نشوف؟ خلينا نتجوز، والكاتبو ربك بصير.
- خليني فكر!
- لشو التفكير، بوجِّع الراس.
- خلص! أجّل الموضوع شي كم يوم.

وصلت سهجنان، صبيحة اليوم التالي، إلى مكتب المجلة، بعد عشرات الاتصالات من وليد، فاليوم يوم مهم في حياته، سيلتقيان ديبة، وثمة احتمال أن يجني وليد مالاً إضافياً يسعده كثيراً. كما أنّه سيكتشف ما إذا كان وجه سهجنان خيراً عليه. وكثيرون يعتقدون ذلك، فيربطون بين الأشخاص وبين الرزق، كما بين الألوان وبين الفأل الطيب. وقس على ذلك مواقف الناس من الأيام والشهور والأرقام. وهذه جميعها قناعات راسخة في ذات الانسان، وإن لم يصرِّح بها أحد، أو أمعن في إنكارها حيناً بعد آخر، ليظهر بمظهر الانسان الحضاري، كأنما الحضارة نقيض قناعاتنا أو أنها لا تسير على هديها أحياناً، أو كأنها ستبدِّل مسارها انسجاماً مع هذه القناعات أو تلك. ولسبب ما يريد الانسان أن يستفتح بما يعتقد أنه سيكون فاتحة خير وتوفيق، بمعزلٍ عن دنَس العمل الذي يقوم به أو عن طهارته.

وقلَّ أن يلتفت أحدٌ إلى هذا التناقض من القائلين والسامعين، فلا ينبغي التعجُّب من وليد وقناعاته، وفي باله تقرع جملة أمه الحاجة سهجنان: «الدنيا وجوه وعْتَاب». وها هو وليد يتوسَّم أن يكون وجه سهجنان خيراً عليه.

- حبيبي يسعدلي هالصباح!
- والله! شو هالحب؟ صرلنا يومين منعرف بعضنا يا وليد.

وهذه حجة كل أنثى، تريد أن تتيقن من مشاعر الرجل الذي أمامها، أو تغريه بتقديم الأدلة والبراهين. وحدها النجيبة تعرف أن تورط هذا الرجل لتصبح قيداً في يده إلى الأبد، أو حتى انقضاء أحد الأجلين.

- يا ستي ليش ما بتصدقي، مبارح عرضت عليك الجواز، شو بدك أكتر من هيك، بعدك ما فكرتي؟
- فكّرت، بس خيفاني، بدي ضمانات؟
- أيا ضمانات. حياتي كلها إلك.
- بدي شي باسمي.
- اللي بدك ياه! بس ان شاء الله تكوني حبلى!

عند سماعها كلمة حبلى، تذكرت أنّ عليها أن تقلّد سهير رمزي بدور الحامل، فقفزت إلى الحمام وراحت تدعي استفراغ أمعائها، وتبعها وليد سعيداً وخائفاً.

- لازم يكون في دوا لهالشي.
- سكوت!
- يا حياتي، في عنا اجتماع مهم اليوم، بدي ياكي نشيطة.
- ما تخاف عليي!
- يا رب! يا رب!

رنَّ جرس الهاتف، هرع وليد يجيب:

- أهلاً ست أديبة. أهلاً.. الفور سيزن؟ كتير منيح، كتير منيح.. تنعش عالدقيقة.. شو عليه، منتغدا ومنحكي.. ألو ألو.. قبل ما تسكري، دخيلك ما تسوديلي وجي قدام الست جنان، جايي من الدوحة، وما بتعرف شي بلبنان. بدها تشتري شوية تياب، وما بتعرف شي ببيروت.. الهمِّة عليكِ.. بعرف، بعرف، أنت قدّها. يا اللا نلتقي بعد قليل...
- والله والله، بلشت تتاجر فيي، وبدَّك تجهزني عا حساب غيرك! ولك كيف بدي صدقك؟
- يا حياتي، مش عم تاجر فيكي. معقول؟ خلينا نمشي هلق، ومش رح تكوني إلاّ مبسوطة! ما بدنا نتأخر.

ما إنْ وصل وليد وسهجنان إلى الفور سيزن، حتى بدا أنَّ المكان كله يرحّب بهما، فثمة مضيفة تحمل لوحةً عليها اسم: «الأستاذ وليد المفتي وجنان الفضل» توجها إلى المضيفة، فقادتهما إلى طاولةٍ في مقهى الأوتيل عليها ورود من كل حجم ولون ومن ورائها يطل وجه ديبة الذي أنهكته عمليات التجميل، فبدا بمجموعه تقاسيم تنتمي إلى وجوه فنانات مختلفات من كل أقطار الأرض. همست سهجنان في أذن وليد:

- هيدي أديبة؟ هيدي دبَّة!
- روقيها يا حياتي، بدنا ناكل عنب!

رحبت ديبة بهما بوداد رفيع، وبالغت في الاهتمام بسهجنان، التي لم تدري متى تضحك ومتى تكون جدية فوجه ديبة لا يوحي، بسبب عمليات التجميل، بحقيقة مشاعرها، فقد تضحك وتظهر عليها تقاسيم الباكيات، وقد تتكلم وشفتاها جامدتان. كما أن جفنيها لا ينطبقان انطباقاً كلياً، بل نصف انطباق بسبب الشدّ التجميلي المتواصل. وبالمختصر بدت ديبة أشبه ببروفايل تحتموس الثالث كما نراه في كتب التاريخ، إلا أنها بيضاء بعكس تمثال تحتموس الثالث البرونزي.

انهمرت على الطاولة أطباق الحلوى والكرواسون والبيتي فور الإفرنسي الفاخرة إلى جانب القهوة والنسكافيه والحليب بأباريق من البورسيلان.

- منتسلى شوي قبل الغدا.
- أكيد أكيد. قال وليد. أما سهجنان فلم تعلّق، تحت وطأة المفاجأة، فهذه مشاهد، لم تعرف أنها متوافرة في لبنان، فلطالما ظنَّت أنها من إيحاءات السينما وأفلام MBC2، وهذا ما منحها مهابةً في عينيّ ديبة التي زاد من ارتباكها، وراحت تفكِّر في كيفية بهر سهجنان، وإذ استقرَّت على بهرها بالملابس والإكسسوارات التي ستشتريها لها. سمعت وليد يقول:

- قبل ما انسي، هيدي نموذج من قصايد الديوان إذا اتفقنا عليه!

وقدم لها ورقة زهرية اللون مطبوعة بخط مائل قياس ١٦ بتوزيع فاتن، مع إطار من القلوب والأزهار. نظرت ديبة إلى الورقة بين يديها بإعجاب، ثم حاولت أن تقرأ فلم تتهجَّأ جيداً، شأن كثير من ملوك العرب.

- ليك اقراها انت أستاذ وليد، عويناتي مش معي:

«أيّ شيءٍ

في فؤادي؟

لا أعرفه

ويعرفني

اسمه الحبُّ

يَضْرِبُ، (قرأها: تضربو)

اسمه حنين (قرأها: الحنين)

المساكين، (قرأها: يا مساكين)

واسمه تعاستي

انتظارا!

لو تمرّ بصارة

بالحارة

فتخبرني

بأني

يا عينُ عيني

اشتاق إليك

وحقِّ عينيك (قرأها: دخل عينيك)

فمتى تعلم

بأنني أتألَّم؟»

- واو.. واو.. دخيل ربك، شو هيدا، اي.. اي.. بدي ديوان هيك. قديش المطلوب؟

- خمستعشر ألف بس، لإلك.

- ولك عشرين. تكرم عينك أستاذ وليد. قومي معي ست جنان. وأنت كمِّل نقرشة أستاذ وليد.

- لوين؟

- بدنا نشتري تياب للست جنان.

- ما تنسي أنها شاركت بضبضبة مفاصل القصيدة قد ما حكيتلها عنك.

- الله أكبر! الله أكبر كبيراً. ما رح خلي شي بالسوق.

- ما معي مصاري هلقد ست أديبة.

- ومين قال رح تدفعي قرش واحد. هيدي القصيدة بتساوي الدنيا، قالت كلّ اللي بقلبي يا جنان.

- ست أديبة: ما بدك تشوفي المقابلة؟
- ما بدي شوف شي، بعد القصيدة، دوختني، ووثقت فيك أكثر وموافقة عاكل شي منك يا أستاذ وليد.

جلس وليد كالطاووس إلى الطاولة بين الورود والبيتي فور وسوى ذلك، بعد انصراف ديبة وسهجنان، وقد بات الآن أوثق أن وجه سهجنان خير عليه، لقد كان يمني النفس بعشرة آلاف أخرى فوق المقابلة، فطلب خمسة عشر ألف دولار، ليكون لديه مساحة للتنازل، وها هي ديبة ترفع المبلغ إلى عشرين ألف دولار.

- شكراً لك يا رب، شكراً لك يا رب بكل اللغات.

طال انتظار وليد، لكنه أضاعه بوضع الخطط، وإجراء الحسابات بحقٍّ وبباطل، عند حوالى الثالثة والنصف عادت القردة والوردة وخلفهما ثلاثة حمالين ثمَّ ارتفع العدد إلى خمسة، فسبعة.

- شو هيدا.. شو هيدا.. صار بدنا كميون. يا ريت رحت معكن.
- قوم يا اللا، والله بعدنا مدودخة من القصيدة يا أستاذ وليد.
- شكراً، شكراً، خيرها بغيرها. وما إن التفتَ إلى سهجنان حتى رأى امرأة مختلفة، قصة شعر تليق بسيدات الأعمال، و make up أبرز جمالاً لم يكن مرئياً من قبل. وعليها تيّور حريري بلون البنفسج وتحته كولون شفاف رقيق بلون البنفسج الغامق، يناسب الـ shadow تحت العينين، أما المحفظة والسكربينة

فمن جلد التمساح المصبوغ بالبنفسجي الغامق، فكاد يغشى على وليد. وأوشك أن يقول لسهجنان: «شو هالحلو يا حياتي». ثم استدرك فاكتفى بمقولة أبيه في مواقف مشابهة: «ما شاء الله! ما شاء الله».

وما إن اتخذتا موقعيهما إلى الطاولة، سهجنان بجوار وليد، وقبالتهن ديبة، حتى دسَّ وليد يده وراح يمرِّرها على فخذ سهجنان الأيمن، ثم أمعنت راحة يده يساراً، فأدرك المنفرج بين فخذيها فانفرجا، وسرعان ما انطبقا، فأحسَّ بالنار تسري في عروقه، وتمنّى لو يختفي العالم كله من حوله إلى أن فاجأته ديبة بقولها:

- تفضل أستاذ وليد! هيدي تلاتلاف دولار كاش، وهيدا شيك بسبعتشر ألف، عملتو باسم الست جنان، لأنو هيدا تشيك من حساب جوزي، ما تواخذني، بتعرف الرجال كيف بفكرو، ما بدي سيم وجيم.

تعافى وليد فجأة من لوثة الغشيان، وحريق نار الشهوة، ودبَّت في دماغه حرارة المال. فتلقف المال والتشيك، وفوجئ وهو يقرأ الاسم المكتوب على التشيك: «سهجنان الكرَّام المحترمة».

- مين هيدي سهجنان؟ هيدا التشيك مش قلنا يا مدام، الاسم غلط.

- لا.. لا.. الست جنان عطتني ياه، وانت ما بتقبل شيكات وأنا ما

فيني اسحب من الكارت مبلغ كبير هلقد، سألت جنان، وهي قالتلي تا حطُّو بهالاسم.

فالتفت إلى جنان مستفسراً؟

- بتعرف أنو أنا ما عندي حسابات هون، حطيتو باسم بنت خالتي.
- يا جنان ما بصير هيك، بركي بنت خالتك مش أمينة!
- أمينة ونص. ارتاح. بكرا الصبح منروح نحنا وياها وبتاخد المصاري عاآخر بارة.
- مش قصدي هيك. بتعرفي الديوان بكلِّف، في ناس بدها تكتب، وبكرا في طباعة ومطبعة.
- أستاذ وليد، ما تزعلو، منغيّر التشيك.
- لا.. لا.. ما تشغلي بالك ست أديبة، هيدي قضايا إدارية منحلها سوا. قالت ذلك وهي تمد يدها اليسرى تداعب وليد بين فخذيه فسكن.

انتقل الجميع بعد ذلك، إلى صالة الغداء، حيث فتك وليد بكل شيء يتعلق بالكافيار والقريدس والبطرخ على أنواعه، أما سهجنان، ففعلاً كانت، على غير عادتها، منعدمة الشهية. بينما كانت دبية عاجزة عن الأكل فأسنانها المستعارة كانت تمنعها من المضغ دون ألم، فاكتفت بالعصائر وأنواع الحساء إلى أن تعود إلى بيتها، وعندها ستطحن ما تشتهي من طعام بالمولينكس ليصبح سائغاً.

غادر وليد وسهجنان الفورسيزن، ولم يكونا بحاجة إلى مَنْ يحمل لسهجنان مشتريات الست ديبة لها، فلقد حضر الحمالون وقاموا بأعباء كل شيء، وقد وعد وليد الست ديبة بأنَّ الديوان سيكون جاهزاً خلال ستة أشهر.

- عنجد هلقد بدي انطر؟
- شو مفكري انتي، هيدا تأليف مش تخريف، ما تنسي لما نوصل للمطبعة، بدك تفتي شوية مصاري، لأنو الطبع بالدور، ما تنسي، بعد في عندك الغلاف، ونوعية الورق، وإذا بدك رسومات بالصفحات، عندي رسام أهم من حلمي التوني ووجيه نحلة.
- مين هول؟
- رسامين مهمين، بيرسمو بأميركا.
- عنجد؟
- اي!
- إذا كل القصايد متل هالقصيدة، بدي حلمي الطوني..
- حلمي التوني. عندي أهم.
- أوكي، ست جنان، إذا بقيتي هون لازم نلتقي بعد!
- أكيد.. أكيد.

عندما وصل وليد وسهجنان إلى سيارة وليد في المرأب، ما كان في إمكان سهجنان إلا الجلوس في الوسط وفوق الفيتاس، وقد ظل

وليد يسير بطيئاً ولا سيما حين كان يغيّر ناقل الحركة، وقد انتابته لذةٌ لم يختبرها من قبل، وهو يحاول تعشيق الفيتاس، ولا سيما على الدوزييم، حيث كانت سهجنان تضغط بفخذيها على قبضة وليد الذي أوشك أن يتفلَّت من عقله، وراح يغني بصوته الأخن وعلى إيقاع الدلعونا:

«طلعت عالجبل تاتحوش كوسا

تحيِّر وليدو منين بدو يبوسا

إن باسا بشعرا بيوقع دبوسا

إن باسا بخدا بيتغير لونا»

- هلق ما لقيت غير الكوسا. شو هالذوق اللي عليك!

- بغيّرها! شو رأيك بالتوت؟

- دخيلك بلا غناني!

فاكتفى بالدندنة وأنفاسه المتقطعة، ولا سيما وهو يغيِّر ناقل الحركة ببطء شديد، وهو غير عابئ بأبواق السيارات من خلفه والشتائم الموجهة إليه بدون توقف من السائقين الآخرين.

في مرأب البناء حيث مكاتب مجلة «فتاة الخليج - بيروت» يتولى وليد نقل مشتريات الست ديبة لسهجنان إلى سيارة سهجنان، وما أن انتهى، ولم يبق في سيارتها مكان غير الوسط بين مقعد السائق والمقعد المجاور له، أي فوق الفيتاس، التفتت سهجنان إلى وليد: «شو رأيك تقعد عليه ونعمل كزدورة؟» أحسَّ وليد بالإثارة البالغة، إلاّ أنّه تذكّر التشيك، فنغّص ذلك إثارته وأحبطها، وما أن سمع سهجنان تقول:

- يا اللا بدَّك شي؟
- طلعي شوي، بدنا نحكي عن بنت خالتك!
- والغراض اللي بالسيارة، بركي حدا سرقهن!
- ما حدا بيسترجي. البناية فيها سيكيورتي وكاميرات، يا اللا اطلعي.
- يوووه! تفضل طلاع قدامي العما شو ظنين!

دخلا المكتب الذي كان خالياً من الموظفين، وولجا فوراً إلى مكتب وليد، وهناك ارتمت سهجنان على الأريكة مشرِّعةً خباياها السفلية، فأوشك وليد أن ينسى أمر الشيك لحظة، لكنه تمالك شهوته، وأدار وجهه إلى النافذة وسأل سهجنان:

- شو قصة هيدي سهجنان مدري شو؟
- سهجنان.. سهجنان، ما بتعرف تقرا؟
- اي اي سهجنان.
- بنت خالتي!
- شو دخلنا ببنت خالتك. الشيكات بتفوتنا عا بيت خالتك، هاتي تا خربش على قفاه، ومنقبضو بكرا. وشو بدنا ببنت خالتك.
- ما فيني!
- ليييش؟
- ما بقدر قول!

فاستشاط وليد غضباً، إلاّ أنه تمالك نفسه، وهو يصغي إلى سهجنان تشرح له لماذا لا تستطيع الموافقة على فكرة تجيير الشيك، لكنها ستفعل إذا أخذت المواثيق من وليد على أن لا يتراجع عن الزواج بها مهما كان الأمر. ولما كان وليد مقتنعاً بالزواج من سهجنان، لما عاينه من بشائر خيرها عليه، وافق فوراً. لكنها طالبته أن يحلف بالقرآن على عدم تراجعه، لكنه لم يكن يملك مصحفاً في مكتب المجلة، فاضطر إلى إنزال تطبيق القرآن الكريم على هاتفه الأندرويد، ثم أقسم عليه. لكن سهجنان عادت وطلبت منه أن يصوغ عقد زواجه منها بحجة على الورق، ففعل وفي العقد أن شقته في بناية بيضون - الرملة البيضا ستكون مؤخرها، إضافةً إلى أشياء أخرى كمقدم منها علامة من الألماس وعشرة آلاف دولار. ثم عادت سهجنان، وطلبت إليه أن يهاتف أختها هلا ويعلمها بزواجهما، وليس الرغبة في الزواج. فوافق..

اتصلت سهجنان بأختها هلا:

- هلا! كيفك. أنا تزوجت، وجوزي وليد بدو يحكي معك.

ثم تكلم وليد مع هلا وأخبرها بأن جنان زوجته وهي حامل، خطفت سهجنان التلفون من يد وليد، وقالت لأختها: «منحكي بعدان. باي» ثم أقفلت الخط، لكن هلا عاودت الاتصال بسهجنان التي لم ترد، ولما ضاقت ذرعاً بمحاولات أختها هلا، أطفأت الهاتف، ثم نظرت إلى وجه وليد بجرأةٍ يشوبها خوف واضح وخجل ظاهر:

- أنا سهجنان الكرّام.
- سهجنان؟ وانكبّ على قدميها يشبعهما لثماً وشماً، مما أوقعها بدهشةٍ لم تعرف كيف تخرج منها، ولم تخرج منها إلا بعد أن سمعت وليد يقول:
- بتعرفي شو معنات سهجنان، هالإسم الجميل؟
- لا والله ما حدا خبرني.
- سِهْ بالفارسي بتعني ثلاثة..
- وجنان يعني بتجنن أو جنيّة، مش هيك.
- هههه. لأ. جنان جمع جَنَّة.
- أوف، كيف هيك؟ بالمصري جنان وبيلفظوها كَنان يعني بتجنن، مش سامع وديع الأطرش: يا بو ضحكة كَنان؟
- هههه. فريد الأطرش، مش وديع، هيداك وديع الصافي.
- قلة فرق عندي. بس إنت منين جايب هالمعلومات؟
- من بيي. بيي أستاذ بالجامعة، فيلسوف باللغة..
- بس أنا بعد ما فهمت، كيف صارت جنان جمع جنة وبالعربي بسمعهن بقولو: جنات عدن، يعني جنة جمعها جنات مش جنان يا شاطر.
- يا حياتي. باللغات الآرية الألف والنون بآخر الكلمة هيي علامة الجمع بعكس العربي، بيجمعو تكسير وجمع مذكر

سالم وجمع مؤنث سالم.

- أووفف. شو هيدا ياه! ضيقتلي خلقي. أنا طول عمري بكره القواعد، وجايي تزيد عليي قواعد ايرية وايرانية!
- ههه. آرية يا سهجنانو.
- وهيدي الواو لشو دخلك؟
- للدلع يا دلوع.
- أنا دلوع واللا دلوعة يا فهلوي؟
- هيدي زيادة في الدلال للمرا بالعربي الفصيح. بالمناسبة فهلوي كمان كلمة فارسية.
- على فوقا؟ كيف وصل اسمي من بلاد فارس لهون.
- الأسماء يا حياتي متل السلع والبضائع والمأكولات والملابس والعطور قضايا حضارية بتنتقل بين المجتمعات بدون إذن، ومنها منستدل عالتواصل الحضاري بين الناس. هيدول «براهين لا يمكن ردَّها» مثل ما بقول بيي.
- ما علينا شو صار معنات اسمي؟
- ثلاث جنات. بس صدقيني يا حياتي هني غلطانين، لازم يسموكي: ششجنان..
- شو شو شو. بدك ياهن يعيطولي شيش كباب؟!
- ههه: شش بالفارسي يعني ستة، وانت بتعرفي انو بالعربي بسمو المرأة المحترمة الست المصون، لأنها «تصون نفسها»

من فوق ومن تحت، ومن أمام ومن وراء، ومن يمين ومن شمال.

- دخيل الله عالفلسفة، خلينا عسهجنان أهون.
- أحلى اسم بالعالم.
- منين لوين؟
- هيدا اسم أمي، الله يطوّل بعمرها.

مرَّة أخرى، تُفتح أبواب الخير والرزق لسهجنان بسبب اسمها الذي تمقته، فأبو رعد خفَّض لها من إيجار الشقة بسبب اسمها، وهذا وليد المفتي، يتزوجها دون سؤال عن ماضيها، وهو الإبليس في عمله، وفي تنجير المال أينما ضربت يده. ولا ننس أنه وبسبب مقتها لاسمها، استطاعت التخلص من فهد، مديرها في شركة التأمين، والنجاة من ابتذالها في السرير، وفي سواه. وبإخفائها اسمها تملصت من تسديد ما وجب عليها لصاحب الشقة القديمة، ومن سمير، صاحب الدكان، وملامساته القذرة وألفاظه الفاحشة وديونه عليها أيضاً.

للحظة بدا لها اسمها جميلاً ومعيناً لها سواء بإعلانه أو بإخفائه. ولاح لها للحظة أن «سهجنان» أبعد من أن يكون اسماً حسب، بل إنه تعويذة مثل «افتح يا سمسم» وتذكَّرت ما كان يقوله جدُّها الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام، من أن رحلته إلى حلب لشراء مبرومة الذهب، ما كانت لتتم برعاية كاملة من أبي قاسم لولا أن جدتها سهجنان كانت بنت خالة أبي قاسم نفسه الذي كان يطعم جدَّها عبد الرسول من طعامه وينيمه على فراشه، ويوجهه ناصحاً لشراء بعض السلع من حلب والتي قد تعوض عليه كثيراً من تكاليف الرحلة حين يبيعها في طرابلس فيما

بعد. كما كان يعرض عليه مالاً، يقرضه إياه دون فائدة، ليشتري ما لا يقدر عليه، ويقول له: ما تخاف، خلِّي قلبك قوي، اشتري هالقدورة النحاسية، اشتري هالسكاكين، اشتري هيدا وهيدا وهيدا.. ما تخاف من الدفع. أنا بدفع، وبس توصل عاطرابلس وتبيع وتربح، أدفعلي، وما بدك تدفع مسامح، أنت صهري، وسهجنان مش حبة وحبتين.

وتستعيد سهجنان حكايا جدها الحاج عبد الرسول عن نخوة أبي قاسم وشهامته، وهو الذي كانت تهابه جماعات قطَّاع الطرق والطُّفَّار، إلاّ أنه كان يلتقيهم ويعطف عليهم، كما كان رجال الجندرمة والوردان يحلفون بحياته، ولقد تحمَّل قذارة بو دعاس سنين طويلة، إلى أن جرى ما جرى لسعيد فتفت وزوجته فتنة، فلقد آلمه انكسار سعيد، أمام فتنة ورجال الحملة إلى حلب، وشدَّ ما آلمه مرض سعيد، الذي لم يعد يُعرف بغير فتفت، «ففي بلادنا بيغلب اللقب عالاسم». كما كان يردِّد الحاج عبد الرسول. وقد غالب أبو قاسم دمعه، عندما بلغه أن سعيد فتفت يبصق الدم، فكان همُّه، قبل أن يأخذ وطفة إلى أبي دعاس أبيها، أن تمضي القافلة بأسرع ما يمكن، ودون توقف إلى طرابلس، لئلا يموت سعيد في هذه الأنحاء البعيدة. وقد وعد أبو قاسم صديقه أبا سعيد أن لا يصيب سعيد وزوجته فتنة أي مكروه، «دير بالك عاسعيد يا بو قاسم» «ما يكنلك فكر يا بو سعيد، بيرجع صاغ سليم».

ولما انتهى أبو قاسم من ورطة انتحار أبي دعاس بعد أن قتل ابنته

وطفة، كان كل همِّه اللحاق بالقافلة، كي لا يموت سعيد فتفت، ويتسرع ولده قاسم بدفنه في إحدى الخرابات على الطريق إلى طرابلس. لذلك كان أكبر همه عندما وافى القافلة على مشارف تلّكلخ قبل طلوع الضو بشوي، أن يصيح بأعلى صوته الجهوري: هديلي يا قاسم هديلي». واستبشر الجميع خيراً بسماع صوت أبي قاسم الذي ما إن وصل إليهم حتى سأل «كيفو سعيد يا قاسم؟»

- بخير يا بيي.
- وينو؟
- هياني يا عمي.
- قرِّب تاشوف.. مبيِّن لونك منيح.. بس ضعفان نتفة. عم ياكُل يا فتنة.
- لا والله بحط اللقمة بتمو وبيبزقها. مش عم ياكل إلا مهروس. لكنو عم يهدس بالموت، مقضيها نواح. وبقول السل بموِّت.
- فال الله ولا فالك يا فتنة، خافي الله وبلا فوال!
- مش أنا عم قول هيك، هوي يا عمي.
- يا عمي السلّ، بعيد من هون، بيبزق شقف دم وبصير متل الفتفوتة..

علا ضحك الجميع، فعبس أبو قاسم وصرح:

- استحو يا جماعة. وشوفولي ياه، هيدا هيئتو هيئة مسلول؟
- لا.. لا.. لا..

- ضعفان نتفة من قلة الأكل.
- بس عم يبزق دم يا عمي بو قاسم.
- يا فتنة وحّدي الله!
- لا إله إلا الله.
- يا سعيد! فتحلي تمَّك تاشوف. فتاح تمك عا وسعو، البسينة بتفتح تمها أكتر من هيك. اعطوني ضو.

عندما قرّبو له قنديل رقم تنين، نفر سعيد.

- جماد!
- احترق منخاري.

«حكى بدري» قالت فتنة، فنظر إليها أبو قاسم بعتب ممزوج بغضب، فأطرقت، فيما كان أبو قاسم يدس أصابعه الغليظة كعيدان التين اليابس التي إذا شدّت كانت كمَّاشة، ولطالما مسح أبو قاسم عن البشالك والمجيديات الكتابة والأرقام إذا وضعت بين أنملتيه وحفهما فوقها، فجأة صرخ سعيد «آآااخ» «هون الوجع؟» أومأ سعيد برأسه موافقاً، «مأكَّد؟» أعاد سعيد الإيماء موافقاً وهو يتلوى من الوجع.

- يا قاسم!
- أمرك يا بيي!
- اعبطو لسعيد وايديه نزول، وشدّ قد ما فيك، وحط راسو تحت دقنك، ما تخلي يتحرك، بدي ياه جامد مثل القصبة.
- حاضر.

حاول سعيد أن يتملص أو يتفلت أو يتحرّك ولو حركةً خفيفة فلم يستطع فلقد شدَّه قاسم شدَّ الملزمة الحديد، وهو الطويل الممتلئ المفتول، فجأة خرجت صيحة من سعيد كأنه جروٌ قد دُهس.

- افلتو يا قاسم، وأنت يا سعدو، الحمد لله عسلامتك، امسك، هيدا ضرسك، روح كبو وقول: روح يا سن الحمار وتعا يا سن الغزال.

فضحك الجميع، لأنها عبارة تقال للأطفال إذا بدَّلوا أسنان الحليب، لا للرجال البالغين، كأنما أراد أن يعرِّض برجولة سعيد.

- ولك معقول انت يا سعدو، شغلتلي بالي عالفاضي، أمرك عجيب ما حاسس بوجع ضرسك.
- حثيت، بث، مش عارف الدرث بنزّل دم قبل ما تقبعو.
- ولك ليش عمتقرط بالحكي يا سعدو؟ سألته فتنة.
- ليش.. ليش، عمي بو قاسم قرطلي لثاني وفكَّلي حنكي، ايدو بانثا، ما شاء الله.

فضحك الجميع مجلجلين بمن فيهم أبو قاسم، الذي التفت إلى فتنة وقال: «خلي يتمخمض بمي وملح كل النهار، وضلك عالمهروس بالأكل لبكرا». ثم اختلى بقاسم الذي سأله:

- تأخرت يا بيي، خير شو صار؟
- ما صار إلا الخير. بو دعاس عطاك عمرو، والحرمة اللي جبناها من حلب طلعت بنتو قتلها وقتل حالو.

- يا لطيف! ونحنا دخلنا شي يا بيي.
- لأ. لأ. الحمد لله، بس والله زعلت على هالحرمة.

لم يقل قاسم شيئاً، إلا أنه نظر إلى أبيه نظرة ذات معنى، ففهم كل منهما الآخر، «ما في مهروب من المكتوب يا قاسم».

- عندك حق يا بيي! يا اللا، ارتحنا وارتاحت الناس من بو دعاس.
- اييه، ليك يا قاسم، كيف لقيت حالك بالحملة، وانت الدالول لحالك.
- تلميذك يا بيي. ولو؟
- حدا لعب بديلو؟ حدا تعرضلك من الوردان؟
- لا والله، كلن كانو سربست، والوردان، كنت اعطيهن المعلوم، يسألو عنك ويدعولك ويرافقونا للحدّ ويفلو.
- منيح، منيح. اسمع يا قاسم تأخرت عليك، مرقت صوب بو طعان.
- بو طعان الطافر؟!
- هوي بذاتو. بدو ياني انزل عالأرض معو.
- يا بيي، بهالآخرة بدنا نرجع نربط الطرقات؟
- ولك لأ. شو باك. كبِّر عقلك. العثملي ما عاد ينطاق، بدنا نقصقصلو ايديه قد ما فينا.
- مقاومة؟
- أد ما فينا يا قاسم، وانت بتدير الحملات، وبتكون الدالول،

وبدك تكون عيني وعيون رجالنا، منضهر سوا من طرابلس، ومنرجع سوا من طرابلس. اوعك حدا يعرف، لا أمك ولا أخوتك ولا مرتك. اوعك!

بتفتِّح عينيك، وشو بتشوف بتخبرني، أو بتخبر المرسال اللي ببعتلك ياه. بس يقلّك بسلِّم عليك بو عامر، بكون قصدو أنا. بالمقاومة إسمي بو عامر. وهيدي كلمة السر. أوعك تفلت منك.

كلنا منروح عالمشنقة. بدنا نخرب عالعثملي أدّ ما فينا. إلهن أربعمية خمسمية سنة بشدو فينا لورا. قول الله خلينا نوصل قبل العصر عاطرابلس.

لطالما أحبَّت سهجنان أبا قاسم من حكايات جدِّها، لكنها الآن شعرت بحبٍّ شديد لجدها الحاج عبد الرسول، حبّ لم تعهده مذ كانت طفلة تجلس بحضنه وتعبث بلحيته الخفيفة، وهو يغرقها بالقبل وأنواع الشوكولا والبسكويت. وعصف بها حنين جارف إليه، وأشعلها المآل الذي انتهى إليه في مأوى العجزة، فانهمرت دموعها، وقد عاهدت نفسها الاطمئنان إليه صباحاً.

- ليش عم تبكي يا حياتي؟
- عنجد بتحبني يا وليد؟
- شو بحبك؟ هيدي كلمة ما بتكفّي؟
- هيك خبط لزق! من يومين تعرفنا.

- كنت عم فتّش عليكي.
- بلا تفنيص! قللي شو بدك منّي؟
- بدي اتجوزك! انتِ عا اسم امي. أنت معجزة! أنا.. أنا.. أنا ما بجيب ولاد. حبلَك معجزة.
- شووو... عم تتهرب يا ابن الكلب؟
- عمهلك.. عمهلك.. مين قلك عم اتهرَّب.
- كلو مسجل عالتلفون، وعقد الجواز بعبي، أنا رايحة عالمخفر، خليهن يدكُّوك بالحبس، بفرجيك!

وانتصبت واقفةً تريد الانصراف.

- ولك روقي: قال ذلك وهو يطلب من هاتفه الخلوي رقماً تكشَّف أنه رقم أبويه:
- الله معك يا حجة.. مشتقلك.. أمي اسمعي.. اسمعيني.. أنا تجوزت، ومرتي اسمها عااسمك.. وحياة الله.. خدي احكيها واسأليها.

قدم الهاتف لسهجنان، التي ارتبكت، فلم تستطع أن تقول إلا بضع كلمات: «خليني اسأل وليدو».

- شو بدها؟
- بدها يانا نروح نتعشا عندها.

انتزع وليد الهاتف من سهجنان بلطف: «اي أمي شو طابخة؟..

عفواً بيي. فكرتَ أمي بعدها عالخط.. اي والله تجوزت.. اليوم.. الله يبارك بعمرك يا حاج. أوكي نص ساعة وبكون عندكن. ببوس أيدك».

ركنَ وليد سيارته قرب مستشفى الأطباء، بمنطقة الظريف، حيث يقيم والداه، وهرع يفتحُ الباب لسهجنان، كأي رجل محتشم، مما أربك سهجنان وأخجلها، فاكتفت بابتسامة فيها اندهاش وسعادة وخشية. وفي المصعد إلى الطبقة الثالثة، احتضن وليد سهجنان بعنف وحنان، حاول أن يقبّلها فاستمرت تتفلّت إلى أن توقف المصعد. وما إن فتح وليد الباب، فاسحاً لسهجنان في الخروج، حتى رأى أباه وأمّه على باب شقتهما المشرعة، ولم تستطع الحاجة سهجنان أم وليد تمالك نفسها وهي ترى سهجنان بهذه الأناقة والطلّة التي يعود الفضل فيها إلى الست ديبة، فصرخت: «اللهم صلّ على الحبيب المصطفى.. بلهجتها البيروتية العريقة.

- آويها الشمس والقمر خدامك

أويها الورد مخجول قدامك

آويها تخبا الحرير من خامك

آويها اسم الله عليكي

ليليليليليليليليش

- روقيها يا حاجة! قال وليد.

- آويها الكولونيا مدلوق عالجعودي

أويها ودخل الخلق ورد الخدودي
آويها قوم يا حاج جيب الفرودي
آويها وخلي رصاصك بالسما يعلّي
ليليليليليليليليليليش

دفع وليد أمه أمامه بحنان واضعاً راحة كفّه على فمها وهي تحاول أن تطلق زغرودة ثالثة، فيما الحاج كان يتأبط ذراع كنّته سهجنان، بسعادة غامرة والبشاشة تحتل روحه وتطفح على وجهه الأليف.

- ولك تركني يا وليد... خلص ما بقا رح زلغط، بدي بوسها. قالت ذلك بلهجتها البيروتية العتيقة العريقة، فأفلتها، فانطلقت بهمتها الرشيقة على سمنةٍ غير مفرطة، وطولٍ معتدل، تحتضن كنتها بغبطة عظيمة، وتشبعها قبلاً، وهي لا تنفك تبسمل ممتدحةً مشيئة الله ليردَ العين عنها، وفي الحال انهمرت دموعُ سهجنان على وجنتيها من أثر دموع كنّتها، حتى صدحت بأعلى صوتها وباللهجة نفسها: «يا عالم يا هو! تعو شوفو بنات الأصل، والحسب والنسب، يا هيك تكون الكناين يا بلا».

اندفع وليد منفعلاً وجلاً إلى سهجنانه يتفقّد أسباب بكائها، وهو يقودها إلى الأريكة الوثيرة بحنان: «شو بكِ يا حياتي» أشارت برأسها «لا شيء» فاطمأن. فارتفع قدرُها بعينيه، ثم شرع هو نفسه يبكي، وتبعته في ذلك أمّه ثم أبوه، وفي لحظةٍ احتضن الجميعُ الجميعَ في مشهد عاطفي نادر في الحياة، وإن عمرت به الكتب والشاشات.

- قومو عنها للبنت! خنقتوها. قوم يا وليد! قوم يا حاج!

أجهشت سهجنان الكنَّة بالبكاء من جديد، ما إن سمعت كلمة «بنت» تقولها أم وليد. فسهجنان لا تذكر حقاً متى أصبحت امرأة، ولا بأيٍّ ثمن بخس تمّ ذلك، فجأة أدركت سهجنان روعة هذه اللحظة لو كانت بنتاً حقاً، «لو أنني صبرت»، فما كان أجمله من احتفال، وأطيبها من سعادة. تمنَّت لو أنها كانت تعرف، من قبل، أن الأمور ستنتهي نهاية الأحلام هذه، لكانت إذاً عصمت نفسها. فاشتدَّت بكاءً، واشتدّوا عليها حنوّاً.

- يا بنتي، شو بكي! بساويلك ليموناضة! كباية شاي، دخيل اجريكي شو بك. يا وليد عملتها شي؟
- أعوذ بالله يا حاجة.. بس.. بس.
- ولك احكي ليش عم بتبسبس؟

نظر وليد إلى سهجنانه، متردداً في أن يقول أو أن يصمت، ثم حسم أمره، مثيل مَنْ ضُبط في شهر الصيام وفي فمه لقمة فازدردها كما هي لينجو من الفضيحة، قال بسرعة خاطفة: «سهجنان حبلى».

- الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر ولله الحمد.

وانكبَّت الحاجة والحاج إلى الأرض يقبلاّنها، ويرفعان رأسيهما إلى السماء شكراً. ثم هرعت الحاجة سهجنان على أربعتها، لتعود بعد قليل وهي تحمل في يديها نصف دزينة مباريم كتب على كل مبرومة من القفا «سهجنان ٢٢-١٠-١٩٤٢».

- عطيني ايديكي يا سهجنان.

ولم تنتظر الحاجة كنّتها لتردَّ لها يدها، بل أخذت يدها اليمنى أولاً وطوقت معصمها بثلاث مباريم، وأمسكت اليد اليسرى وفعلت الأمر نفسه، ثم قالت: «ثلاثة نقطة جوازك. وثلاثة نقطة حبلك وباقي ستة ليوم اللي بتخلفي وبتقومي بالسلامة».. فأجهشت سهجنان الكنَّة بالبكاء من جديد. فعلّقت الحاجة: «بنت أصل وحياة الله» وافق الحاج بإيماءة من رأسه وخيطان من الدموع على خديه. أما وليد، فذهب إلى الشرفة يبكي في الظلمة بعيداً من كل عين.

لم تسمح الحاجة سهجنان أم وليد لوليد ولكنّتها سهجنان بالخروج بعد العشاء، إذْ قالت لهما بحزم: «بتنامو هون» والحاج الصبح بكير بروح يجيبْ صدر كنافة من عند البحصلي».

حاول وليد أن يقول شيئاً، ولما رأى أمّه جازمةً فوق المعهود، نظر إلى سهجنان التي بدا عليها الارتياح إلى قرار حماتها، فرضخ سعيداً.

- التاريخ المدموغ من قفا المباريم، تاريخ جوازكن يا مرت عمي؟
- لا لا يا حبيبة قلبي، هيدا تاريخ اليوم اللي سمَّع فيي الحاج، وينك وين، بقينا للثماني وأربعين لتجوزنا، كان بيو للحاج بفلسطين عندو معمل جبنة بعكا، اوعك تفكري، نحنا لبنانية أباً عن جد، وجد جدو للحاج كان مفتي، عشان هيك لقبونا بيت المفتي، بقا يا حبيبة قلبي، كل صيفية نقول هالصيفية، تا يجي بيو للحاج، وحياة مين مسلمك ما إجا تا خربت فلسطين، إجا بالبحر عن طريق السويس بمصر، بس وينك جاب الدهب كلو معو، حتى المعمل باعو بحقو دهب، قبل ما تروح عكا، اشتراه منو واحد من بيت شو يا حاج؟

- الصنديد..
- اي اي من بيت الصنديد، مسكين ما تهنا فيه، اليهود الله لا يوفقن احتلو حيفا بعد ست تشهر! ما علينا هلق هول المباريم إلك ومبروكين عليكي. وليد يا وليد.
- أمر يا حجة.
- بكرا من وج الصبح، بتروح أنت وحبيبة قلبك وقلبي وقلب الحاج لعند الحاج بكري الصايغ بمار الياس، خليه يحف التاريخ عن المباريم وحط تاريخ جوازكن.
- لا والله يا مرت عمي! ما بحفون. بضلّو متل ما هني.
- الله أكبر.. الله أكبر، شفت يا حاج بنات الأصل؟ خليكن بأرضكن. ثم نهضت رشيقة كغزال، واختفت في إحدى غرف المنزل، لتعود ويدها مشدودة القبضة وممدودة أمامها: «هاتي ايديك يا سهجنانو. يا رب.. يا رب.. يا رب». استمرت تكرِّرها وهي تطوق الأنملة الوسطى في يد كنتها بخاتم من الذهب الأبيض المعتَّق والمرصَّع بحجارة الماس والزمرد، تحت دهشة الجميع. وما أن استقر الخاتم مرتاحاً في أنملة سهجنان الكنة، حتى زاحت الحاجة تكبِّر من جديد: «الله أكبر.. الله أكبر.. دخيل اسمك يا الله. طلع الخاتم عا أدّ ايديها».
- هيدا فال خير.

- مزبوط يا حاج. الله بحبني، ما الكن يمين تحلفوني، أنا ورايحة جيب الخاتم، قلت بقلبي، إذا طلع عا أدّ ايدها، بكون علامة وفق وتوفيق.
- بس يا مرت عمي، كتير هلقد.
- لا كتير ولا شي، ديري بالك عا وليدو، وخلفيلنا ولاد، وبدها تشتي عليك النقط.

أطرقت سهجنان مغمضة العينين والسعادة تغمرها وتمنَّت لو أنها تفتح عينيها، وتنسى كل حياتها السابقة، وأهلها وعالمها كله ما قبل وليد، باستثناء جدِّها الحاج عبدالرسول، فلقد أيقظ حبَّها له طهرُ أبي وليد وأمّه.

- يا اللا يا حبايب، قومو عالنوم. الصباح رباح، قوم يا وليد مرتك تعبانة، والحامل بينقصها نوم.. قوم يا حاج.

مضى الجميع إلى النوم، لكن أحداً لم تغمض له عين سوى سهجنان الكنَّة التي غفت كأنها لم تنم مذ كانت طفلة، فحياتها كانت مقلقلة دائماً، ويومياتها كانت تؤرق ليلها دائماً. فهي لإنشغالها بتوافه الحياة، وكثرة توقعاتها الخائبة، وكراهيتها لاسمها، لم تكن تستطعم السعادة قط، ففي غمرة غضبها من كل شيء، بحق أو بباطل، كانت تعيش مرارات غير واقعية إلا أنها بلا نهاية. وفي أوّل فرصةٍ وجدت الحنان، والبرودة في هذا الصيف الحار حتى تساقطت عنها أعباؤها

وأوهامها، فنامت كغريقٍ لن يستيقظ أبداً. فلم يعد هناك فهد وأمثاله يجربون بها شذوذهم، وامتهاناتهم لها. ذلك أن لا ملابس الرجل ولا موقعه يخفيان شذوذه إذا ما اختلى بامرأة، فالعريُ ينزع الأقنعة، ويعيد كل واحد إلى جوهره بعيداً من كل هالة. ألا تذكر بيل كلينتون، رئيس الولايات المتحدة الأميركية الأسبق، كيف كان يدسُّ سيجاره الكوبي إلى أقصاه في حياء المتدربة في البيت الأبيض مونيكا لوينسكي، يبلِّله برطوبة مائها السفلي، ثم يخرجه ويلعقه قبل أن يشعله، محدِّقاً إلى انفراجها وعريها، تبعاً لشهادتها. ولقد أنكر مستر برزيدانت في البداية دعوى مونيكا، لكنها أخرجت ثوباً حريرياً أزرق كانت ترتديه ذات مرّة، حين شدَّها عجلاً إلى زاوية في المكتب البيضوي، وأمعن في العبث بها، وهو يحف بها صعوداً ونزولاً، حفاً جنونياً، حتى أفرغ، وهو مُدْلٍ، على ثوبها الذي احتفظت به مونيكا شهوراً. ولم يكن أمام المحكمة إلا معاينة الثوب على رؤوس الأشهاد، تلفزيونياً، وأجرت فحوصات الـ دي.أن.أي، ليتبين أنها من بذرة مستر برزيدانت، وكان ما كان من أمرهما مما يعرفه الناس ولا ضرورة لتكراره.

ولم ينسَ أحدٌ بعد ذلك المحافظ لأكبر مدينتين في لبنان، إحداهما العاصمة، وقد راود موظفةً متعاقدة، تحت طائلة خسارة عقدها إنْ لم تُبح له جسدها وكرامتها، حاول ذلك المحافظ أن يُنكر، ففضحته التسجيلات وأخْزته فاستقال.

أما الحاجة سهجنان أم وليد، فكانت تسائل نفسها عمّ إذا كانت سهجنان الكنَّة حقيقةً أم خيالاً، وما انفكت الليل بطوله تشكر الله دون توقف، إلى أن سمعت المؤذن يرفع صوته بالأذان، فهبت إلى الصلاة وزادت عليها عشرين ركعة شكراً، وعشرين على نية التوفيق. ولم ينم الحاج مطرود أيضاً، لسبب آخر، كان يسأل نفسه، هل ترضى كنته أن تسمي وليدها البكر، إن كان ذكراً، باسمه؟ فاسمه غريب جداً، وله قصة مفادها أن أباه واكد المفتي كان يعمل في دبَّاغة بيت الدبّاغ على نهر الشويفات. وفي ليلةٍ كانت زوجته حسنا على وشك الوضع، ولم يسمح له ابن صاحب المدبغة عوكل الدباغ بالتغيّب عن العمل، ليكون بقرب زوجته. فعوكل نفسه كان، فاسقاً، بعكس أبيه مأمون، فإذا كانت الدباغة برعاية عوكل ليلاً، كان مأمون يطلب من واكد ليكون إلى جانبه ثقةً بواكد. لكن عوكل كان يترك الدباغة لواكد، وينصرف إلى فسقه في ساحة البرج ببيروت.

كان الليل طويلاً، وكان مأمون قلقاً من أجل زوجته، إلى أن تفتقت له فكرة، فكان ينقع الجلود في الماء الساخن الملون، ويعدو باتجاه تلة الخياط حيث كان يقيم بين الرمال والبساتين ليصل إلى بيته، ويطمئن إلى حالة زوجته. ولقد سها عن باله أن النقع في الماء الساخن غير النقع في الماء البارد، فالنقع في الماء البارد يكون لتطرية الجلود، ويمكن تركها ما شئتَ من الوقت، وكلما طال النقع عليها كانت أطرى. أما

النقع بالماء الساخن فقضية أخرى، فإذا طال نقع الجلد عن الوقت اللازم في الماء الساخن «كرنش» وقصر، ولم يعد صالحاً إلاّ للمزبلة. وهذا ما حدث، تلك الليلة، فلقد بقي الجلد في الماء الساخن الذي بدأ بالغليان أكثر من اللازم، ولما عاد واكد إلى المعمل، ثبت له أن الجلود كلها في «الخلقينة»، وهي الحلة الضخمة، لم تعد تصلح لغير المزبلة. فانتظر الصباح حيث وصل مأمون الدباغ الذي خرج عن طوره وأدبه.

- شو صار يا ابن الكلب؟

رد واكد المفتي: سهيت عيني يا معلم!

- سهيت عينك يا مكسور الخاطر! ايه الله معك، ما عاد تجي عالشغل، نام ببيتك عاراحتك، امسك، هيدا ثلاث مجيديات. دبر حالك. وأنا الله بعينني.

- معليش يا معلم، ما بدي شي.

- امسك من ايدي، والله معك!

لم يقل واكد للمعلم مأمون، أنه طلب من عوكل التغيّب تلك الليلة، وأن عوكل لم يرض، فعوكل، في ورديات الليل لا يعمل إلا في ساحة البرج بين العاهرات. لن يكتشف المعلم مأمون الحقيقة إلا بعد شهور وإن أنّب عوكل قائلاً:

- ابن الكلب سهيت عينو! وانت يا ابن الكلب شو كنت عم تعمل؟

خاف عوكل أن يكون واكد قد قال شيئاً، فأخبر أباه بأنه قد غادر لسبب طارئ، والمسؤولية مشتركة بينه وبين واكد، فشعر بالأسى، إلا أنه لم يرسل بطلب واكد إلا بعد أن تيقن له في الشهور اللاحقة أن عوكل إذا كانت ورديته ليلاً، ترك الدباغة لمن فيها، ومضى يعهِّر ويفسق. عندما وجد المعلم مأمون معلماً لوردية الليل اسمه ساطي، راح يترك المعلم الجديد تحت إشراف عوكل الذي عاد سيرته الأولى، فكان يترك الدباغة منصرفاً إلى فسقه وفجوره، وبات المعلم ساطي، يخفي من الجلود ما تيسر، يبيعها للحذّائين ومعامل الأحذية في برج حمود. فالرزق السايب يعلم الناس الحرام. ولقد نسي المعلم ساطي أن كل جلد يخرج من دباغة، يخرج وعليه ختم الدباغة. ولقد بدأ المعلم ساطي بسرقة جلد أو جلدين، كل ليلة، قبل وضع الختم بالحديد المحمّى على زاوية الجلد «دباغة المعلم مأمون الدباغ وأولاده» وبما أن الطمع قتّال يعمي القلب، فما عاد المعلم ساطي يكفيه سرقة جلد واحد، يبيعه بربع سعره، إذ لم يكن في الإمكان إقناع المعلم مأمون باختفاء أكثر من جلدين كل ليلة، بحجة أن هذا الجلد أو ذاك كان في قعر الخلقينة الكبيرة أو الوسطى أو الصغرى. ولما كان السارق كالمقامر لا يستطيع إفلاتاً من إغراء الكسب السهل، راح يسرق من البضاعة الجاهزة وفاته أنها مختومة، الأمر الذي لفت أحد أصحاب معامل الأحذية التي كان يتعامل معها المعلم مأمون، فأعلم هذا المعلم مأمون بذلك سراً، واتفقا على خطّة لضبط

السارق متلبساً، حيث طلب، أرتور صاحب معمل الأحذية، من المعلم ساطي أن يحضر له رزمة جلود كاملة، أي أربعة وعشرين جلداً، دفعةً واحدة في تلك الليلة، وبعد أن مضى عوكل إلى عهره، هيأ ساطي رزمةً وأخفاها خارج الدبَّاغة، وما أن انتهت ورديته، حتى مضى توَّاً إلى برج حمود وعلى كاهله رزمة الجلود. عندما وصل ساطي إلى معمل المعلم أرتور الذي لم يكن وحده بانتظاره، بل كان معه المعلم مأمون. لم ينتظر ساطي ليدرك ما يجري، رمى رزمة الجلد، وفرَّ بعيداً وهو يسمع صوت المعلم مأمون: «رجاع يا ابن الكلب يا حرامي».

كان الأوان قد فات عندما فهم مأمون من ابنه عوكل حقيقة كل شيء، وأن المعلم واكد، طلب من عوكل أن يسمح له بالتغيب لأن زوجته على فراش الوضع، غضب المعلم مأمون، وراح يكيل الشتم والضرب لعوكل، وأرسله للعمل في منشرة جاره عارف النجار وقال له: «شغّلي هالكلب ابن الكلب عندك من الفجر للنجر واجرتو شحاطة عارقبتو». والتفت إلى عوكل قائلاً: «يا ابن الكلب، كنت تنام كل النهار وتعرِّص كل الليل، وأنا مفكرك داير بالك عالمصلحة، الله لا يصلحني إذا ما صلحتك، يا اللا من قدامي عالمنشرة دربك بوشك». ومضى من فوره إلى بيت واكد المفتي بتلِّة الخياط. عندما قرع الباب، فتحت له صبية في مقتبل العمر وعلى يدها رضيع: «يا بنتي! صبحتك بالخير. هون بيت المعلم واكد المفتي».

- وصلت.
- فيني شوفو؟
- والله سافر من جمعة عافلسطين يشتغل.
- عافلسطين؟ شو إلو بفلسطين؟
- والله، ضاقت حوالنا، ودقنا المر بلا شغل. معلمو زعبو من الدباغة، انت بدك منو شي يا خيي؟
- لأ. يا بنتي هوي بدو مني.

ارتبكت هذه الصبية السمراء، وتراجعت إلى الوراء، تريد أن تغلق الباب، سوء ظنٍ منها وحيطة من هذا القادم الكهل الغريب الذي جاء يدّعي ما لا علم لها به.

- عمهلك يا بنتي!

فتمهلت، إذ سمعت رقة صوته، وسماحة وجهه.

- تفضل يا حاج.
- أنا المعلم مأمون الدبَّاغ، جوزك كان يشتغل عندي بالدباغة.

امتقع وجه الصبية السمراء، وعزمت على إغلاق الباب، وهي تسابق دمعةً في عينيها، ولكنها قررت أن تقول له عبارة موجزة:

- الله يسامحك يا معلم مأمون، خليتنا نشحد صباحية اللّي طل فيها هالولد. وهلق هالولد صار مثل اليتيم، بيو بآخر ما عمَّر الله. هات هات تايرجع. الله كبير.

- لا حول ولا قوة إلا بالله!
- بتعرف شو سماه بيو يا معلم مأمون؟ مطرود.. مطرود.

ثم أجهشت بالبكاء ولم يتمالك المعلم مأمون من البكاء وضرب رأسه براحتيه. ترك لها صرةً وهو يعول ويقول بصوت متهدج: «سامحوني سامحوني. الله لا يوفقك يا عوكل».

ركضت ميمنة زوجة واكد، ورضيعها على يدها، تريد أن تعيد الصرة إليه. وهو يعدو باكياً معولاً، فعادت إلى بيتها حزينة متعجبة. وظلت ميمنة شهوراً، تجد مطلع كل شهر صرةً بعد قرع الباب مراراً وبقوة إلى أن جاء يوم وصل فيه المعلم مأمون إلى بيت واكد المفتي، وما أن أوشك على قرع الباب والهرولة بعيداً، حتى انفتح الباب وظهر واكد المفتي.

- الله معك يا معلم مأمون. وانكب على يديه يريد تقبيلهما، فمانعه وأقبلا يتعانقان، يبكيان ويضحكان.

دخلا معاً إلى الدار، يشربان اليانسون الساخن، وقد فهم المعلم مأمون من واكد، ما جرى له بفلسطين، إلى أن استقر في معمل جبنة بعكا، وأنه صار باش معلم. تسايرا طويلاً، وأودع كل منهما أخباره عند الآخر. ولما همَّ المعلم مأمون بالمغادرة، نادى واكد: «ميمنة! هاتي الأمانة!» جاءت ميمنة تحمل كيساً من الخام، قدمته للمعلم مأمون:

- شو هيدا. جبنة عكاوية؟ هههه

فكَّ المعلم مأمون عقدة الكيس ليجد فيه صرراً، هي إياها، التي كان يتركها على باب واكد، عدها بيده ونظره فإذا هي أربع وعشرون صرة، كما تركها المعلم مأمون.

- ولو يا واكد. وانت يا بنتي! ما بتقبلو هديتي.
- والله يا معلم مأمون. ما قدرت اتصرف فيهن. ضبيتن، تا إجا واكد. منك لإلو اصطفل!
- يا واكد! أنا متل بيك. هول من قلبي، هول حقك. اوعك تكسفني.
- يا معلمي، والله أحوالي صارت منيحة، ويمكن هالمشوار افتح معمل لحالي.
- الله يوفق. بحصة بتسند خابية. ضبن وما تكسفني، يرحم بيك يمكن تحتاجن إذا اشتريت محل. الله يرضى عليك.
- يا ميمنة، خدي الكيس من عمك المعلم مأمون. وانكب على يده الممدودة يقبلها. فسحبها المعلم مأمون، واحتضنه بحب شديد، وفيما كان المعلم مأمون يهم بالمغادرة سأله واكد:
- كيفو المعلم عوكل؟
- عم بيصير متل الناس، صار معلم نجارة، الشغل تنعشر ساعة باليوم. بيوصل عالبيت وبنام متل القتيل. ما عاد في ساحة البرج ولا حواليها.

ضحكا معاً وتواعدا على لقاء قريب، قبل سفر واكد من جديد إلى عكا.

- جيب معك عوكل يا معلمي.
- إن شاء الله.

بالطبع لم يستطع وليد أن ينام أيضاً، لأنه قضى الليل، ممسكاً بيد سهجنان، وهو غير مصدقٍ أن والديه قد أحباها، وقد أحبتهما كما بدا له من دموعها ونومها العميق. وما كان يشغله إلا إعادة تأثيث بيته وفقاً لمشيئة سهجنانه، ولم يكن يدري أن أمّه سهجنان كانت تخطط لبقاء الكنَّة في بيتها.

أفاقت سهجنان صبيحة اليوم التالي، لتجد نفسها في ملابس نوم وليد، ولم تذكر كيف وضعتها ولا في أية ساعة. كانت تتأمل نفسها في السرير، حين دخل وليد عليها، يسألها إن كانت مستعدة للفطور، أومأت برأسها أن ليس بعد، التفتت، بعد أن غادرت السرير، إلى وليد قائلة:

- معقول اضهر بهالبجامة المبهبطة عليي قدام بيك وأمك؟
- طالعة كتير مهضومة وسكسي!
- اوعا تكون عملتلي شي أنا ونايمة يا وليد!
- ولا شي، مسكتلك ايدك بس.

نظرت إليه بريبة، ثم باعدت بين بنطال البجامة وسروالها الداخلي معاً، ونظرت كمن هو جادٌّ في التدقيق. وفي تلك اللحظة فتحت سهجنان الحماة الباب، مما أربك وليد وسهجنان الكنَّة معاً، فارتدت إلى الخلف وهي تقول:

- ييه.. ييه.. ما كون فتت بوقت غير مناسب!
- لأ لأ يا ماما؛ سهجنانو مستحية تضهر ببجامتي قدامكن.
- شووو... اللهم صلي عالحبيب المصطفى، قرّبي يا بنتي قرّبي. ما شاء الله يا أرض احفظي ما عليكي.

ترك الجميع غرفة النوم، وافترقت سهجنان عنهم إلى الحمام الذي أرشدها إليه وليد، تأملت سهجنان وجهها في المرآة، فاستحسنته، لما بدا على قسماته من راحة النوم، رتبت شعرها بأناملها، بعد أن غسلت وجهها مراراً لتشعر بالانتعاش، وتركت الحمام مباشرة لتجد وليد ينتظرها خارجاً. أخذ وليد بيدها إلى غرفة الطعام التي كانت ملأى بالأطايب وسيدها جميعاً صينية للكنافة وسط الطاولة، البيض المقلي والمسلوق، الزيت والزعتر، الخضر على أنواعها، الزبدة والمربى، الشاي، الحليب، اللبنة والأجبان على أنواعها.

- شو رأيك؟
- لمين هول كلن؟ في حدا جايي؟
- ما في غيرك وغير وليد، ريتكن تقبروني.
- سلامة قلبك وقلب الحاج.
- يا اللا كلي. بدك تغذي حالك، بدك تطعمي نفسين.

أطرقت سهجنان خوفاً من افتضاح كذبة الحمل الذي ادعته، فظنها الجميع أنها أطرقت خجلاً، فزادهم إطراقُها إيماناً بها.

وتلك سنة التوفيق في الحياة، فإذا آتاك حظك، فُسِّر كلّ فعلٍ من أفعالك على محمل حسنٍ، وإن عاندك الحظ، اعتُبرت صلاتك رياءً، وأدبك ادعاءً، ولو كنت حكيماً كلقمان.

لم تستطع سهجنان الكنَّة نجاءً من تذوّق كل شيء، تارة من يد

حماتها، وطوراً من يدي حميها ووليد. وما كان لها أن تعترض، وما تركوها تقرِّر ما الذي عليها أكله، حتى بلغت حدَّ الانتفاخ، فراحت تستحلفهم بالله كي يتوقفوا، فصدعوا على مضض.

عندما ارتدى وليد وسهجنان ملابسهما، واستعدا للخروج، وقفت الحاجة سهجنان تمنعهما من الخروج:

- لوين؟
- عالشغل يا ماما؟
- وسهجنان؟
- معي، ما هي بتشتغل معي بالمجلة؟
- اي لأ.. حبيبي، بتضلها هون. شو باك انتي، هيدا حبلى بأول ولد. حفيدي.. ابن ابني.. ريتو يقبرني. ما إلها ضهرة.
- يا ماما.. يا ماما.
- ولا كلمة.

ثم أخذت الحاجة سهجنان كنتها من يدها وجرَّتها إلى غرفة الجلوس، حيث جرى حوارٌ معقد وطويل، انتهى بالتصويت لمصلحة سهجنان الحماة، وبقي وليد وحيداً، مما اضطره إلى الموافقة على ما انتهت إليه نتائج التصويت وهي:

الحاج مطرود يوصل سهجنان الكنَّة إلى مكاتب المجلة عند العاشرة، ووليد يعيدها عند الثانية لتناول الغداء، حيث تبقى هناك إلى

أن يعود وليد مساءً فيذهبا معاً للتنزه على كورنيش المنارة «المشي كتير منيح للحبلى». ولا نوم لوليد ولا لزوجته إلا «عندي بهالبيت» قالت الحاجة. إلى أن تلد سهجنان. «ما فيني غامر يا وليدو. انت وحيد لألله. بدي سهجنان ترتاح وتخلِّف كل سنتين ولد. بدي اشفي حرقة قلبي». ثم أجهشت الحماة بالبكاء. فوافق الجميع على هذا الشرط بالإجماع، ومن خارج الموضوع الأساسي الذي طُرح للتصويت.

- يا وليد كيف بدي جيب تيابي؟
- ما تشغلي بالك يا حبيبتي، هلق بضهر أنا وياكي والحج، بس يتسهَّل وليد عا شغلو، منشتري اللي بدك ياه.
- لأ يا مرت عمي..
- قوليلي ماما.. قوليلي ماما.
- ماما. سيارتي مليانة تياب، اشتريتن مبارح.
- وين السيارة؟
- بكاراج المجلة. ردَّ وليد.
- بسيطة، يا وليد. جيب غراض سهجنان معك الضهر، انت وجايي عالغدا.
- ما اتفقنا انو البابا بوصل سهجنان الساعة عشرة.
- مزبوط يا وليد، يا عين أمك. بس هلق عشرة ونص، راحت لبكرة.

لم يكن في الإمكان أفضل مما كان، مما اضطر وليد إلى الخروج حزيناً، إلا أنه عاد بعد أقل من ساعة، ومعه شادي وجبور من المكتب يعاونانه على نقل أغراض سهجنان.

ما إن رأت سهجنان الحماة أغراض سهجنان الكنَّة، حتى راحت تزغرد، فأوقفها وليد، الذي لم يتسن له إجابة سهجنانه عن سيارتها إلا بعد أن نجح في منع أمه من الزغردة: «سيارتك رح تضل بكاراج المكتب، هون ما في مواقف كفاية».

مضت الأسابيع الأولى، على ما تشتهي سهجنان الحماة، وعلى خلاف مشيئة وليد الذي كان يرغب في بقاء سهجنان إلى جانبه كل لحظة، لكنه لم يوفق بذلك، فإذا أراد الحاج أبو وليد، أي الدكتور مطرود، إيصال سهجنان الكنَّة إلى مكتب المجلة، استعدت سهجنان الحماة لمرافقتهما، ولم تكتفي بذلك، بل لازمت وليد وسهجنانه في المكتب حتى وقت العودة إلى البيت عند الثانية. «يا ماما ارجعي مع بابا عالبيت، ما بدك تحضري أكل؟» «لأ، يا عيون أمك، الأكل جاهز، عم اطبخو بالليل انتو ونايمين، وبيك بيعرف يسخن الأكل عنار واطية عالوحدة ونص. علمتو كيف».

كذلك كان الأمر، كل مساءٍ عند السادسة مساءً.

يا اللا. يا وليد قوم امشي انت ومرتك عاكورنيش المنارة! فإذا استعدا للخروج، رافقتهما سهجنان الحماة متأبطةً ذراع كنتها بحبٍّ نادر. فلم

يكن أمام وليد وسهجنانه سوى سواد الليل يقضيه إلى جانبها، يحار من أين يبدأ بتقبيلها، وهو حقاً لم يترك خليةً في جسدها لم يستغرق فيها استغراق عابدٍ متصوف. وسهجنانة تتركه يفعل ما يشاء، وهي في استسلامٍ كليٍّ، وقلّما كانت تصدر آهةً غير مكتومة، إلا أنها كانت تشده إليها كمن يخاف أن يتفلَّت هذا الأمان الذي أنزلته السماء على قلبها.

تلك كانت وقائع حياة سهجنان الكنَّة ووليد في دارة أبيه وأمه، والحق يقال أن سهجنان الكنّة، لم تكن مستاءة إطلاقاً من حماتها، بل كانت تشعر بالسعادة لوجودها بقربها. ولما كانت الكنَّة قليلة الكلام والحماة شديدة الشغف به، طاب لهما أن يكونا معاً. وكان أكثر ما أعجب الكنَّة بحماتها، أن الأخيرة لم تسألها عن أصلها وفصلها أو طائفتها، ولم تدعها مرةً للصلاة إذا حان وقتها، بل كانت تستأذنها لتقضي صلاتها وتعود إليها، تواصل الحديث كأنه لم ينقطع لحظة واحدة.

كان هاتف الكنَّة مغلقاً طوال فترة هذه الأسابيع الستة، ولم تفتحه إلا مرةً واحدة لإعادة تعبئة الرصيد، فوجدت عشرات الاتصالات من أختها هلا. لكنها تجاهلت كل ذلك، فثمة على صفحة وعيها العليا، رغبة في نسيان حياتها السابقة كلها، ولكم ودَّت لو كانت أم وليد أمها، لا وسيلة. لم يتسرَّب من ماضيها سوى جدّها الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام الذي استعادت حبَّه في لحظة مضيئة من إقامتها في دارة أهل وليد.

إن أولئك الذين يعتقدون أن الإنسان عصيٌّ على التغيير، لا يفقهون شيئاً من أثر الأحداث في حياتنا، فهي وحدها تقودنا وتحرفنا وتنعطف بنا، وربما تعيدنا إلى حيثِ كنا، أو تأخذنا بعيداً إلى حيث لم نكن مرّة، ولم نظن أننا سنكون في أية مرّة.

وتلك هي سهجنان الكنَّة الآن، التي كانت تصغي إلى حماتها، بحب، وقلما تسأل عن أي شيء. أحياناً كانت تلقي برأسها على كتف حماتها وتبكي، دون سبب مباشر، فتبدأ الحماة أيضاً بالبكاء، ثم تهرع إلى الصلاة شكراً، وتنادي الناطور، فتنقده مبلغاً من المال ينفقه على أولاده، وتقول في ذات نفسها: «قربةً إلى الله تعالى».

لاحظت الحماة ازدياد نوبات البكاء، فهي تبكي على مدى الساعة، والحماة في ذلك شديدة السعادة، فهي تدرك أن هذه الدموع نتيجة التغيّرات الهرمونية في جسد كنتها، فكانت تكتفي بضمها قائلةً: «ابكي أد ما بدّك. آخرة البكا فرج» ولم تخفَ على الحماة نوبات الغثيان التي كانت تصيب كنّتها، فكانت تتجاهل ذلك، وهي أيضاً شديدة الفرح، لأن ذلك من علامات الحمل الأكيدة، وكان يسعدها أن لا ترى في الحمام أثراً للدم على الفوط الصحية، بل سوائل مائلة إلى الأصفر.

ذات صباح من صباحات الأسبوع التاسع من إقامة وليد وسهجنانه في بيت والديه، وبينما كان وليد يستعد للخروج، أوقفته أمه: «لوين؟» «عالشغل».

- عنا شغل أهم! يا اللا عامستشفى الأطبا. بدنا نشوف حمل مرتك!

أسقط في يد سهجنان الكنة. فلقد كانت تخشى افتضاح أمرها، لقلة علمها بقضايا الحمل، وخشيتها هذه كانت وراء إباحة جسدها ليلةً فليلة لوليد، منذ أقاما مع والديه، وما كان انقطاع الطمث يقلقها، فلقد ظنَّت أنه انحباس آنيّ.

- بس يا ماما في أنبوب بالصيدلية مخصص لفحص الحمل. شو بدنا بهالطوشة.

- اي دخيلك انت وأنابيبك، بدي هلق اعرف ومن الحكيم.

ولقد كانت المفاجأة صاعقةً على سهجنان الكنّة، عندما قال الطبيب النسائي: «مبروك يا مدام!» فشرعت سهجنان الحماة بالزغردة:

آويها انطرنا ولقينا

آويها وما حدا إلو علينا

آويها كوَّرت بطن كنتنا

أحلى من الرمان والتيني

ليليليليليليليش

ثم انصرفت إلى الطبيب: «فينا نعرف صبي أو بنت» بكير شوي يا حجة.

عادوا جميعاً إلى البيت، والحماة تسمي وترقي وتتعوذ، وتسلم

على هذا وتلك من الجيران وأصحاب الدكاكين، فمستشفى الأطباء لا يبعد سوى أمتار عن منزلها، والجميع يعرفونها، وكانت تخبر الجميع! «باركولي! مرت ابني حبلى!» مبروك مبروك. وعندما انتهت إلى البناية، نادت الناطور ونقدته مبلغاً كبيراً، وقالت: «إذا تمَّ الحمل وقامت بالسلامة إلك اكتر».

كانت الفرحة تغمر الحماة وزوجها ووليد، أما سهجنان فكانت تغمرها المفاجأة، ولم تستفق منها إلا حين سمعت حماتها تقول: «يا حاج! الخميس ليلة الجمعة، بدي اعمل مولد لسهجنان على نيّة الخلاص بالسلامة. روح شوف الشيخ عطوان أبو مدقة».

لم يكن يوم الخميس يوماً عادياً في حياة السهجنانين، الحماة والكنّة، فالأولى استأجرت طباخات المنطقة ليصنعن لها ما لذ وطاب من أنواع السمبوسك والقطايف والرقائق والمعمول على اختلافها جميعاً، ولتذويب شراب الورد بما يكفي لمنطقة الظريف برمتها، وكانت قد أخرجت أطقم الصيني، التي يعود بعضها في أسرة المفتي إلى مئة عام تقريباً. أما سهجنان الثانية، فلم يُقيض لها شيء لتفعله، إذ قضت نهارها تستفرغ أمعاءها، مما أراحها من المشاركة فعلياً في الاحتفال الذي أقيم على سطح البناية الفسيح الوسيع، ولم تكن أسطح البنايات، يومذاك مزروعة بخزانات الماء التي لم تكن تنقطع قط، فاكتفى الناس براميل تثبَّت على حيطان المطبخ العليا، قريباً من السقف، أو تُخفى على المتخَّتات في بعض المنازل الحديثة.

جرى الاحتفال بسلاسة تامة، وفرحة عارمة. ولم يُحرم الأطفال من الحضور فأتخموا شراباً وحلوى. وكانت الحماة سهجنان تترك بين الفينة والأخرى السطح ومعها سرب من النساء، يدخلن على سهجنان الكنة، يسلمن عليها، ويبسملن، ويتعوَّذن من الشيطان الرجيم، وبعضهن يصدحن ببعض الزغاريد التي تناسب المقام.

لم يبقَ أحدٌ من أقرباء آل المفتي وآل الصيداني، عائلة سهجنان الحماة، إلا شارك في المولد ضيافةً وإنشاداً ومراقبةً. واكتفت الحماة، إذ سُئلت عن آل الكرَّام بالقول: «أهليتها كلن باستراليا، عروستنا كانت جايي زيارة، وشافت ابني. حبو بعضن وصار النصيب». وكان مما حبك قصة الحماة ودعَّمها، شقرة شعر سهجنان الكنَّة وقلة كلامها، فظنَّت النسوة أن في لسانها حبسةً عن بعض حروف العربية.

كان نهاراً ممتعاً للحماة وقريناتها من النسوة، ما عدا الكنَّة التي أنقذها غثيانها الشديد من هذا الاحتفال المهيب، وحدهما وليد وأبوه، قضيا ليلتهما على شاطئ المنارة، بانتظار مكالمة من إحدى السهجنانين تعلمانهما فيها بانتهاء المولد وطقوسه، ولم يتم ذلك إلا بعيد منتصف الليل بقليل.

لم تنم سهجنان الكنَّة تلك الليلة، بينما غرق وليد في نوم عميقٍ لطول ما مشى على كورنيش المنارة، وكذلك أبوه غطَّ في نوم بعيد الغور، فيما سهجنان الحماة أمضت ليلتها متقلبةً تفكر في نواقص هذا المولد لتلافيها في المولد الجديد الذي ستقيمه يوم يخبرها الطبيب النسائي بجنس الجنين الذي تحمله كنّتها إذا قررت معرفة ذلك، وإلا فبعد الخلاص بالسلامة.

كانت سهجنان الكنَّة قلقة، تسأل نفسها عن حملها، ومتى تمّ؟ وممن؟ فلقد خرقها فهد مراراً وتكراراً ولا سيما في الليلة التي سبقت اختراق وليد لها. ولم تدري ما الذي عليها فعله. كان يخيفها خسارة هذه العائلة الحنون الطيبة، ووليد الأب المحنك في العمل، والساذج في كل شيء آخر، فهو الذي يعرف اقتناص الدولار ولو كان طائراً فوق الغيم، تراه أعجز من أن يدرك الفرق بين المرأة الثيِّب والعذراء، ولو قُيض للحماة سهجنان أن ترى سهجنان الكنَّة قبل وليد، لحكمت عليها بأنها امرأة لا عذراء، فثمة في قيافة وحركة وجلسة كل منهما ما يدل على ذلك للعارف الحصيف.

لا.. لا تريد سهجنان الكنَّة أن تخسر وليد وأبويه، ولكنها كانت

تخشى أن تجيئها الأيام بما ليس في الحسبان، فتعظم الفضيحة، وتصبح الواقعة أشد هولاً. ولم تعرف ما الذي عليها فعله، فاكتأبت، مما جعلها صباحاً بالغة الاصفرار على حمرةٍ خفيفة.

وعندما فتح وليد عينيه صباحاً، نظر إلى سهجنان وصفرتها، ارتاع، «حياتي، شوبكي؟» «ما بعرف يا وليد. يمكن بدي موت». «بعيد الشرّ عنك». «ما بقا فيني اتحمَّل!»

هرع وليد إلى أمّه التي جاءت على عجلٍ، وما أن نظرت إلى كنتها حتى ولولت: «الله لا يوفقهن، الله يعميهن، هيدي صيبة عين!».

- قلتلك بلا المولد! كنا رحنا على مقام الأوزاعي صلينا ركعتين، ومرقنا عمأوى العجزة، تبرعنا بليرتين، ما كان أحلى.
- دخيلك يا حاج بلا هالحكي. زيحولي بدي ارقيها، وبعدان بسكبلها رصاصة. اسم الله عليك من عيني ومن كل عين...

وما إن أنهت كل ما تعرفه الحماة من رقىً وتعاويذ، حتى هرعت إلى المطبخ، تفتش عن سبيكة الرصاص التي لا غنى عنها في أي بيت آنذاك، وما إن وجدتها حتى رمتها في مقلاة على النار وانتظرتها حتى سالت، فرفعت المقلاة عن النار، وحثت الحاج ليتبعها بإناء الماء البارد: «الحقني بالطشت عأوضة العرسان» وهناك وقفت فوق رأس سهجنان وبجانبها الدكتور مطرود وبين يديه وعاء الماء البارد. ثم شرعت في التمتمة دون توقف، وختمت كل ذلك ببسم الله الرحمن

الرحيم، ثم سكبت الرصاص السائل في الماء، فتجمد من فوره، بعد أن أصدر صوتاً بين السأسأة والفحيح. «امسك يا وليد، رد المقلى على المطبخ» ثم دسَّت يدها في الماء، وأخرجت القطعة المتجمدة من الرصاص التي اتخذت شكلاً مدبباً ومسنناً، وراحت تتأمله بعين ثاقبة، إلى أن تيقن لديها صاحبة العين اللعينة: «عرفتها! ما في غيرها. هيدي مرتو للشيخ أبو مدقة. والله ما كان بدي ياها تفوت عليها، بس ما طلع بايدي، فاتت. الله لا يوفقها».

وبعد أن استخرجت من قاع الطشت حبيبات صغيرة من الرصاص، عدَّتها فوجدتها ستاً، نادت وليد ليضع المقلاة على النار، ثم تبعته بالرصاص الذي تجمد كله، ورمته في المقلاة حتى سال، وعادت فسكبته في طشت الماء البارد بين يدي الدكتور. وراحت تكرر ذلك مرّة تلو أخرى حتى استوفت المرات الست. واطمأن قلبها إلى طرد عين زوجة أبو مدقة الملعونة. ثم أخذت إبرة وشكتها في ما بدا لها أنه عين المرأة الشريرة. وجمعت الرصاص من الطشت ونظرت إلى وليد: جيب الكرسي، ودحشلي هالرصاصات فوق عتبة الباب البرانية. وانت يا حاج: خود هالميات وروح كبّن عا سبع مفارق.

- وين بدي لاقي سبع مفارق يا حجة؟

- ولو سلامة معرفتك! على عايشة بكار، قبل نزلة دار الطايفة الدرزية عندك الطالع والنازل عاكركول الدروز، وعندك

النازل والطالع عادار الطايفة الدرزية، وعندك الرايح عالصنايع وعكسو عا تلة الخياط، وعندك، عندك الزاروب الي بياخدك عا بيت عثمان. صارو سبعة.

- بس نسيتي زاروب بيت البغدادي قبال زاروب بيت عثمان، صاروا ثماني.
- ولو يا حاج ما ترش عازاروب بيت البغدادي.
- طيب كيف بدي سوق لهونيك بالطشت بصير يلقلق معي، وبيوقعو بالسيارة.
- اوعك. اوعك يوقع شي بالسيارة!
- يا وليد، جيب طشت كبير وحط الزغير فيه وروح مع بيك، رشو كل الميات عالمفارق مثل ما خبرتكن. وبس تخلصوا دربكن بوجكن عالدالية. بتغسلو الطشتين سبع مرات بمية البحر، وبترجعوا دغري. ما تنسو تسمو، اسم الله عظيم. وانتو وراجعين جابولنا مناقيش من فرن الحطب حد بيت كمال جنبلاط.

لو علمت سهجنان الحماة الأسباب الكمينة وراء اصفرار كنتها لرثت لحالها، ففي طبع الحماة سهجنان المغفرة، ولم يكن في مقدورها الحكم على أحد، بل كانت تجد دائماً العذر لتغفر وتعفو، وهذا صنف من الناس نادر، قلما عرفنا مثله، والسعيد من يتعرف إلى مثل هؤلاء.

حاولت سهجنان الكنَّة في لحظة ما، أن تبوح لحماتها بما يشغل بالها، فأسكتتها الحماة بيدها وهي تقول: «البنت بمرّ عليها كثير وقليل، خلي اللي بقلبك، بينك وبين ربِّك».

أغمضت الكنَّة عينيها، ومن وراء جفنيها المطبقين، كانت تحدِّق إلى وجه هذه القديسة النبيلة، وساءلت نفسها: «معقول تكون عارفة شي؟» وانفجرت بالبكاء. إحتضنت الحماة كنتها بحنان شديد «ابكي.. ابكي.. لا تخافي.. الحمد لله زمطتي من صيبة العين». ثم أعانت الحماة كنتها لتنهض من السرير، وأوصلتها إلى باب الحمام، «يا اللا.. فضي معدتك، وريحي مبولتك. وغسليلي وج القمر، وإذا بدك شي عيطيلي، أنا ورا الباب» وأغلقت الباب.

فعلت الكنَّة كل ما قيل لها، وزادت عليها استفراغ أمعائها، والحماة وراء الباب تصغي، حتى إذا أحست بنوبة غثيان كنّتها اطمأنت «الحمد لله.. الحَبَل بخير...»

الله وحده يعلم، لماذا تبدو الوجوه أكثر ألفةً وجذباً كلما استوطنها الأسى؛ كأنما الأسى يزيل عن الوجوه بُهاق التمثيل، وسماجة الأقنعة، أو كأنما الأسى أقرب وأصدق في نقل الصورة التي في الأصل كانها الإنسان طيباً طفلاً بريئاً وصادقاً.

هكذا بدت سهجنان الكنَّة حين خرجت من الحمّام، وما أسرع ما وجدت نفسها وسط غمامةٍ من دخان البخور الذي كانت تدور به

الحماة في مجمرةٍ على غرف البيت كلها. رائحة البخور طيبة ولا سيما إذا كان البخور صمغاً أصيلاً. بادرتِ الحماةُ إلى الدوران حول كنتها وهي تحمل المبخرة بجمرها وبخورها «افشخي فوقها.. افشخي..» ففشخت الكنّة. «ارفعي ايدكي.. بدي بخّرك تحت بطانك» فرفعت ذراعيها. «فرشخي.. وارفعي قميص النوم..» ففعلت، فيما كانت الحماة تدسُّ المجمرة بين ساقي كنتها المنفرجتين، «ارخي قميص النوم.. وأاقري معي قل أعوذ برب الفلق ثلاث مرات» فادَّعت الكنَّة تمتمة أنها تقرأ، فهي لم تحفظ غير مطلع الفاتحة بينما كانت الحماة تقرأ بطلاقة وبصوتها العالي ولهجتها البيروتية العتيقة. وما أن انتهتا من هذا الطقس حتى وصل وليد وأبوه، أحدهما يحمل المناقيش والآخر يحمل الطشتين.

- ولك شو عم تعملي يا حجة؟
- شو عم بعمل، عم بخّر العروس. كانت رح تروح بين دينا يا حاج.
- ونحنا كنا رح نروح عابيت خالتنا يا حجة.
- خير! شو صار يا حاج؟
- كمشنا البوليس عم نرش مي، وقفنا وحقق معنا، وقرطنا زبط.
- يوه.. ليش
- قال ممنوع كب المي بالشارع، هيدا هدر للمي، وبنقّع الشارع..

- شو هالسمعية. هي أول مرة بسمعها.
- وأنا كمان. بس الله فرجها، وانقضت بزبط.
- وقديش الزبط ما علينا.
- خمس وعشرين.
- يا اللا دفع بلا عنا يا حاج. قومو عالترويقة.

لم يمنع وليد نفسه من احتضان سهجنانه، لأول مرة أمام والديه، بل أغرق في تقبيلها بشغف فاضح. فعلقت أمُّه: «اصبر عارزقك لعشية، مبخَّرة من فوق لتحت. يا اللا قوم انتي وأبوك وقفو فوق المبخرة وبخرو حالكن. أنا وسهجنان تبخرنا».

لم يحرك وليد ساكناً، وكذلك أبوه. «قومو.. قومو.. شو انتو بلا ايمان. البخور النبي وصًا فيه» فقاما مرغمين، وعادا إلى الطاولة فأعادتهما الحاجة مرتين حتى تأكدت من صوابية تبخيرهما، وزادت على ذلك أنها مرَّرت المبخرة مراراً فوق الجميع على طاولة الطعام ثم حملت المبخرة ووضعتها على مدخل الشقة من الخارج.

وقف الدكتور، مباشرة بعد الفطور، مستعداً للمغادرة. «الله يسهل يا بو وليد؟»

- بتتذكري من ثلاث أسابيع اتصلوا فيي من المأوى» توفّى واحد عندن ما إلو حدا.. ولادو كبّو، وما عاد حدا سأل عنو من وقتا. ولا في عنوان ولا شي تا يتصلوا بأهليتو.

- اي، بس انتي قمت بالواجب يا بو وليد. شو بعد بدن؟
- الكلام بسركن اتصل هيدا الموظف من بيت الدقة، عبد الرحمن مدري عبد النصّاب. قال بعد بدن شوية دعم، القبر كلَّف أكتر ما حاسبين.
- هيدا كذاب يا بابا، عرفتو عبد الرحمن الدقة. كشتبنجي سكير ولعيب قمار، ومن بار لبار.
- عيب هالحكي يا وليد!
- صدقني يا بابا. عطول بيتصل بالناس، وبقشّطن مصاري باسم الخير.

اسأل مين ما بدك، بقولو انو في ناس بيعطو مصاري تا يصرف على عجايزن، بضبن بجيبتو.

- يا وليد نحنا عم نعمل مع الله مش مع الدقة.
- يا بابا..
- خلص!

هرعت سهجنان الكنَّة إلى الحمام، لدى سماعها الحوار، لقد حدست أنّ الميت هو جدُّها عبد الرسول محمد الكرَّام، ذلك الأديب اللبيب الذي هاجر إلى حلب وراء هدية حب لسهجنانه التي ماتت قهراً، لخسارتها كل ما أخفته من وراء زوجها.

يموت الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام، صاحب الكلمة، والروح

الطيبة، ابن طرابلس الفيحاء، غريباً في بيروت، حيث لا قبر، ولا مَنْ يقف عليه يقرأ له الفاتحة أو يذكره بدعوة صالحة. فالحقيقة أن عبد الرحمن الدقة حلقة من مافيا تبيع جثث الموتى، الذين لا يسأل عنهم أحدٌ، إلى كبريات مشافي بيروت، يتدرب عليها طلاب الطب، كما يفيد منها الأطباء المكرسون في بحوثهم حول بعض الأمراض، وهرم الخلايا، وتداعيات العجز على الأعضاء... ثم تنتهي جثث هؤلاء في المصارف الصحية والمختبرات المختلفة.

تبعَ الجميع سهجنان الكنَّة إلى الحمام، واقتحمته عليها سهجنان الحماة، لتجدها غارقةً في دموعها، فاحتضنوها، وأعادوها إلى السرير، حيث غرقت في سبات عميق. فيما جلست سهجنان الحماة على طرف السرير من اليمين، ووليد من اليسار. بينما انصرف الدكتور مطرود لمقابلة عبد الرحمن الدقة، الذي سيتباكى أمامه حول التكاليف الإضافية التي استجدَّت لإتمام احتياجات «هالمسكين المقطوع من شجرة، ابن طرابلس» حسب تعبير عبد الرحمن الدقة.

- عاقديش قصرتو يا أستاذ عبد؟

نظر عبد الرحمن إلى وجه الدكتور مطرود، يدرس أثر ما سيقوله فيه، بحيث يستطيع أن ينقص أو يزيد من المبلغ تبعاً لذلك الأثر: «والله يا دكتور.. قصرنا.. على.. ألف وخمسمية دولار بس...» ولو لم يعلق الدكتور سلباً لكانت «بس» هنا تعني «فقط». أمّا وأن الدكتور سيعترض فسيجعل «بس» تعني «ولكن»

- أوف. ليش قديش بكلف الدفن بها الأيام؟
- يطول عمرك يا دكتور، لو صبرت عليي شوي، كنت عم قول: بس.. انطرني تاكمل!
- تفضل كمّل!
- دبّرنا خمسمية دولار من الأجاويد متل أفضالك.. و...
- يا أستاذ عبد ليش المأوى ما بقدم شي، كلو عالأجاويد؟
- ما عم تخلينا كمِّل يا دكتور! وهنا أيضاً يتابع التخفيض.
- كمِّل يا سيدي!
- وأنا دفعت مية، عاقد قدرتي، ولمينا من الممرضات بالطوابق مية، الله يعينن، صدقني يا دكتور، اللي بتنضّف بالطابق إجت بدها تشارك بعشرة دولار، والله ما قبلت شو بلا ضمير أنا؟

وفي هذه الأثناء كان عبد الرحمن يواصل الإمعان في قسمات وجه الدكتور، الذي كان مشغول البال على كنته، اغتاظ، عبد الرحمن الدقة، ضمناً، فهو لم يعهد من الدكتور مطرود هذه الاستفهامات، ولكنه سيواصل تخفيض المبلغ إلى أن يحصل منه على مبلغ ما. فعبد الرحمن محترف في ابتزاز المال من «الأجاويد» بدون علم الإدارة، لأن الإدارة لها باب أوسع وأنضف يقوم على التبرُّعات والمساعدات.

لم تبدو على وجه الدكتور أية أمارة تنم عن استعداده لدفع ما وصلت إليه تخفيضات عبد الرحمن حتى الآن، فرمى عرضه الأخير: «والمدير دفع من جيبتو ميتين دولار..»

- شو بكون ضل عليكن؟
- ولا شي.. ستمية دولار..
- والله كثير.. يا عمي شو جدّ من المصاريف عليكن، بعلمي بتحسبوها عالليرة؟
- والله يا دكتور، الرخام غالي، فرق معنا سعر الرخام.
- ليش عمتعملولو قبة فوق القبر؟
- لا يا دكتور، ما تنسى الرخام بالمتر، وعندك الأرض.. ومية ألف شغلة.

والله، مش ميسَّر معي هلق إلاّ ثلاثمية دولار. ومن ثلاث أسابيع عطيتكن ألف. شو ما في أجاويد غيري بهالبلد؟ تفضلو اعملولي وصل بألف وثلاثمية، لأنو ما عطيتوني وصل مرة الماضية.

- تكرم.. تكرم يا دكتور.. بس.. بس، ما فيك تعملهن خمسمية؟
- ثلاثمية وما في غيرن!
- الله يعين.. هلق بحكي المدير وبشوف كيف مندبرهن.. يطول عمرك!

وبالطبع، لن يعمل عبد الرحمن الدقة شيئاً غير إنفاق المال بغير وجه حق على ملذاته.

للأيام عادة لا تتغيَّر، وهي الجريان دون توقّف، فلا أحد يستطيع إيقافها، وهي بذلك لا تراعي أحداً، ولا تحفظ وداً لأحد، أو لقضية، ومن عادتها أيضاً أن لا تُبقي حالاً على حاله، فلا فرح يدوم، ولا بؤس يقيم «ولو أردتَ دوام البؤس لم يدُم» وكذلك المسرَّات.

تكوَّزت في الشهر السادس بطنُ سهجنان بشكل جيد، وباتت الاستدارة كاملةً وفاتنة، والحماة سهجنان، لم تسمح لأحدٍ بزيارتها، تخاطب الجميع عند عتبة الشقة، ولا تفسح في الدرب لأحدٍ أبداً. «ما تواخذوني، كنتي مخلَّقة» وانشغلت صباحَ مساء بالبخور ترميه في المجمرة، كلَّما أحسَّت بتوعُّك كنتها.

أما سهجنان الكنّة، فباتت تسير كالبطة، تضع يديها على خاصرتيها، وتسير منفرجة الساقين إذا قصدتِ الحمام، أو مشت بضع خطوات إلى غرفة الجلوس، وكان وليد إذا رآها تسير مفرشخةً تحلَّبت كلّ غدةٍ فيه من حلقه إلى فرجه. وكانت سهجنان الحماة قد وضعت سريراً مفرداً في غرفة نوم الكنة، ينام عليه وليد، والباب مشرَّع عن آخره، «يا وليد، اوعك تقرب صوب مرتك.. فهمان عليي.. تركلها التخت، خليها تتقلب عاراحتها. أوعك تقرب.. اوعك».

وما كان ذلك يزعج سهجنان، بل كانت مفرطة السعادة حتى عادت تلك الطفلة التي كانتها من ألف عام. فكَّرت مرَّات في أبويها الفضل ووسيلة، ولم تبادر مرّة إلى الاطمئنان إليهما، وإنما اتصلت مرتين أو ثلاثاً بأختها هلا التي راحت تزعق فيها، فأسكتتها: «اسمعيني.. أنا تجوزت، وهلق حبلى.. وحبلي تقيل.. الله يبارك فيكي.. وما بدي اسمع اخبار حدا.. بحكيكي بعدان..» وأنهت الاتصال، ثم أقفلت الهاتف.

كانت تجري مثل هذه الاتصالات إذا دخلت حماتها الحمام. فكَّرت مرَّةً أن تتصل بفهد لتنهي حساباً قديماً معه، لكنها أجلت ذلك، واتصلت بأبي رعد، صاحب الشقة حيث كانت تقيم قبل هذا التطور المعجز الذي قلب حياتها رأساً على عقب.

- يسعد صباحك عمي أبو رعد!
- مين؟
- أنا سهجنان، بتتذكر، أخدت الشقة منك..
- ولك كيف لكن، الله يرحمك يا أمي، والله يطول بعمرك.. ولك وينك؟
- ما تؤاخذني يا عمي.. جدّ علي شي أكبر مني.. وإلك بدمتي ستشهر..
- شو بدك بهالحكي..

- افتح الشقة، وكل شي فيها إلك. وبس ارتاح شوي بمرق صوبك وبدفع اللي عليي..
- يا بنتي بدي سلامتك، وأغراضك إلك بالحفظ والصون.
- الله يسلمك. اعمل معروف، خود الغراض.. بيعن.. كبّن، وأجر الشقة.. كرمالي، ما تواخذني بدي سكّر الخط.

وكانت سهجنان كلما شغلت هاتفها، وجدت عشرات الرسائل تعلمها باتصال أختها هلا، ولم تعبأ مرّة بالرد على محاولات اتصالها. وحسناً فعلت، فما كانت أخبار هلا مما يُسر القلب أو يشرح الصدر. ذلك أنّ الفضل قرَّر، ذات يوم وهو في طريقه إلى قبض راتبه، كعادته آخر كل شهر، من مديرية الأحراج، أن يتصل بمأوى العجزة ليطمئن إلى والده الحاج عبد الرسول محمد الكرّام. وكان قد أعدَّ العدة لذلك، فجهز رقم الهاتف، واتصل من سنترال مجاور لسرايا طرابلس، لأنه لم يكن يجرؤ على فعل ذلك من هاتفه المنزلي أمام زوجته وسيلة التي فكّت الجبس الكثير عنها، إلاّ أنها لم تعد وسيلة النشيطة الرشيقة، بل استحالت عرجاء تسير على عكاز متحرك، كما باتت متقوسة لتبدو على قصرها كدولاب مخروق، وأصبحت فوق ذلك امرأة لا تطاق فلا تكف عن التسخّط على كل شيء.

عندما اتصل الفضل، يسأل عن الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام، «مين؟» أعاد الاسم مراراً، فوضعوه على الانتظار طويلاً إلى أن سمع صوتاً: «أمر؟» «عم اسأل عن الحاج عبد الرسول محمد الكرَّام»

- مين بتكون إلو؟
- صاحبو..
- اي. خيي. ما بتعرف حدا من أهليتو؟
- والله، ما لقيت حدا منهن.. بقولو مسافرين، الجيران خبرونا انو عندكن.
- ايه.. الله لا يردن، وعقبال ما يلحقوه عاجهنم. إذا شفت حدا منهن.. بعتن عالمأوى لعند الحاج عبد الرحمن الدقة، في عليهن مدفوعات..

أقفل الفضل الهاتف، ومضى إلى بيته كمن على قلبه الرمال والجبال، كانت تغيم الدرب أمامه، وتثقل خطاه، وما كاد يصل إلى البيت، ويرى وسيلة ساخطة عليه لتأخّره، حتى انفجر فيها لأوّل مرّة في حياته، ثم سقط على أرض الغرفة بلا حراك. عندما وصلت الإسعاف، قال الرجال لوسيلة، إنها جلطة دماغية» «ادعيلو يقوم بالسلامة».

قام الفضل بالسلامة، إلا أنه لم يعد قادراً لا على الحركة بنفسه، ولا على الكلام، وبالطبع، في أسرة كذلك، لم تقدم الإخوة والأخوات أية مساعدة مردّدين: «وينن بناتو؟ كل واحد همو عاقدو..».

فلم يكن بد من الاتصال بهلا وهويدا، فهرعتا، وبعد اجتماعات لا حصر لها، وافقت هويدا أن تقيم مع أبويها، على أن يتنازل الفضل عن الشقة لها، كما اقترح زوج هويدا أن يطلقها على الورق، لتستفيد

هويدا من معاش التقاعد للفضل إذا جرى شيء لا سمح الله، حاولت وسيلة أن ترفض مشاركة أحد لها في معاش التقاعد بعد عمر طويل. إلا أنّ محيي الدين الصابونجي، زوج هويدا، أصرَّ على ذلك. «وبركي طلقت عن جد، وتزوجت غيرها للبنت» قالت وسيلة. «شو أنا أهبل تا ادفع نفقة طلاق وإعالة للولاد! بعدان هي غلطة وغلطناها بالزواج، ليش بدي عيدها. وعنا هالولاد بركة...» ردَّ محيي الدين الصابونجي، فنظرت إليه هويدا غاضبةً معاتبةً، فغمزها بطرف عينه، فسكتت على مضض.

وافق الجميع على هذا الاقتراح، «بس، بعد في سهجنان» قالت هويدا، صرخت وسيلة: «جنان.. مش سهجنان. الله يلعن هالاسم!»

عقَّبت هلا: «سهجنان موافقة. هي خبرتني». «ليش ما إجت». «مسافرة يا ماما» «وعقد التنازل عن الشقة عند كاتب العدل؟» «أنا بمضي عنها يا ماما؟» «يوه وبيقبلو؟» «بخمسين ألف ليرة! بعرف واحد بيشتغل عند كاتب عدل بيعملها وبيعمل بيها». قال محيي الدين الصابونجي. «بعد في شرط!» قالت هويدا، نظر الجميع إليها مستفهمين، «بتعطوني المبرومة تاعت ستي» «بس هيدا لسهجنان اختك، بعدها بتسبنا لليوم على هالاسم». قالت وسيلة متهربةً، «لأ. يا ماما سهجنان ما بدها شي منكن.. تركوها بحالها.. هيك قالتلي»، ردَّت هلا «طيب بتاخديها يا هويدا، بس بعد عمر طويل!» «لا والله يا ماما.

اليوم أو بفكس الاتفاق!» وافقت وسيلة على مضض، فيما كانت دموع الفضل تنهمر غزيرةً على خديه الضامرين.

ستعرف سهجنان الكنَّه ذلك كله، بعد شهورٍ طويلة، لأنها لم تكن منشغلةً بشيء غير تغيُّرات الحمل وأوجاعه.

ذات عشية، على أبواب شهرها التاسع، اقترح وليد، وهم عند الطبيب النسائي، في مستشفى الأطباء، أن يسألوه عن جنس الجنين. فأبت سهجنان الحماة بقوة. «بس انتي كان بدك تعرفي.. شو غيرلك رأيك يا أمي؟» «اللي بيجي من الله يا محلاه! المهم الخلقة التامّة». وافق الجميع من دون نقاش. «ايمتين بتتوقع الخليفة يا حكيم؟» «من ثلاثة لأربع أسابيع.. بس كل ما مشيت، كل ما كان أسهل للولادة، خاصة انو المدام زايد وزنها أكثر من اللزوم.. بدنا نمشي!».

بدأت سهجنان الكنَّة السير على كورنيش المنارة ساعةً كل مساء، والسير في أرجاء المنزل نهاراً. كما بدأت بمرافقة حماتها وحمياها أبي وليد إلى مخازن التسوق المختلفة، وكان يحثُّها على ذلك خشيتها من كلمة الطبيب النسائي حول وزنها من أنه «أكتر من اللزوم».

لم تبخل سهجنان الحماة في إنفاق الكثير على نفيس الملابس الليلية والنهارية لكنّتها، وكانت متعتها الكبرى النظر في احتياجات الرضَّع، بمقدار ما كان يغيظها سؤالَ البائعات: «بنت أو صبي؟» «يا عمي ما منعرف.. عطونا شي ندبِّر حالنا فيه بيلبق للتنين، وبس تخلّف مناخذ حسب ما الله بيعطينا».

يواصل وليد، خلال النهار، الاتصال كل نصف ساعة بسهجنان شوقاً واطمئناناً، فإذا عرف أنهما في مخزن قريب، وافاهما. يتأبط ذراع سهجنانه من الشمال وأمه من اليمين، وأبوه خلفهم ينظر بعينين مغرورقتين في الدموع.

ذات مساء، وبعد أن ساروا على كورنيش المنارة، اشتهت سهجنان الكنَّة أن تشرب كوباً من فرابتشينو عند ستاربوكس، «عجِّل يا وليد.. طيارة.. هيدي وحمة». قالت أمه. وفي الحقيقة لم تكن سهجنان الكنَّة كثيرة التشهي، فوحامها، لو جاز القول كان هذا التشهي الشديد لحنان عائلة آل المفتي. ولكن سهجنان الحماة، كانت تقوم على راحتها، وتراقب مشتهياتها كلها. فإذا طلبت سهجنان الكنَّة شيئاً أحضرته، وهي تقول: «اوعك تحكي شي بجسمك تاجيبو.. إذا حكّت الوحدة هي ومشتهية بتطلعلو للولد وحمة».

- «عالسريع يا وليد.. محل ما قالتلك مدري شو اسمو. وانتي يا سهجنان، اوعك تحكّي شي بجسمك».

قاد وليد السيارة على مهل، وسهجنان الحماة، تراقب يدي سهجنان الكنّة. إلى أن وصلا إلى مقهى ستاربوكس.

- هيدي قهوة؟

- اي يا ماما، بس مش متل قهوة الحاج متوكل على الله بالبسطة الفوقا.

- وأنا اللي فكرت. بدها تاكل شي أكلة، هيدي اللي سمتها، فتوشو مدري كروشو؟
- ههههه. لأ يا ماما، بدها فرابتشينو، هيدي قهوة باردة مع الكريما.

ضحك الجميع وهم يتخذون مقاعدهم حول طاولة هناك، حين وقعت عينا سهجنان الكنَّة على ذلك الرجل إيَّاه الذي تحرَّش بها عشية لقائها وليد، إنه ذلك السمسار الذي أعطاها بطاقة باسمه وعمله، كل ما تذكر منه قامته المربوعة وهواتفه العديدة، وكعادته كان يوزع نظراته بين الطاولات وهواتفه، في هذه الأثناء أحضر وليد الفرابتشينو لسهجنانه وفنجاني قهوة اكسبرسو له ولأبيه، أما أمه فاكتفت بالماء فهي لا تثق بقهوة أحدٍ سواها.

وفي لحظة، أضمرت سهجنان أمراً، ليس معهوداً منها: «وليد! شايف هيدا الزلمي أبو التلفونات هونيك؟» «اي!» «هيدا سمسار كل شي سيارات، أرض، بيوت» «وشو بدنا فيه؟» «فيك تعملو شاعر؟ هيئتو مشحم!» رمقه وليد جيداً ثم قال «بعملو وبعمل بي بيو!» «طيب! عيطلو. وقللوا: تعا كلّم المدام!» تردَّد وليد، وسط دهشة أمّه وأبيه، إلا أنَّ أباه حثَّه على تنفيذ ما طلبته سهجنانه. نهض وليد من فوره مقترباً من طاولة شاهين، ودار حوارٌ قصير بينهما، ثم نهض شاهين يتبع وليد، وهو لا يكفّ عن النظر إلى الطاولة التي أشار إليها وليد، ليعرف من هي المدام. عندما انتهيا إلى الطاولة، بدا شاهين مرتبكاً، فلم يستطع

أن يتعرف إلى المدام بتاتاً، فصارت تأخذه هواجسه بعيداً، محاولاً أن يتذكر في لحظةٍ، ما إذا كانت المدام إحدى زبائنه اللواتي «أكلن الضرب» ولم يكن يدري أ نه هو نفسه مَنْ سيأكل الضرب بعد قليل.

«تفضّل! تفضل أقعد» قال وليد وهو يضع له كرسياً بجوار أبيه.

- وليد المفتي، البابا، الماما ومدامتي.
- تشرفنا أنا شاهين بيوض. ولفظ اسم عائلته بفخامة، حيث سيتضح لاحقاً أنه «بيضون» لا بيوّض. لكن دواعي السمسرة تقتضي التحفظ عن الاسم الحقيقي للسمسار، فاسم السمسار الحقيقي قد يودي به إلى السجن إذا عُرف. لا سيما أن أرباحه لا تنهض إلاّ على كواهل المغفلين.

«عرفتني؟» «لا والله!» قال شاهين بارتباك، وهو فعلاً لا يتذكر شيئاً. «أنا سهجنان الكرّام» لم يظهر عليه أن الاسم يعني له شيئاً، فابتكرت سهجنان حجة «كنت عمفتش عا شقة ودلوني عليك من شي سنة» «أهلاً وسهلاً. بالخدمة والله» «ما علينا هلق. عندك فيسبوك؟» «اي»: أجاب شاهين بنبرة تعجُّب، وسط حيرة الجميع، فسهجنان الكنَّة قليلة الكلام، عدا أنها لا تبادر إلى الشروع في حديث أو فتح حوار ما لم يكن استفهاماً ضرورياً. «يعني بتكتب شعر؟» «تقريباً!» «هات سمعنا» «مش حافظن» محاولاً أن يتملص. «بسيطة فتاح عالصفحة!» نظر شاهين في عيون الجميع الذين أومأوا مشجِّعين.

لم يكن شاهين محتاجاً إلى فتح صفحته الفيسبوكية، فهي مفتوحة دائماً على أحد هواتفه الذكية. ثمَّ شرع في القراءة دون توقف، شارحاً بعض كلماته، مستحسناً بعض عباراته بنفسه، ممهداً لبعض قفلاته وافتتاحياته، بالقول:

«اسمعوا هيدي كتير حلوة، هيدا أخدت ميتين لايك..».

كان الدكتور مطرود يصغي مطبق الجفنين، ويصوِّب له كلما رفع المفعول به، أو جرَّ الفاعل، أو جزم المضاف إليه، فضلاً عن تصويب كثير من اشتقاقات الألفاظ اللغوية. وشاهين لا يعقّب بغير قوله «ما تواخذني عالسرعة».

«يروي أدونيس الشاعر المعروف، في إحدى مقابلاته، أنه كان يرسل قصائده، في بداياته، إلى الصحف والمجلات فيهملونها، حتى أنه آيس من نشر حرف له لأسباب يجهلها، وحدث أنه كان يقلّب في كتابٍ أسرَتْه فيه صورة أدونيس مصروعاً بأنياب الخنزير البري. فوقر في ذات نفسه، أنه، هو نفسه، أدونيس وأن الصحافة هي خنزير علي أحمد سعيد، وهو اسم الشاعر الحقيقي. فهبَّ من فوره، وأرسل أحد نصوصه التي رُفضت من قبل إلى إحدى الصحف، التي رفضته، موقعة باسم أدونيس. ولدهشته وجدها منشورة، بعد يومين، في صدر الصفحة الثقافية للصحيفة بتوقيع الشاعر أدونيس.

وبعد أن أصبح أدونيس على ما هو عليه من شهرة، دُعي، بحسب

مجلة أخبار الأدب المصرية إلى أمسية شعرية له في القاهرة. فلم يحضر سوى عددٍ محدود من المدعوين. وفي الليلة التالية تدخَّلت الشرطة لتدفع الناس بعيداً عن ذات القاعة التي كان سيقيم فيها نجم تلفزيونيّ شاب ووسيم أمسية فيما يدَّعي أنه شعرٌ.

بالطبع إن قلّة حاضري ذاك، وزحمة حاضري هذا، لن يجعل من أدونيس شاعراً عابراً أو طارئاً، كما لن يصبح هذا العابر الطارئ لا شاعراً ولا أدونيساً ولا ربعَ أدونيس.

لم يخبُ نجمُ الشعر، وما خبت جذوتُه بتاتاً، وإنما خبا نجمُ الناقد، ولقد أتاح الفيسبوك منبراً مزدوجَ القنطرة، يضع الفيسبوكي قدميه مفرشخاً، قدماً على قنطرة الشعر، وقدماً على قنطرة المعجبين لأسباب لا علاقة لها بالنقد، بانفساخٍ مذهلٍ، ودون حاجة إلى اختصاص مشهود له، أو بحوث تؤكد أريحية هؤلاء المعجبين.

فترى امرأةً رخوةً جوفاء صهباء أو سمراء، تترك عبارةً على صفحتها: «تقرعُ بابي بعلاَّقة مفاتيحك/ فأعرفُ أنك عدت/ فأرقص من الفرح.» فتنهال التعليقات التي يخجل منها الشعر والشعراء والكلام من مثل «قمة الإبداع. يسجد الشعر على أعتابك. روعة... الخ». فلقد جعل الفايسبوك من كشاش الحمام ناقداً وشاعراً، بالطبع لا علاقة للمهنة بالإبداع، شرط توافر الإبداع، فكشاجم كان شاعراً محترفاً وكان طباخاً، وكذلك أبو القاسم الجزار، لكن رصف الكلام وحده، بعجره وبجره

وما فيه من أخطاء إملائية ونحوية، لا يجعل من الراصف شاعراً. كما أنّ المفاتن لا تجعل من الفاتنة شاعرة بل مجرد مانيكان، وإلاّ فكثير من بائعي الخضر يمكننا وضعهم في مصاف الشعراء حينما يدلّلون على بضاعتهم «اصابيع البوبو يا خيار. الخسة وزة. عالسكين يا بطيخ». وقد ادعى فنان ملتزم مرَّة أنّ هؤلاء الخضرجية قد أوحوا له بآية فنيةٍ، ظلّ يروّجها في كل مقابلة. إلاّ أنَّ بائعي الخضر كانوا يسخرون منه لأنه لم يقبض على جوهر إيقاعهم في الدلالة على بضاعتهم».

«لا حول ولا قوة إلا بالله» قال الدكتور مطرود بعد أن مرَّت بذهنه الأفكار السالفة. «عفواً! ما فهمت». قال شاهين «ولا شي! تذكرت شغلة ما إلها علاقة». «آ. أوكي دكتور. شو رأيك يا أستاذ وليد؟».

رأيي أنك شاعر كبير، ولازم تطبع ديوان. حرام هالإبداع يروح ضيعان.

نظر الدكتور مطرود إلى ابنه وليد متعجباً مؤنباً فيما كان شاهين يعلق: «بس أنا عندي أكتر من تلاتلاف صديق عالفيسبوك». «ما بكفي أستاذ شاهين. لازم تطبع تا تصير معروف، وخود على مؤتمرات ومقالات بالجرايد.. إذا معك عشرة خمستعشر ألف دولار. أنا جاهز ساعدك. انتبه يا أخ شاهين. تصليح الأخطاء النحوية والإملائية، ووضع العناوين علينا» «قديش يعني بالضبط. عشرة أو خمستعش؟» «خليني قول الحد الأقصى خمستعش. دبِّر عشرة ومنحكي».

«بتقسِّط؟» «شو عم نبيع برادات وغسالات نحن؟ بالمناسبة تشيكات ما باخد». وانتهت المفاوضات بأن دفع شاهين بيضا تلك الليلة ألفي دولار، واتفق مع وليد على موافاته في مكتبه غداً صباحاً لإكمال المبلغ. وسيصبح السمسار بعد ثلاثة أشهر شاعراً مكرَّساً بشهادة مجموعته الشعرية الأولى «أصفِّرُ لكِ من بعيد» وهو عنوان من اقتراح سهجنان الكنّة، وقد وافق الجميع عليه ضاحكين بمن فيهم شاهين نفسه.

قيل «إن المرأة لا تُعرف على حقيقتها حتى تلد». وقد أثبتت سهجنان الكنَّة هذا القول أثناء حملها. فبدأت تظهر عليها بوادر الهضامة التي كانت تفتقرُ إليها، كما بدأت تُظهر تعلُّقاً غير معهود بوليد، والرغبة الشديدة في أن يكون بقربها، وما عاد يسعها الاستغراق في أفكارها دون أن تعلنها، وقصة السمسار شاهين مثالاً.

ولم تعهد سهجنان الكنَّة بنفسها أنها ستحب نفسها يوماً، أو تحب اسمها أو أن تحب حماتها، رغم الصورة النمطية عن الحموات. فحماتها أمّ تفضل أمَّها البيولوجية بدرجات كثيرة، كانت تنام طوال فترة حملها قريباً من غرفة نومها، ولا تني تحذر وليد من ملامسة زوجته حرصاً على الحمل. كما كانت تقوم على راحتها بالصغيرة والكبيرة، حتى إنها كانت تدخل معها إلى الحمام تعينها على الاغتسال، تفرك ظهرها، وترشها بالكولونيا حين تخرج من الحمام، تلف شعرها بمنشفة جافةٍ إثر منشفة، تلافياً لاستخدام المجفّف، ومنعت وليد كما أبا وليد من إحضار اللحوم النيئة أو أكلها أمام سهجنان، رغم ولع وليد وأبيه بها، فمحاذير أكل اللحوم النيئة بالنسبة الى الحامل عالية جداً. ولطالما كانت تسرّح شعرَ كنتها وتزيّنه بالمشابك على أنواعها، كأنها وهي على

مشارف أربعينياتها، طفلتها ابنة الرابعة. وكم كان يطيب للحماة والكنّة أن تضع الكنَّة رأسها على فخذ حماتها التي تروح تمرِّر أناملها خلال شعرها، وتدندن بحداءٍ حنون، فتذهب الكنَّة في غفوة عميقة، وتنام ما طاب لها دون اعتراضٍ أو امتعاض.

صباح ذات يوم، وفيما كان وليد يستعد للمغادرة إلى مكتبه، سمع سهجنان تنادي أمه: «ماما! ماما!» فجاءت هذه على عجل، وما إن سمعت كنتها تقول: «حاسة في شي عم ينزل مني!» فصرخت سهجنان الحماة: «وليد! مطرود! انكسرت مية الراس عالمستشفى بسرعة. جيب الشنطة يا وليد، احكي مع الدكتور يا مطرود».

خلال دقائق كان الجميع على باب مستشفى الأطباء، وكان الطبيب بانتظارهم فأدخلوها غرفة الولادة، وأبت سهجنان الحماة إلاّ أن تكون معها. فصدع الطبيب ومساعداته مرغمين.

لم يكن انتظار وليد وأبيه في غرفة الانتظار مريحاً، فلقد كانا قلقين يجلسان متقاربين يشدان بصمت كل أزر الآخر. مضى الوقت بطيئاً، فلم يتحركا حتى سمعا صوت سهجنان الحماة، تزغرد وهي قادمة إليهما:

- آويها جابت صبي يا مين سمع يا مين شاف
  آويها مدوا جودلي وشرشف دهب ولحاف
  آويها قوم يا وليد بوس مرتك ولا تخاف

آويها ندري استحق أمشي حافية عالدار

ليليليليليليليش.

مبروك يا وليد صبي! صبي يا وليد! باركولي! باركولي.

واحتضن الجميعُ الجميعَ وسط مهرجان من القبل والدموع.

عادت سهجنان الحماة إلى سهجنان الكنّة، فيما انتظر وليد وأبوه مناداتهما ليدخلا. نوديا بعد قليل، فدخلا، كان المولود الحنطيّ على ذراع أمّه وهو يلتقم ثديها بنهم شديد. «سمّو بالله يا وليد. سمّي يا بو وليد. عين القريب أصعب من عين البعيد» «بسم الله الرحمن الرحيم» «بس؟ قولو: ما شاء الله وكان». ردَّد وليد وأبوه: «ما شاء الله ما شاء الله» «قولو وكان» «ضروري؟» «أكيد يا وليد.» «وكان». «بلا مسخرة! عيدها من الأوَّل وقولها منيح، وانت يا بو وليد ما شاء الله وكان». «ما شاء الله وكان، ما شاء الله وكان».

نامت سهجنان الحماة على الكرسي تلك الليلة، ولم ترض بالذهاب مع وليد وأبيه إلى البيت. «اجيت إجري وأجرها، ومنرجع عالبيت إجري وإجرها». وهكذا كان، غادروا المستشفى بعد يومين، حيث كان سرير الطفل قد وجد مستقراً له في غرفة نوم وليد وسهجنان، بعد أن أزيحت الأريكة التي كانت هناك إلى أقصى الغرفة. وما كان الرضيع يصدر صوتاً حتى يهرع الجميع ليتحلقوا حول سريره، فتبعدهم سهجنان الحماة «بيعدو.. بيعدو. لاحقين تشوفو!» فيبتعد

وليد وأبوه صاغرين. ويخلو الجو للسهجنانين. «عطي بزّك، بركي جوعان!» «سمعتي الحكيم شو قال يا ماما مش كل ما عمل وع وع بتعطي بزّك!». «دخيلك ودخيل الحكيم، شو بعرفو. عطيه بزك كل ما جاع». «قولك؟». «قَوْلي» ونص!».

- ماما! فيني احملو شوي؟
- الحكيم قال ما تعودو الولد عالشقشلي يا وليد، ما بعود يهدى إلا عالإيد يا حياتي.
- ولو يا حياتي!
- شو بدك بهالحكي يا سهجنان، الولد بحب التغنيج. إذا ما شقشلنا هلق ايمتين من شقشلو لما يصير مشورب.
- عن جد؟ وأنا هيك رأيي يا ماما، خليه يحملو شوي...
- احملوا يا وليد. بس عمهلك.

عندما حمل وليد ابنه، شعر بالعزة والحنان، فشدَّه إلى صدره بلطف، وكاد يبكي وقد أمسك الطفل بسبّابة أبيه كأنه يتعرف إليه ويحتمي به، اقشعر وليد بسعادة لهذا التواصل بينه وبين طفله.

- إجا دوري؟
- تفضل يا بابا!

أخذ الدكتور مطرود حفيده بين يديه فاستعاد لحظةً أوّل مرّة حمل فيها وليد فبكى بسعادة غامرة.

- خلصونا بقا! بكيتوني. عطو هالولد لأمو، وتعو نشوف شو بدنا نساوي؟
- ساوي اللي بدك ياه يا حجة. هلق بروح بجيب حوايج المغلي.

مغلي؟!! قالت بلهجتها البيروتية العتيقة وبصوتٍ عالٍ، فذعر الجميع بمن فيهم الطفل الرضيع. «سميت باسم الله الرحمن الرحيم».

- طيب شو بدك تعملي يا حجة؟
- الضيافة بقلاوة ومن عند البحصلي. خلو المغلي لغيرنا. وبدي اعمل مولد..
- كل شي إلاّ المولد! نسيتي مرة الماضية شو صار، نزلت العين علينا.
- معك حق! والله نسيت. شو العمل؟
- منتبرع للأيتام، مش لمأوى العجزة. ومنجهِّز أوضة عاسمو بمستشفى المقاصد.
- هيك قولك يا حاج؟
- اي هيك قولي.
- طيب شو بدك تسمي ابنك يا وليد؟
- ما بعرف! شو قولكن.
- أنا من جهتي مسامحكن. ما حدا يسمي عا اسمي. اسمي غريب وعتيق.

انفرجت أسارير وليد، الذي كان خائفاً أن يُفرض عليه اسم أبيه، وهو الذي عانى ما عانى طوال حياته، وخصوصاً في المدرسة، حين كان يأتي الناظر ليدقّق بالأسماء، فيتلوها ثلاثياً، وما أن ينتهي الناظر إلى اسمه حتى يقهقه الجميع ويبتسم الناظر، وفيما كان وليد يجيل أسماء عدّة في رأسه: «داني، فؤاد.. فادي.. سعيد.. رغيد..» سمعَ الجميعُ صوت سهجنان الكنَّة تقول:

- اعطوني مطرود! ابني اسمو مطرود! عا اسم جدو. أحلى إنسان وأطيب قلب.

فانهمرت دموع مطرود، واكبَّ عليها يحتضنها، ثم غادر الغرفة وفي قلبه سعادة يصغر الكون كلُّه وما فيه أمامها.

لقد أوجع سهجنان الكنَّة اسمها طويلاً، لكنها لم تجد الخير إلا بسببه، فلماذا لا تقبل هذا الاسم. إن الإنسان أحياناً يحيل فشله إلى أسباب لا علاقة لها بالواقع. إننا نفشل لأننا لم نقم بالعمل كما يجب. ونخيب لأننا أهملنا لا بسبب أسمائنا. نعم! قد يكون للاسم وقعٌ على سامعيه لكنه لن يبلغ وقع فعل الإنسان عليهم. فكم من صادقٍ بالاسم وسارقٍ بالفعل، وكم من أمين بالتذكرة، وخائن في الواقع..

عاد الدكتور مطرود، بعد دقائق، وهو يحمل صندوقاً مفضَّضاً فيه ليرات ذهبية.

- هيدي نقطة محمد خير، حفيدي، وابن نور عيني وليد.

دهش الجميع لموقف الدكتور مطرود، وارتاح وليد كما بدا على محياه، ولم تمانع الحاجة سهجنان لكنها علَّقت: «ييه! ليش غيرت رأيك يا حاج؟».

بدي دلعو، اسم مطرود ما بيمشي بالدلع. هيك فينا نقولو حمودي، فاجأت سهجنان الكنَّة الجميعَ مرّة أخرى: «وليد! بكرا بتقطع تذكرة لابننا باسم محمد مطرود».

حاول الدكتور أن يعترض، فلم يفلح، فخرجت سهجنان الحماة من الغرفة. وعادت بنصف دزينة أخرى من المباريم كما وعدت كنتها يوم عرفت بحملها.

انتشر خبر ولادة صبي لوليد المفتي بعد سبع عشرة سنة من زواج سابق، وانتهى الأمر إلى دنيا عزوز زوجة وليد السابقة، فاتصلت به في مكتبه في المجلة، وأراحت ضميرها مما كانت تخفيه، من تزويرها لوثائق عقمه، فأقفل الخط يخامره مزيج من الغضب والسعادة.

عندما اختلى وليد بسهجنانه تلك الليلة، سألته متى يرغب في إجراء فحص الدي أن أي DNA للتيقن أن الرضيع ابنهما، أسكتها وليد بقبلة. وأفهمها أنه كان متشككاً ثاني ليلة لقائهما، ولظنّه أنه كان عقيماً. أما الآن فما عاد يهمه إلا دوام هذه السعادة، بعيداً من كل ريبة. فالحياة التي تقوم على الشك ليست سوى جحيم محقَّقة. والشك في الأول كما في الآخر نارٌ تقود إلى الجنون.

حاول وليد جاهداً بعد أن بلغ عمر محمد مطرود ابنه أربعين يوماً، أن ينتقل وزوجته إلى بيتهما «مستحيل! الولد وسهجنان بضلو هون، دبِّر حالك!» وانتهى الأمر بأن بقوا جميعاً والنعل على النعل، يتحركون بين البيتين. فإذا استضافوا زائرين من خارج البلد أقاموا في شقة وليد في الرملة البيضا. وما عدا ذلك فالإقامة الدائمة في شقة الظريف.

جاء وليد ذات يوم تغمره السعادة «السمسار شاهين بيضون، خلص دفع وبعد شهر بيصدر ديوانو، «أصفِّر لك من بعيد» كلفنا طبع ألف دولار والتنقيح والتصحيح عحساب المجلة، ولو جبور وشادي لشو؟ الربح حلال زلال أربعتعشر ألف دولار. هيدا عا وج حمودي». «مبروك يا حياتي»

- احزري مين بيسلم عليكي؟
- مين؟
- دينة الخانجي. بدها تشوفك لما ترجعي عالبلد... ههههه. وصّت عا ديوان جديد، وطلبت تكتب رواية عن قصة حياتها. احكي بخمسين ألف دولار وما فوق. وصرت عاملها مقابلتين. مش معقول يا سهجنان بتكب المصاري كبّ هالمخلوقة، ما عاد عندي وقت للفرافيط، تاعول الثلاث أربع تلاف، الله يحميكي ويحمي حمودي وجكن خير عليي. مبارح اتصلت فيي مرت وزير مدري ايا وزارة. حضريلي حالك. بدها تعمل شاعرة. بدنا نخرفشلها ديوان.

- قول إن شاء الله حبيبي.

وهيداك اليوم إجاني شخص، من فوق، الست وفيقة، وبتسمي حالها وفا بدها مقابلة معنا، وفي احتمال اقنعها بتأليف كتاب حول تجربتها بالطابق العلوي. وإذا كان كل شي متل ما بدها، رح يعينوني المستشار الفني للطابق الفوقاني.

وهذا بالضبط ما جرى بعد نشر المقابلة التي جعلت من الست وفا أهم من نوال السعداوي في قضايا المساواة بين الرجل والمرأة و...

هكذا استمر وليد، وسيستمر في ذلك، فلا عاقل يسدّ باب النبع بصخرة. فبات سمسار كل الراغبات والراغبين في لقب شاعرة أو شاعر، أو خبيرة تجميل، أو مهندسة زراعية، فمجلة «فتاة الخليج» أشهر المجلات الاجتماعية وأحسنها إخراجاً وأكثرها إنفاقاً على الألوان، وأرخص المجلات سعراً.

تقرأ سهجنان الكنَّة ذات صباح في الجريدة، عن توقيف فهد الفرَّان لبيعه بوالص تأمين دون صلاحية، كان يفعل ذلك بمختلف بوالص التأمين على الحياة، أو الصحة أو الممتلكات، بدأ يفعل ذلك ببوليصة واحدة من أصل عشر، وكلما كان يزداد مصروفه يزيد نسبة النصب إلى اثنين من عشرة، فثلاثة، فأربعة، حتى انتهى به الأمر إلى بيع بوليصة واحدة صالحة من أصل عشر فاسدة.

لم ترثي سهجنان الكنَّة لحالة فهد، إلا أنها خافت على وليد الذي

ضحك كثيراً من مخاوفها، قائلاً: «يا حياتي أنا مش نصَّاب، وما يعمل شي يخالف القانون، هني بدن الشهرة وأنا ببيعن ياها».

رأت سهجنان الكنّة، ذات ليل، فيما يرى النائم، أن أباها الفضل قد أتاها وقال لها «أنا مسافر! حبيت ودّعك!» استيقظت مرعوبةً. وأيقظت وليد: «بكرا من الصبح عطرابلس!» «إجا عبالك حلاوة الجبن؟» «لأ. بدي شوف بيي قبل ما يموت!».

اتصلت سهجنان بأختها هلا التي انفجرت لدى سماع صوتها «ولك وينك تاركيتنا». فأخبرتها بأنها ذاهبة لزيارة والديها اليوم. «فإذن منلتقي هونيك» وما أن استعد وليد وسهجنانه للانطلاق، حتى استوقفتهما سهجنان الجدّة «لوين من غير شرّ، وحاملين هالولد؟» «بدي روح شوف أهلي» «أنا قدامكن!» ارتبكت سهجنان الكنّة. لكنها وافقت وفي نفسها وجلٌ، إلا أنها قررت أن تواجه ماضيها مرّة وإلى الأبد. وبالطبع رافقهم بالرحلة الجد أبو وليد. في الطريق، روت سهجنان الكنَّة فصولاً متقطعة من حياتها لوليد ووالديه ولابنها ابن الشهور الأربعة، أصغى الجميع إليها، وهي تشرح غضبها من اسمها الذي أُلصق بها من أجل مبرومة. علَّق الدكتور مطرود: «ما كانت محرزة الزعلة. بعمرو الإنسان ما يزعل، ويسلّم امرو لربو». أما سهجنان الحماة فشدَّت على ساعد الكنَّة وقبَّلتها. «بتهون!».

ليس من نافل القول الإشارة إلى أنّ الفضل قد تمكَّن من رؤية حفيده محمد مطرود وصهره وابنته التي لم يرها منذ زمان بعيد. انهمرت الدموع غزيرةً، وفوق طاقة الفضل الذي أصابته جلطة جديدة أودت بحياته هذه المرة، مما اضطر سهجنان ووليد وأبويه وحفيدهما للإقامة

في فندق «كوالتي إن» بطرابلس، حتى انتهاء مراسم الدفن والعزاء. سألت الكنَّة الحماة كنّتها: «كيف خطروا أهلك عبالك بهالساعة». «شفت بيي بمنامي وقاللي بدي ودعك» «الله أكبر.. الله أكبر، شفتو المؤمنة وبنت الأصل».

مرَّت أيام الحزن الثلاثة، كما يمرُّ كل شيء في الحياة، وبات على سهجنان العودة إلى بيتها، فمشقة الرحلة بين طرابلس وبيروت كانت منهكة لوليد، على مدى ثلاثة أيام، والأمر نفسه ينطبق على هلا التي لم يأت معها زوجها ولا الأولاد، فليس في الإمكان تعطيل مدارسهم مدة لم تكن تعرف مداها.

لا بدَّ للحياة أن تستمر، فمجراها لا ينتظر أحداً. والموت في النهاية غياب فرد، فالناس يموتون أفراداً بمعزل عن عدد الأموات في اللحظة الواحدة، إلا أن أثر الموت في الأحياء المرتبطين بالميت لا يكون سهلاً عليهم، ولا متماثلاً فيما بينهم، إن رهبته تكون مهيمنة في الأيام الأولى، ثم تذوي يوماً فيوماً، لتصبح فيما بعد مجرد ذكرى أليمة. لقد فُجعت بنات الفضل بموت أبيهن، وما استطعن الكفّ عن النواح طوال اليوم الأول للدفن، أما في صبيحة اليوم التالي، فكانت لكلّ منهن حساباتها. فسهجنان أحسَّت بالحاجة إلى أن تغلق نوافذ الماضي كلّها، وتعود إلى حاضرها، إلى سهجنان الحماة والدكتور وليد وإلى وليد وطفلهما محمد مطرود، فلقد دفنت مع أبيها كل ارتباط بطرابلس وإلى الأبد.

أما هلا، التي كانت تقضي الليل مع أمها وسيلة وهويدا وزوجها وأولادهم، فلقد أمضَّها انفعالات هويدا الدائمة، من كثرة المعزين، وواجبات الضيافة، ومواصلة المسجِّل على تكرار التلاوة. «ما عاد فيني اتحمَّل، بدي ارتاح ببيتي، صار البيت مثل المزبلة». فتغضب وسيلة ويبدأ الشجار: «هيدا بيتي!» «لأ. يا ست وسيلة. جوزك تنازل عنو لإلي. واللا نسيتي؟» ولم يكن في يد هلا حيلة إلاّ الوقوف بينهما، بين أمها شبه الكسيحة، واختها البالغة الوقاحة طوال الليل.

عصر اليوم الثالث للدفن، وانتهاء مراسم العزاء عرفاً، غادرت سهجنان بيت أمها، بل بيت هويدا الآن، إلى فندق كواليتي إن، لتوضيب الأغراض قبل المغادرة إلى بيروت، على أن تمرّ لوداعهم بعد إنجاز كل شيء. وهكذا كان، عادت سهجنان مساءً تحمل ابنها محمد مطرود وبجانبها وليد، ومعهما سهجنان الحماة والدكتور مطرود. تمنى الجميع لوسيلة دوام الصحة والعافية وختام الأحزان. رفعت وسيلة رأسها، ونظرت إلى وجه ابنتها سهجنان، ثم تأملت الرضيع الوسيم الذي كان يلغو ويشدو، «عطيني ياه يا جنان!» «أنا سهجنان يا أمي!» حملت وسيلة محمد مطرود، ضمته إلى صدرها، وقبَّلته مراراً، ولم تُر وسيلة سعيدةً بهذا القدر منذ زمن بعيد. «شو سميتو هالقمر؟» «محمد» قالت سهجنان الحماة. «محمد مطرود» عقَّبت سهجنان الكنَّة. «اللهم صلي على روح سيدنا ونبينا محمد، بس شو دخَّل مطرود؟ شو مطرود

اسم؟» «اي! هيدا اسم بيو لجوزي وليد الدكتور مطرود». وأشارت إليه. نظرت وسيلة إلى الكهل الوسيم الواقف قرب السهجنانين «قديش كلَّفك هالاسم يا دكتور؟». «عبطة حنان يا أمي!» قالت سهجنان، ضحكت وسيلة بأسى، ثم خاطبت الدكتور وليد: «مش عم اقدر أوقف عاركابي، شو عندك دوا؟» ضحك الجميع ثم أوضحوا لها أنه أستاذ جامعي لا طبيب. فعلَّقت «كلو متل بعضو» شرع الرضيع في البكاء. يريد أن يتفلَّت من ذراعي جدَّته وسيلة، فناولته إلى أمه وهي تقول: «ابن ابنك إلك، ابن بنتك لأ. والشعر ينبت باللحا، بالكفّ لأ. روح لعند أمك يا تاتا». سألت هلا أختها سهجنان همساً إن كان بإمكانها مرافقتهم إلى بيروت، فأومأت موافقة مشجعة ومسرورةً.

قبل أن يغادروا، نادت وسيلة سهجنان وقالت بصوت عالٍ: «المبرومة؟ المبرومة!» وهي تشير إلى معصمها «أخدتها هويدا. ما حدا يطالبني بشي».

صرخت هويدا أمام الجميع، دون حياء «دخيل الله شو بتحكي!» ثم نظرت إلى سهجنان: «اوعك تفكري! هيدي أجاري. اللي بدو ياها يجي يخدم أمو».

ليس من الضروري الحديث عما جرى في طريق الرجوع إلى بيروت، حيث ما كفَّت سهجنان عن البكاء، ثم ألقت برأسها على كتف حماتها في المقعد الخلفي للسيارة واستغرقت في نومٍ طويل لم يوقظها

منه إلا وصولهم إلى البيت. «وين هلا؟» نزلناها حد بيتها. وبكرا بتجي صوبنا، عطيناها العنوان» «يسلمو يا ماما!»' واحتضنتها وشدَّت كمن يشدُّ على كنز.

ليس من عادة الأيام أن تراعي أحداً، ولا أن تسير على مزاج أحد، إلاّ أن أفعالنا ترتد علينا في غالب الأحيان.

ففي ذات صباح تصل هلا إلى بيت أختها سهجنان، ثم تطلب الاختلاء بها، «احكي هون! هول بيي وامي» وأشارت إلى سهجنان الحماة والدكتور مطرود.

«هويدا!» «شو بها؟». «بدها تحط امك بالمأوى». فاض الدمع بعيني سهجنان، ولم تحر جواباً. «هيدي أمك يا سهجنان، بتقعد معك! هلا بيتها ما بيساع. وهون البيت ساحة قال أبو وليد». «عمّك عم يحكي الحق يا بنتي» عقّبت سهجنان الحماة.

نظرت سهجنان إلى عمها الدكتور مطرود وحماتها سهجنان من وراء الدموع، ثم هرعت إلى الحمام تستفرغ أمعاءها. خافت هلا، فتبعتها. أما سهجنان الحماة فابتسمت بفرح، وقالت للدكتور مطرود «مش قلتلك حامل.» «مزبوط! محمد صار عمرو سنتين».

وستعيش وسيلة في بيت سهجنان ابنتها ست سنوات قبل أن تموت، فقد أصابها الزهايمر، ولم تعد تعرف من الحياة إلاّ فتح فمها للطعام، وفقحتها لإفراغ ما أكلته. ولولا الحفاضات فالله وحده يعلم ما كانت

ستكون عليه الحال. وفي هذه الأثناء أصبح لسهجنان ووليد ثلاثة أولاد: محمد مطرود، الفضل وثناء. أمّا هويدا فلقد طلقها زوجها، ولم يدفع لها لا نفقة ولا إعالة، وحجته أن هويدا تملك راتب أبيه التقاعدي، وهي تملك أيضاً بيت أبويها، أما هو فلقد ملَّ الذهاب صباحاً والإياب مساءً من طرابلس إلى شكا، وبالعكس. وقد تزوج امرأة مطلقة تعمل في معمل الاترنيت من آل فتفت.

وستستمر سهجنان الكنَّة في الحمل، بتشجيع من حماتها، «أنا بساعدك ما تخافي» العيلة الكبيرة منيحة. وما تنسي قول الله العظيم: «نحن نرزقهم وإياكم».

عندما ولدت سهجنان الكنَّة ابنتها ثناء، التي فرحت بها سهجنان الحماة فرحاً شديداً، وشدَت بالزغاريد والحمد الكثير، وهي التي اختارت لها هذا الاسم، تشجَّع وليد وقال لأمه: «ليش ما منقل عابيتي عالرملة البيضا، هونيك أوسع علينا، صرنا خمسة ثلاث ولاد وأنا ومرتي، وانتي وبيي تنين، ومرت عمي وسيلة والخادمة تنين. صارو تسعة».

- لأ. يعني لأ. بدك تموتني؟ بدي عيلتي حدي. لو بدي نام عالبلاطة.
- سلامتك يا مرت عمي. أنا هون مرتاحة يا وليد.
- قصدي بيروح بيي وامي بعيشو معانا. مش رح نتركن. شو منترك بيتنا بالرملة البيضا مسكر عالعتم؟

- لأ. مش رح يضل مسكر عالعتم. أنا حكيت مع هلا، أخت سهجنان. بيسكنو فيه ولادها عم يكبرو والمنطقة عندن صارت مش ولا بدّ.

دهش وليد، كما دهشت سهجنان «شو بكن تبلكمتو؟ هلا منيحة واخت بنتنا وولادها ولاد خالة ولادنا. شو بتؤمر؟»

- أملك معها حق يا وليد، قال الدكتور.

وانتهى الموضوع.

انتهى الموضوع ولم تنته الرواية. فالرواية حكايا مبرومة لا تنتهي إلاّ لتبدأ كالحياة نفسها في استدارة حلزونية تصعد وتهبط بهدىً غير مفهوم، ولكنه معلوم، يتقمص فيها الناس بعضهم أدوار بعضٍ بعض جيلاً فجيلاً على خشبة واسعة اسمها الوجود.

كفرحتى ١٦/ ٨/ ٢٠١٤

عماد حمزة، ناقد وروائي، بيروت. لبنان.

مؤلفاته:

- في التحقيق: «الروضة الفيحاء في تواريخ النساء»، للخطيب الموصلي. «إحياء علوم الدين» للغزالي، مع د. طلال حرب. أجزاء من «نهاية الأرب» للنويري.

- في الشعر «أوراق مراهق» و «الأزرق المعتلّ» نافذان.

- في الرواية: «ظلال زائفة»، دار الفارابي.

له كتابات نقدية وترجمات عن الإنكليزية منشورة في صحف ومجلات لبنانية: النداء، الأخبار، السفير، نداء الوطن، المستقبل، النهار والحوادث.

و«مبرومة» رواية ترسمُ وجوهاً تظن، مثلنا، أنها تقدِّرُ مصائرها بنفسها، وهي لا تدري، مثلنا، أن وقائع الحياة تحرّكها أحداث وأسماء تتكرّر دائماً، ولا مجال للإفلات منها إلا بضربة حظٍّ تعبرُ كشهابٍ عابرٍ مرّة كل مئة عام على خشبة الحياة المرتجَّة.




ISBN 978-614-432-308-3
9 786144 323083